ليون تروتسكي

الإرهاب والشيوعية

تعريب
جورج طرابيشي

دار دمشق
للطباعة والنشر

تأليف
ليون تروتسكي

الارهاب والشيوعية

تعريب
جورج طرابيشي

دار دمشق
للطباعة والنشر

« اذا كانت الرأسمالية الروسية قد تطورت
بدون انتقال من درجة الى درجة ، بل وثباً ،
مقيمة في أعماق السهوب المصانع على الطريقة
الاميركية ، فهذا سبب اضافي آخر كيما يكون
الاقتصاد الاشتراكي قادراً على مثل هذا السير
القسري ... اننا نستطيع حتماً أن ندخل الكهربة
الى كل فروع الصناعة الاساسية والى قطاع
الاستهلاك الشخصي دون أن نكون مضطرين الى
المرور من جديد بـ « عصر البخار » .

ل . تروتسكي

ايار ١٩٢٠

مقدمة

اذا ما رجعنا الى الوراء زمنياً ، فان صيف ١٩١٤ يأخذ دلالته التاريخية . وهذه الدلالة بعـد أن توضحت وتعمقت تفرض نفسها اليوم فرضاً . ان صيف ١٩١٤ لم يكن بداية حرب طويلة اجتاحت اولا اوروبا ثم العالم اجمع فحسب ، بل كان أيضاً نهاية عصر : ان اوروبا معينة ستختفي ولن تعاود الظهور ابداً . عروش تنهار ، امبراطوريات قديمـة تسقط تحت ضربات الوطنيين المتلهفين الى تحقيق استقلالهم أو استعادته . ولم يكن زعماء الدول الكبرى قد تصوروا شيئاً من هذا ، بل لم يتوقعوا انقلاباً كهذا عندما دعوا شعوبهم الى السلاح وجندوها بالملايين . وكان شعار جميع المتحاربين واحداً : الدفاع عن الديموقراطية والحرية والثقافة. وكان كل واحد منهم يخترع اساطير كفيلة بأن تدفع الى المعركة بمن لن يجنوا منها الا الخسارة . وكان الجميـع مقتنعين بأن المخرج سريع ، وبأن النصر سيتحقق في مدى ثلاثة شهور . وكان الصحفيون والكتاب يتنافسون اخلاصاً لخدمة الدعاية ، دون أن يكونوا تابعين دوماً بملء ارادتهم للحكومات . وكانوا نادرين اولئك الذين رفضوا من البداية أن يتقاعدوا وكان من بين هؤلاء المسالمون والاشتراكيون الذين كانوا لايرون في الحرب الراهنة الا الحرب التي كان يحوم خطرها فوق اوروبا منذ مطلع القرن ، والتي لم يكفوا عن التحذير من احتمال نشوبها ، ولما كانوا اكثر

تبصراً من الحكام ، فقد كانوا يتصورون نهاية الجزرة الطويلة كما استحدث تماماً : تضحيات عظيمة باطلة لن تؤدي الى زوال النزعة العسكرية والامبريالية اللتين ستخرجان منها معززتين تحت أشكال جديدة .

من بين هؤلاء الرجال القلائل في تموز ١٩١٤ ريمون ليفوبور الذي ادلى بشهادة باسمهم ، بعبارات ممتازة في مقدمة « اسفنجة الخل » الذي طبعه عام ١٩٢١ في دار نشر « كلارتيه » . لقد كتب مشيراً الى اجتماعات حلقات المقاومين المثقفين حول « الحياة العمالية » تلك الحلقات التي ساهم فيها : « كنا نكتفي بان نبث الحياة بحزن في بقايا الرماد الباردة المتبقية من الأممية ، وبأن نستعرض، بذاكرة مريرة ، قائمة من سقطوا على الارض وبأن نتنبأ بتبصر غير مجد بحروب ضروس طويلة لن تقهر فيها الا الحضارة». ولقد عرفنا ، ونحن في قلب باريس، كيف نكون في آن واحد بين آخر الاوروبيين التابعين لأوروبا الجميلة الذكية التي خسرها العالم الى الأبد ، وبين الرجال الاوائل لأممية ماتزال في عالم الغيب ، وان كانت بالنسبة الينا يقيناً . لقد كنا السلسلة التي تربط بين عصرين ... » يقيناً ، ان اوروبا الجميلة تلك لم تكن خالية من العيوب . فقد كان لها بؤسها ، وفضائحها المالية ، وتجارتها البيضاء ، ومنافساتها الدنيئة ، لكن القرن التاسع عشر يظل متميزاً ، اذا مانظرنا اليه عن بعد وفي مجموعه ، بمطامحه الكريمة ، وبنضاله من اجل حرية البشر والشعوب : ففيه حطم الديمقراطيون « التحالف المقدس » الذي كان ينوي ان يخضع الشعوب الحرة لنير الاستبداد . ومن اطلق عليهم فيما بعد لقب « الطوبائيين» امثال سان سيمون وفورييه وكابيه وروبرت اوين ، المنهمكين في انجاز العمل الذي بدأته

الثورة الفرنسية الكبرى في الميـــدان الاقتصادي ، سادوا انظمة هدفها التحرير الشامل للبشر ، وشهد كلا العالمين ولادة مستعمرات امكن فيها لهذه الانظمة المختلفة ان تأخذ طريقها الى التطبيق العملي . لقد كانت هذه الانظمة المتنوعـة مسالمة بطبيعتها ، وكان تحقيقها يفترض السلام . والى جانبها تأسست وتطورت روابط اممية من اجل السلام والحرية . ولقـد طرحت فكرة « الولايات المتحدة الاوروبية » واقترحت في احيان كثيرة كبند من برنامج واجب تحقيقه . ثم جاء ماركس والماركسية لينشئا الاممية العالمية الاولى . وتلاهما باكونين وفوضويته ، والكومونة واخمادها الوحشي . وسمحت هـدنة ۱۸۸۰ بعودة المنفيين والمرحلين ، وتشكلت بالتالي احزاب اشتراكية جديدة . وولدت الاممية الاشتراكية من جديد في باريس عام ۱۸۸۹ ، واحتل فيها فوراً الاشتراكيون ـ الديمقراطيون الالمان مكانة الصدارة .

ويحتل كارل كاوتسكي في « قائمة من سقطوا على الدرب » المرتبة الاولى . ولقد كان جحود الاشتراكيين ــ الديموقراطيين في الرابـع من تموز ، كما هو معروف ، صعباً جـداً على لينين ومفاجئاً له ، حتى انه لم يستطع ان يصدقه . وحين اتضح ان كاوتسكي هو بين الجاحدين ، شنت عليه من قبل اشتراكيي جميـع البلدان الذين ظلوا أوفياء للروح الاممية حملة شعواء حقيقية يبررها على وجـه التحديد المركز الرفيـع الذي كان يحتله في الحركة الاشتراكية -- الديموقراطية وفي الأممية الثانية . فلقد كان في كلتيهما سيداً ، ومدافعاً أول عن الماركسية الاوثوذكسية ضد المرطقة ، كما لاحظ ذلك برنشتاين حين صاغ علناً مفهوم الاشتراكيين الاصلاحيين الذي ينص ، سواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا ، على أن الهـدف النهائي

ليس شيئاً ، وعلى أن الحركة هي كل شيء – وهذا عـــلى وجه التحديد مادل عليه تصويتهم على اعتمادات الحرب ، في حين أن مقررات المؤتمرات الاممية القريبة العهد قد تنبأت بقـــدر كبير من الدقة باندلاع الحرب الراهنة ، وأملت بوضوح كبير مايجب ان يكونه موقف الاشتراكيين . لكن برنشتاين كان صائب النظرة . فالثورة الاجتماعيـة لم تكن بالنسبة اليهم اكثر من شعار يحتل مكانه في نهاية مقال أو خطاب لا هب في اجتماع عام . لكن موقف كاوتسكي المعروف دلل على أن هذا الموقف يمكن أن يكون أيضاً ، وفي اخطر الظروف ، موقف الاشتراكيين الذين يعتبرون ثوريين أصيلين . ولقد كان هذا الوضع سائداً في جميع البلدان . لـكن ما اضفى على جحود كاوبسكي صفة استثنائية هو المكانة الاستثنائية الـتي يحتلها في الحركة الاشتراكية .

واذا ما قرأ الانسان التقديرات الصارمة الشائعة آنذاك ، فانه قد يميل الى التساؤل كيف أن اشتراكيين واسعي الاطلاع من أمثـال لينين وتروتسكي وبوخارين وكثيرين غيرهم قـد امكن لهم ان ينخدعوا الى هذا الحد وان يعتبروا كاوتسكي لمدة طويلة من الزمن كأستاذ لهم في الماركسية . ان تفسير ذلك بسيط ، عندما نكون قادرين على أن نتصور بدقة ما كانه الثوري الروسي وبمَ يتميز عن ثوري الأمم الديموقراطيـة الكبيرة . ان الثوري الروسي ، الذي صورته دعاية العملاء الرأسماليين في فترة من الفترات على انه وحش دموي يحمل سكينه بين اسنانه ، كان على العكس يملك حس القيم ويعرف كيف يقدرها حتى عندما يعتبرها معادية ، ولا ادل على ذلك من ملاحظة لينين عن المعهد البريطاني الشهير، تلك الملاحظة التي استشهد بها الكتاب كثيراً منذ أن رواها تروتسكي في

سيرته الذاتية « حياتي » . فقد جاء تروتسكي الى لنـدن ، باستدعاء من لينين ، بعد أن هرب من سيبيريا . والتقى الرجـلان لأول مرة ، وكان اكبرهما سناً ، لينين ، يتحرق شوقاً لمعرفة ذلك المناضل الشاب ، الحازم واللامع في آن واحد ، وللحكم عليه . وأثناء نزهة من النزهـات ، توقف للحظة امام النصب المهيب وقال : « انه وستمنستر ، نصبهم » ، مؤكداً اللهجة على ضمير الـ « هم » — اي اعدائنا — « لكن وستمنستر شيء عظيم . كذلك هو شأن التايمز ، جريدة البورجوازية ، لكن يا لها من جريدة ! كم اتمنى لو كان بمقدورنا ان نصدر صحيفة مماثلة ! » .

ان الفترة التي دخل فيها معظم الاشتراكيين الروس الى الحيـاة السياسية ، كانت تشهد انطلاقة المانيا الكبرى وانطلاقة الحركة الاشتراكية الديموقراطية في الوقت نفسه . انهم ماركسيون ، لكنهم يعرفون أنـه مايزال عليهم أن يتعلموا الشيء الكثير . وكانت اقـامتهم في السجون القيصرية ونفيهم الى سيبيريا ، قد وفروا لهم أوقات الفراغ ، وأتاحـــا لهم أن يعرفوا مدى جهلهم في الوقت نفسه الذي أتيح لهم فيه أن يقرؤوا بعض مؤلفات ماركس وانجلز . فهل كان بمقدورهم أن يجدوا استاذاً لهم خيراً من كاوتسكي ؟ ما كان بامكانهم أن يترددوا : فقد كان كاوتســكي يعتبر خير مطلع على مؤلفات ماركس ، وافضل شراحه ، ومدير مجلة الحزب النظرية « الزمن الحـــديث » ، وكانت حظوته كبيرة لدى الاشتراكيين ، وكانت له هيبة حتى على الاوساط المثقفة غير المـاركسية تفرض عليها أن تعامله باحترام . ومما لاريب فيه أنهم كانوا احياناً يجدونه متعالماً ومملا بعض الشيء في سعة اطلاعه ، لكن اورثوذكسيتـه كانت تعجبهم وتطمئنهم .

أفليس بناء على اقتراح من كاوتسكي أدينت المساهمة الوزارية ـ دخول اشتراكي في وزارة بورجوازية كما هو شأن ميران في فرنسا ـ عام ١٩٠٠ في باريس ، ثم في امستردام عام ١٩٠٤ ، حتى أن جوريس نفسه والاشتراكيين الفرنسيين اضطروا الى التخلي عن سياسة تكتل اليساريين كيما يدعموا الوزارة الراديكالية ؟ وهكذا توطدت سلطة كاوتسكي نهائياً ، وتجاوزت الحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية لتشمل « الأممية » كلها . وكان الثوريون الروس يقرؤون ويدرسون مؤلفاته التي سرعان ماتترجم وتنشر في عدد من اللغات ، ومن بينها « الثورة الاجتماعية » الذي وصف فيه بدقة ماهية الثورة الاجتماعية وقارنها بالثورة السياسية . لكنه بعد أن نشر تعاليمه على هذا النحو الواسع ، جحدها بعد بضع سنوات ، في عام ١٩١٧ عندما قامت الثورة بالشكل الذي وصفها به . كان قد كتب : « كل اشتراكي يعمل من أجل الثورة بالمعنى الواسع للكلمة ، لكن ثمة اشتراكيين يرفضون فكرة الثورة ويريدون تحقيق التحول الاجتماعي بالاصلاحات وحدها ... على العكس، ان هذه التدابير (الاصلاحات) هي نتيجة لثورة حين تكون مطبقة من قبل الطبقات المضطهدة اقتصادياً وسياسيا في الماضي والتي تمكنت من الاستيلاء على السلطة السياسية ، والتي يتوجب عليها في سبيل مصلحتها أن تحول بسرعة البنى الفوقية السياسية والحقوقية وأن تخلق اشكالاً جديدة للتعاون الاجتماعي . . . ان الثوري هو ذاك الذي يعمل للاستيلاء على السلطة من أجل طبقة مضطهدة ، وهو لايفقد هذه الصفة اذا ما أعد لهذا الاستيلاء وعجل به عن طريق اصلاحات اجتماعية منتزعة من الطبقات الحاكمة . . . ان الثورة السياسية لايمكن أن تصبح ثورة اجتماعية الااذا

قامت بها طبقة مضطهدة اجتماعياً ... لقد فقدت اليوم العبارات اللاهوتية قدرتها على التخدير ، وبخاصة بين عناصر الشعب الثورية . أما المناداة بالحق التاريخي ، فقد فقدت أيضاً الكثير من قوتها الرادعة » .

هذا ما كانه كاوتسكي ماقبل ١٩١٤ . مكانة استثنائية تماماً كما تدل على ذلك الوقائع المذكورة آنفاً . سلطة فكرية يستطيع أن يسمح لنفسه باستخدامها عند المناسبة بكل رشاقة . وهذا مثال . كان شارل آندلر ، الاشتراكي الفرنسي ، الاستاذ في جامعة السوربون ثم في « كوليج دي فرانس » قد اعد ونشر في سلسلة شعبية لكن معتني بها للغاية ، « ترجمة لـ « البيان الشيوعي » مزودة بتعليقات غزيرة وعميقة وكان هذا عملا فكرياً يعتمد على سعة الاطلاع وعلى الأمانة ، لكن مجلة « الزمن الحديث » عاملته بخفة ، ملمحة الى أن المؤلف قد غامر باستخفاف في ميدان لاقبل له به . وقد رأى آندلر أن هذه الطريقة في التصرف غير مقبولة بين اشتراكيين ، ورد بلهجة عنيفة على ما اعتبره نقداً غير مقبول ، وألح على نشر جوابه في المجلة . والحال أن طلبه العادي هذا لم يلب ، فقد أعيدت اليه رسالته بكل بساطة بحجة أنها لم تستلم نظراً الى أن طوابعها البريدية ناقصة .

انها حادثة صغيرة عارضة بلا ريب ، لكنها لا تخلو من دلالة لانرى من ضرورة للاشارة اليها . علاوة على أننا نستطيع أن نذكر حوادث أخرى من نفس النوع ، وحول مواضيع أكثر أهمية . ففي منعطف القرن ، أخذ النمو الاقتصادي في المانيا يسير بوتيرة سريعة حتى أن نتائجه لم تتخلف عن ترك آثارها في سياسة الحكومة الدولية ، ولوحظ في الوقت نفسه تغير محسوس في تصرف الالمان في مختلف الميادين ،

وبخاصة في الحركة العمالية حيث كانت هيمنتهم الجديدة تؤدي في غالب الاحيان الى اصطدامات لاتعدو أن تكون شخصية ولاتهيء الجو بالطبع لتوطيد علاقات ودية ضرورية لتخفيف حدة الاختلافات المبدئية .

وعند اندلاع الحرب تغير كل شيء ، وبالدرجة الاولى منظمات الطبقة العاملة . وحرمتها حالة الحصار والرقابة من كل امكانية للعمل الحر ، بل من كل امكانية للاستطلاع ،ومن كل اتصال غيرالاتصال الذي تسمح به السلطة . كانت الحكومة ترى أن كل نشاط يجب أن يركز على الحرب . « لم تعد هناك قوانين اجتماعية » ، هذا ما أجاب به وزير فرنسي ، ميران ، لوفد عمالي جاء يقدم اليه بعض المطالب : « لم يعد هناك من شيء غير الحرب » . انذار وقح يعبر بدقة عن سياسة الطبقات الحاكمة ، سواء أأعلنته أم لم تعلنه . انه زمن الامتحان للمناضلين العماليين والاشتراكيين الذين حرمهم الحكام من كل حق في الوقت نفسه الذين كانوا يطلبون فيه اليهم ان يؤيدوا بدون تحفظ سياستهم الحربية ، وبخاصة بمن لعب دوراً هاماً في الاحزاب والنقابات ، وفي « الأممية » . وهذا ماحدث لكاوتسكي . فهو لم يفكر ولم يتكلم قط الا بتعابير الطبقة والنضال الطبقي ، باعتباره مدافعاً لايساوم عن الماركسية الثورية . وهل كان يستطيع أن يتكلم بلغة اخرى ؟ من مختلف انحاء العالم الاشتراكي كان ينتظر منه التصريح الذي سيسمح للجماهير بأن تتبين طريقها في ليل الحرب . انتظار لاجدوى منه . انه ليس عضواً في الرايخستاغ ، فهو بالتالي ليس ملزماً بأن يدلي برأيه فوراً بصدد اعتمادات الحرب . وهذا ماسمح له بأن يلتجيء الى نوع من المذاهب المرجئة . انه لن يكون لا شايدمان الذي اندفع من اليوم

الأول في تأييد سياسة كايزر الحربية بلا تحفظ ، ولا ليبكنيشت الذي رضخ في البداية لانضباط الزمرة البرلمانية ليتحرر منه في كانون الاول ، مستغلا أول فرصة سنحت له ليعلن معارضته العلنيـة للحرب واطالب بالسلام « سلام بلا ضم لا يذل أحداً »[1] .

أما بالنسبة الى كاوتسكي ، فقد كان يعتقد أن الاشتراكي لا عمل له في زمن الحرب ، وتخلى هو نفسه عن كل نشاط تقريباً ، رغم حبـه الشديد للكلام . انه يتقرب من برنشتاين الذي أساء معاملته هو بنفسه منذ مدة قريبة ، وفضح هرطقته ، وتبنى كلاهما نزعة وسطية لا تذهب الى اكثر من الالتقاء في سويسرا بـ « أعداء » ، باشتراكيين ونقابيـين فرنسيين ، لا بهدف الحفاظ على روح الاممية البروليتارية رغم كل شيء ، كما فعل ذلك زمر وولد ، بل فقط للتباكي بتشاؤم غير مبالغ فيه عـلى تعاسة الزمن .

وعندما كان يتكلم كان كأنه شخص آخر تماماً غير الشخص الذي عرفتـــه المؤتمرات محيياً « التكتيك الماضي المتمرس المظفر » للحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية ، كما كان يفعل في مدينة دريسد عام ١٩٠٣ ، أو قائلاً في المؤتمر نفسه : « لقد سعينا حتى الآن الى تعميق الهوة التي تفصلنا عن الطبقات الحاكمة ، والى اثارتها ضدنا ، والى ارهابها كيما نصل الى احداث حادة ، الى صراع علينا ان ننتصر فيه . اما التكتيك الجديد فيسعى الى تجنب المعارك ، والى تلافيها . ان التكتيك القـديم يقوم على نظرية ماركس . والجديد لا يكون مبرراً الا اذا كانت نظرية

(١) : يقصد ضم الدول الاخرى اوبعض اراضيها . « المترجم »

ماركس خاطئة » . وجاء الحدث الحاد في اهاب الحرب ، لكن الذعر تملك كاوتسكي .

انه شخص آخر ،اسلوب آخر ، عندما يكتب . واختفت اللهجة الواثقة، القاطعة ، الحاسمة ، لهجـة مدير « الزمن الحديث » أو مؤلف « طريق السلطة » ، لتحل محلهالهجة خائرة وعبارات كهذه : « ليست الاممية سلاحاً من أسلحة زمن الحرب ، باعتبار انها بطبيعتها اداة سلام » . او قوله عن حرية الصحافة في النظامالثوري : « الكذابون والمتعصبون موجودون في كل المعسكرات » .



اذا كان كاوتسكي قد التزم جانب الصمت نسبياً أيام الحرب ، فلقد عاد الى الكلام بكل طاقته بدءاً من ثورة اوكتوبر ، لا ليدافع عنها – كما كان مفروضاً فيه نظراً الى ماضيه كله – بل ليحاربها بلا كلل، وبتهالك وسوء نية لايمكن لأي مرتزق في الصحافة الرأسمالية أن يتباهي بأنه يستطيع أن يتجاوزهما . بل انه سرعان ماخصها بكتاب كامل تحت عنوان « الارهاب والشيوعية » . وتحمل المقدمة تاريخ حزيران ١٩١٩ لكن المؤلف يحدد بأنه بدأ الكتابة قبل عام من ذلك التاريخ ، وتوقف على اثر قيام الثورة الألمانية في ٩ تشرين الثاني ، واستأنفها بعد بضعة أشهر واكمل فصول الكتاب أثناء أوقات فراغه . وسرعان ماترجم الىالفرنسية ونشر في باريس في اواخر العام .

اللهجة فيه لهجة كاوتسكي الجديد . على سبيل المثـــال : « المرء يرتكب الحماقات دوماً ، وفي زمن الثورة يرتكب منهـا اكثر من أي

زمن آخر » . لكن لهجة التعالم لم تفارقه: «الذين فهموا نظرية ماركس على حقيقتها قليلون ، فهذه النظرية تتطلب عملا فكرياً كبيراً للغاية » . وايضاً : « ليست قيادة الحرب، بشكل عام ،الجانب القوي في البروليتاريا» ولقد كتب هذا مع أن ذاكرته ماتزال محتفظة بالصورة الغضة لأربـــع سنوات من الحرب اذا كان كبار القادة العسكريين قد اثبتوا فيها شيئاً، فهو أن الحرب ليست جانبهم القوي ، في حين ان العمال والفلاحين الروس قد لقنوهم ، في ظل دكتاتورية البروليتاريا ، دروســـاً عدة وسيلقنوهم المزيد منها ماداموا يحلمون بالتدخل وبدعم قوى الثورة المضادة .

واود أن أشير أولا الى عبارتين استشهد بهما كاوتسكي ، دلالتها بليغة نظراً الى انها تبينان الى أي حد يمكن أن يندفـع كاوتسكي في عدائه لثورة اكتوبر . ففي الفصل الذي خصصه لمقارنة الكومونة بالثورة الروسية ، يستشهد بكتاب « الثورة الاشتراكية » (المنشور باشراف جان جوريس) ، وهو كتاب تافه ،خال تماماً من الاصالة و الابتكار، مع أن هناك عدة مؤلفات عن الكومونة كان بمقدوره الرجوع اليها. ذلك لان كاتبه كما يقول هو «الثوري الطيب» دوبري» . والحال ان هذا «الثوري الطيب» هو واحد من اولئك الاشتراكيين الذين يريدون أن تستمر الحرب « حتى النهاية » ، ولكن الذين يظلون هم انفسهم بعيدين عن الخنادق . بل انه ليس وسطياً شأن كاوتسكي ، انما هو اقرب الى شايدمان وكاشان وموسوليني وشركائهم .

والاستشهاد الثاني مأخوذ عن فوضوي سويسري ، وهـذا شيء يبعث على الدهشة في حد ذاته نظراً الى ان المـاركسية الاورثوذكسية تعتبر الفوضوي عدواً . وكان هذا الفوضوي يريد ، رغم انه سويسري، ان يستمر الفرنسيون والالمـان والبريطانيون والنمـاويون في الاقتتال

في حرب لاهدف لها ولا مخرج . وفي حين ان ثورة اوكتوبر قد سمحت للكثيرين من العمال والمثقفين التـائهين بان يتمالكوا انفسهم ، يقف ذلك الفوضوي ، مثل كاوتسكي ، في صف حلفاء الثورة المضادة . غير انه ينبغي ان نشير الى ان القضية اهم من سابقتها ، نظراً الى انها تقوم على كذبة هي من اصفق الاكاذيب في زمن اصبح فيه الكذب ، بفضل دعاية المتحاربين ، بضاعة رائجة . فمن بين القذارات المنسوبة الى السوفييت ، كان هناك تلميح الى « تشريك مزعوم للنساء » . بل ان كاوتسكي يمضي في الكذبة الى حدودها القصوى ، ويدعي ان لديـه وثيقة حاسمة وجدها في كتاب الفوضوي الآنف الذكر : وهي أمر صادر عن مجلس سوفييت عمـالي . ولقد كانت الوثيقة ، شأنها شأن غيرها ، مزيفة لاتستحق غير الازدراء . لكن كاوتسكي لم يتردد في التمسك بها وفي استخدامها لـيـدعم رأيه ، الشيء الذي قاده الى ان يقوم بتحقيق مفصل حول كل بنـد من بنود « الوثيقة » : ولقد كانت هـذه فرصة جميلة لكشف الزيف والمزيفين ولكشف المساهمين في هذه الدعاية الدنيئة المنطلقين من المبدأ القائل ان كل وسيلة صالحة عندما تكون موجهة ضد مجالس السوفييت . وتفاصيل هذه القصة مروية في كتاب تروتسكي .

ثمة عادة دارجة تريد أن تصور الثوريين ـ البورجوازيين أو الاشتراكيين ـ بأنهم افراد متعطشون الى الدم والنهب والقتل . مع أنه من السهل على العكس ومن الضروري أن يكتب فصل تمهيدي يوضع في مقدمة تاريخ كل ثورة للتأكيد على كرم الثوريين وتسامحهم . ان رجال الطبقة المضطهدة التي تستـلم الحكم لاتسيطر عليهم فكرة لانتقام . انهـم لايطمحون ، وقد غمرهم فرح النصر والتحرر من ذل طويل ، الى اكثر

من تحقيق المثل الاعلى الذى حاربوا من اجله ، وبناء المجتمع الجديد الذي اهتدوا بفكرته اثناء نضالهم . وهذا شعورعبرعنه بدقة ل بودين في « رسالة من باريس » عن ايام ١٨٣٠ الثورية . فلقد كتب متحدثاً عن الرجال الذين قادوا تلك الايام : « لقد انتصروا بسرعة وغفروا بسرعة اكبر ايضاً » .

في عام ١٨٤٨ كانت الثورة عيداً يغمره فرح عام ، وتفاؤلاً يتجلى في غرس اشجار الحرية في كل الساحات . وليس اسهل من ادانة الكومونة بحجة ذبح الرهائن ، لكن اذا مافعلنا ذلك نكون قد نسينا ان اخذ الرهائن لم يكن بالنسبة لرجال الكومونة إلا وسيلة لحماية انفسهم من جريمة تيير الذي رفض ان يعتبر « الاتحاديين » محاربين وأمر بالتالي باعدام من يعتقل منهم. ففي بداية ثورة اوكتوبر سقط الجنرال كراسنوف، اثناء احدى المعارك ، في ايدي البولشفيين . فهل اعدموه فوراً ؟ ابدا . بل اعيدت اليه حريته مقابل وعده والتزامه بعدم معاودة محاربة روسيا السوفياتية . ولقد اقسم على ذلك بـ « شرفه العسكري » ، ثم أسرع يلتحق في خدمة جيش دينيكين .

وثمة واقعة اخرى اقل اهمية ، وذات طابع شخصي تثبت الى اي حد تظل روح الانتقام غريبة على الثوريين . فحين نفي تروتسكي من فرنسا تام ١٩١٦ ، كان الشرطي المكلف بالعملية يدعى فوبا- بيريه . ولقد ادى هذه المهمة باخلاص لامثيل له بحيث ان تروتسكي اعتقل لحظة وصوله الى اسبانيا، وذلك عندما سلم الشرطي المذكور لزملائه الاسبانيين رسالة تصف تروتسكي بأنه « فوضوي خطر » . وبعد عامين - عامين حدثت فيهما امور كثيرة - اقتيد فوبا-بيريه المذكور الى تروتسكي في مكتبه بموسكو.

وقال الشرطي مرتبكاً وقلقاً بلا ريب من المصير الذي ينتظره : « اجل ، هو أنا » . واضاف : « انه مجرى الاحداث » محاولاً بذلك ان يثبت انه ليس شرطياً عادياً وانه يملك بعضاً من عناصر الفلسفة السياسية . وعلى كل الاحوال ، لم يكن يفتقر الى الصفاقة باعتبار انه قبل بالمجيء الى روسيا ليراقب الرجال الذين عرفهم اثناء تعذيبه لهم في فرنسا . وتلهى تروتسكي قليلا بـ « مجرى احداث » الشرطي الفيلسوف الذي استطاع ان يعود الى فرنسا ، مندهشاً بلا ريب من انه نجا بجلده بمثل هذه السهولة .

بديهي اننا لانقول هذا كله لننفي واقع الارهاب ، بل لنثبت انه غير متلازم والثورة . فالوصول الى « لجنة السلامة العامة » والى « دكتاتورية » روبسبيير ، والى قانون بليريال ، لابد من هرب الملك وخيانة الجنرالات وتآمر المهاجرين المستمر ، وتدخل الدول الاجنبية عسكرياً . فعلى الثورة ان تدافع عن نفسها عندما توضع العراقيل في وجه ارادتها السلمية في اعادة البناء . والطبقة المالكة ، حين تطرد من السلطة ، ترفض الاعتراف بهزيمتها . انها تشعر ، لحظة طردها ، انها بلا قوة ، وانها عاجزة عن المقاومة . لكنها سرعان ماتشرع في محاولة استعادة امتيازاتها التي انتزعت منها ، وتلجأ آنذاك الى كل الوسائل وكلما ازدادت نزعتها العدوانية ، احتدت المعركة ، واشتد القمع ، وكثرت تدابير البوليس ، وفتّ في عضد الثورة المضادة ، لكنها تكون قد نجحت في تسميم النظام الجديد بارغامه على انتهاج سياسة لم يردها ، وعلى تبذير جزء من القوى ، خير القوى في غالب الاحيان ، كان كل قصده ان يستفيد منها على وجه أحسن .

ان التدخل الاجنبي يرغم الثورة على خلق جيش يفترس الرجال والموارد ، في بلد هدمته حرب طويلة او نظام حكومي عاجز وفاسد .

وحين نتذكر ان قوات الجيش الاحمر بلغت ، اثناء الحرب الاهليـة ، والدفاع ضد التدخلات الاجنبية ، خمسة ملايين رجل (هذا ما كانه ايضاً عدد قوات الجيش الفرنسي اثناء الحرب العالمية الاولى) ، نستطيع ان نتصور كم كلفت الثورة المضادة روسيا السوفياتية وكم حرمتها من جهود قوى حية لاتحصى .

والحال ان كاوتسكي ، في نقده وتهجمه المكرر والمعاد على النظام الاقتصادي الذي حاولت مجالس السوفييت ان توطده ، يتجاهل كل هذه الامور الجوهرية التي لابد من معرفتها للتمكن من اصدار تقييم صحيح للموقف . انه يقف معجباً ، وقد انقلب من ماركسي الى ديموقراطـي ، امام الدول الديموقراطية الكبرى ، انكلترا وفرنسا ، التي لم تحقق المعجزة مع ذلك ايام الحرب ، وبخاصة عند توقيعها لمعاهدات السلام التي قطعت اوصال اوروبا تقطيعاً سخيفاً للغاية الى حد أن نظرة خاطفـــة نلقيها على الخارطة تكشف لنا عن جرثومة حرب جديدة .

ان كتاب تروتسكي يحمل نفس عنوان كتاب كاوتسكي ولقد تأخر في كتابته هو الآخر شهوراً عديدة ، لكن لأسباب مختلفة ينوه بها المؤلف في مقدمته : « ان مؤلفنا هذا الذي بدأناه اثناء المعـارك الطاحنة ضد دينيكين وبودينيتش ، قد توقف عدة مرات بسبب احداث الجبهة... لقد كنا مرغمين على فضح افتراءات كاوتسكي في المسائل الاقتصادية مبينين تشابهها مع افتراءاته في المجال السياسي » . وسيقول ايضاً : « ان الكتاب مكرس لتوضيح مناهج سياسة البروليتاريا الثورية في عصرنا الراهن . والكتاب معروض في اطار سجال كالسياسة الثورية نفسها . ان السجال الموجه ضد الطبقة السائدة ، والمفهوم من الطبقة المسودة ، يتحول في لحظة

معينة الى ثورة » .

واذا كان القسم السياسي من الكتاب هاماً باعتباره نقداً لاذعاً لجحود كاوتسكي – وسيساهم لينين في هذا النقد بكتابه المنشور بعد مدة وجيزة تحت عنوان« الثورة البروليتارية وكاوتسكي الجاحد »،والذي يجمع بين النقاش والخطابية – فان القسم الاقتصادي منه لذو اهمية استثنائية . ففي الفصل الثامن ، المكرس لمسائل تنظيم العمل ، نجد من ضمن مانجده: التقرير الذي قدمه تروتسكي للمؤتمر الثالث الروسي الموحد للنقابات وهذا التقرير يعالج بصراحة تامة كل المسائل المتعلقة بالسلطة السوفياتية والصناعية : لوحة صادقة عن وضع صعب ،لكنها تذكير عاقل بالأهداف العظيمة الجليلة « التي يمكن ان تعتبر قد تحققت بعد ان انتهت الحرب الاهلية الآن » . ان هذا التقرير الجوهري في حد ذاته نظراً الى اهمية موضوعه ، يشتمل ايضاً على اهمية اخرى : فهو يبين كيف كان القائد السوفياتي يخاطب العمال آنذاك .

الفريد روسمر

ايار ١٩٦٣

« هل انت راضية عن الروس ؟ بالطبع ، انهم لن يستطيعوا ان يستمروا في جو اللغط الجهنمي هذا . لابسبب الاحصائيات التي تشهد على تطور روسـيا الاقتصادي المتخلف كما حسب ذلك زوجك حساباً صائباً - بل لأن الحركة الاشتراكية - الديموقراطية في هذا الغرب المتفوق التطور مؤلفة من رعاديد جبناء يتركون الروس يسفحون دمهم كله دون ان يغيروا موقفهم ، موقف المتفرج المسالم . لكن مثل هذا الموت خير من « البقاء على قيد الحياة من اجل الوطن » . انه عمل ذو مدى تاريخي عالمي ستظل آثاره باقية على مدى العصور . انني انتظر ايضاً اشياء عظيمة في السنوات القادمة . لكني احب ان اعجب بتاريخ العالم من غير ان اقف خلف حاجز ... » .

روزا لوكسمبورغ
رسالة الى لويزا كاوتسكي
بريلو - السجن الاصلاحي
٢٤ تشرين الثاني ١٩١٧

مقدمة

هذا الكتاب أوحي بنا اليه كتيب كاوتسكي المتعالم المنشور تحت العنوان نفسه . ان مؤلفنا هذا الذي بدأناه اثناء المعارك الطاحنة ضـــد دينيكين ويودينتش قد توقف عدة مرات بسبب احداث الجبهة . ففي الأيام الصعبة التي كنا نكتب فيها الفصول الاولى، كان اهتمام روسيا السوفييتات منصباً كله على المهام العسكرية المحضة . كان المهم قبل كل شيء الحفاظ حتى على امكانية بناء اقتصادي اشتراكي . وما كنا نستطيع تقريباً ان نهتم بالصناعة باستثناء ما كانت تستطيع ان تقدمه للجبهة . ولقد كنا مرغمين على فضح افتراءات كاوتسكي في المسائل الاقتصادية مبينين تشابهها مـــع افتراءاته في المجال السياسي . وحين بدأنا هذا العمل – منذ نحو عـام – كنا نستطيع ان ندحض تأكيدات كاوتسكي عن عجز العمال الروس عن ان يفرضوا على انفسهم انضباطاً في العمل وان يتقشفوا اقتصادياً ، منوهين بانضباط العمال الروس الرفيع وببطولاتهم في جبهات الحرب الاهلية ولقد كانت هذه التجربة تكفينا تماماً لتكذيب الافتراءات البورجوازية لكن باستطاعتنا اليوم ، بعد مرور بضعة أشهر ، ان نستشهد بمعطيات ووقائع مأخوذة من الحياة الاقتصادية لروسيا السوفييتات .

فما ان تراخى المجهود العسكري قليلاً ، وبعـد سحق كولتشاك

وبودينتش ، وبعد انسددنا الى دينيكين الضربات الاولى الحاسمة ، ووقعنا معاهدة سلام مع استونيا ، وبدأنا بالمفاوضات مع ليتوانيا وبولونيا ،حتى امكن للبلاد كلهاان تشهد عودة ملموسة الى الحياة الاقتصادية . واذا كانت عناية البلد وطاقته قد اتجهتا بسرعة من مهمة الى اخرى وتركزتا عليها ، مهمة عميقة الاختلاف عن الاولى وإن كانت تتطلب القدر نفسه من التضحيات ، فهذا دليل لا يدحض على الحيوية المدهشة للنظام السوفياتي . فعلى الرغم من كل الامتحانات السياسية ومن كل البؤس والشقاء الماديين ، ظلت الجماهير الروسية الكادحة بعيدة عن التفسخ السياسي وعن التخاذل المعنوي او عن اللامبالاة . لقد حافظت هذه الجماهير ، بفضل نظام اعطى حياتها معنى وهدفاً سامياً وان فرض عليها اعباء جساماً ، حافظت على مرونة معنوية كبيرة وعلى قدرتها التي لا مثيل لها في التاريخ على تركيز اهتمامها وارادتها على مهام جماعية . ان ثمة حملة جبارةاليوم في مختلف فروع الصناعة لاقامة انضباط حازم في العمل ولمضاعفة الانتاج . ان منظمات الحزب والنقابات ، وادارات المصانع والمعامل تتنافس في هذا الميدان يدعمها الرأي العام للطبقة العاملة كلها بدون تحفظ . ان المصانع تقرر ، الواحد تلو الاخر ، بلسان الهيئات العامة للعمال ، اطالة يوم العمل . وبطرسبورغ وموسكو تضربان المثل ، والريف يسير جنباً الى جنب مع بطرسبورغ ان « ايام السبت والأحد الشيوعية » ــ اي العمل المجاني المتطوع في ساعات الراحة ــ تطبق اكثر فأكثر من قبل مئات الألوف من العمال من كلا الجنسين . ان مضاعفة الانتاج والعمل ايام السبت والأحد الشيوعية جديران ، برأي الاختصاصيين وحسب شهادة الارقام ، بكل اهتمام .

ان التعبئة الطوعية التي يقوم بها الحزب واتحادات الشبيبة الشيوعية تتم اليوم من اجل العمل بالحماسة نفسها التي كانت تتم بها من اجل الجبهة . ان العمل الطوعي الكامل يفسح المجال واسعاً امام العمل الالزامي . ان لجان العمل الالزامي ، التي انشئت حديثاً ، اخذت تنتشر في طول البلاد وعرضها . ومساهمة السكان في عمل الجماهير الجماعي (تنظيف الطرقات والدروب المسدودة بالثلوج ، تصليح السكك الحديدية ، قطع الاخشاب ، تهيئة ونقل الحطب ، اعمال البناء البسيطة ، استخراج التراب النفطي والحجر الاسود) تأخذ اكثر فأكثر طابعاً اوسع ومدروساً اكثر . وان مضاعفة عدد الوحدات العسكرية العاملة كانت ستكون مستحيلة لولا الحماسة للعمل .

صحيح اننا نعيش في شروط دمار اقتصادي رهيب ، بين الانهاك والفقر والجوع . لكن ليست هذه حجة ضد نظام السوفييتات . فلقد كانت كل عصور الانتقال متميزة بهذه المظاهر المأساوية . ان كل مجتمع عبوديًا ام اقطاعياً ام رأسمالياً) لايغادر المسرح عن عبوديًا (سواء أكان عبودياً ام اقطاعياً ام رأسمالياً) لايغادر المسرح عن طيب قلب ما ان ينتهي دوره : اذ لابد من ارغامه على ذلك بنضال داخلي حاد يسبب في غالب الاحيان للمناضلين آلاماً وحرمانات اكبر حتى من الالام والحرمانات التي تمردوا عليها .

ان الانتقال من الاقتصاد الاقطاعي الى الاقتصاد البورجوازي — الذي كانت دلالته ضخمة بالنسبة الى التقدم — ترافق بقائمة لاتحصى من الشهداء . ومهما كانت آلام الجماهير المستعبدة من قبل الاقطاعية ، ومهما تكن صعبة شروط حياة البروليتاريا في ظل الرأسمالية ، فانها لاتوازي ابداً الكوارث الرهيبة التي عانى منها العمال في العصر الذي ارغم فيه المجتمع الاقطاعي القديم على التخلي بالعنف عن مواقعه لنظام جديد . ان ثورة

القرن الثامن عشر الفرنسية التي لم تبلغ مداها العظيم الا بفضل ضغط الجماهير التي حركها الألم ، قد زادت هي نفسها من بؤس الجماهير لفترة طويلة من الزمن وبنسب فائقة للطبيعة . وهل كان من الممكن ان يتم الأمر على غير هذا النحو ؟

ان مآسي البلاط ، التي تنتهي بتبدلات في قمة السلطة ، يمكن ان تكون وجيزة ولا تأثير لها تقريباً على حياة البلاد الاقتصادية . لكن الحال تختلف تماماً في ثورة تلقي في دوامتها بملايين الشغيلة . فمهما يكن شكل المجتمع ، يظل اساسه العمل . والثورة ، بانتزاعها الجماهير من العمل ، وبالقائها بها في اتون الصراع لمدة طويلة من الزمن ، وبقطعها اسباب الانتاج، توجه بالمقابل ضربات مماثلة الى الاقتصاد، فتخفض بالتالي مستوى التطور الاقتصادي بالنسبة الى ما كان عليه قبلها . وكلما كانت الثورة الاجتماعية عميقة ، كان عدد الجماهير التي تجرها اكبر ، وكلما كانت اطول، اساءت اكثر الى آلية الانتاج واستهلكت احتياطي المجتمع . ولا يمكن ان نستخلص من هذا الا شيئاً واحداً ليس بحاجة بالأصل للبرهنة عليه ، اعني ان الحرب الاهلية تضر الاقتصاد . لكن ان نلوم الاقتصاد السوفياتي على ذلك ، فهذا معناه اننا ننسب الى الوليد الجديد آلام الأم لحظة الوضع . ان هدفنا اختصار الحرب الاهلية . ولا يمكننا الوصول الى هذا الهدف إلا عن طريق الحزم في العمل . والحال ان كتاب كاوتسكي كله انما هو موجه ضد هذا الحزم الثوري .

× × ×

منذ ان نشر الكتاب الذي ندرسه ، وقعت احداث جسام ، لا في روسيا وحدها ، بل في العالم اجمع وبخاصة في اوروبا . ان تطورات عميقة الدلالة قد تحققت ، وهي تهدم اليوم وأسـاً على عقب آخر مواقـــع الكاوتسكية الدفاعية .

لقد اتخذت الحرب الاهلية في المانيا طابعاً متزايد الحدة باستمرار ولقد كانت القوة الظاهرية للتنظيم الاشتراكي الديموقراطي القديم للحزب والنقابات احد الاسباب الرئيسية في اطالة زمن الحرب واشتداد تفاقمها ، وذلك بعكس ما كانت تتوقعه نظرية كاوتسكي الراهنة التي كانت تعتقد ان هذه القوة ستسهل الانتقال السلمي و « الانساني » الى الاشتراكية . فكلما اصبحت الحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية عاجزة عن الحركة ومحافظة ، توجب على البروليتاريا الالمانية التي خانتها ان تبذل المزيد من القوى والدم والحياة في هجومها المصمم على المجتمع البورجوازي ، وذلك كيما تتمكن من خلال هذا النضال بالذات ، ان تخلق تنظيماً جديداً قادراً على قيادتها الى النصر النهائي . ان مؤامرة الجنرالات الألمـــان ، ونجاحهم المؤقت ونتائجه الدامية ، قد كشفت من جديد عن « المسخرة » الحقيرة التافهة التي انتهى اليها ما يسمى بالديموقراطية في الظروف الناجمة عن انهيار الامبريالية والحرب الاهلية . ان الديموقراطية ، ببقائها على قيـد الحياة ، لاتحل أي مشكلة ولا تمحو اي تناقض ، ولا تشفي أي جرح ، ولا تقي لا من تمرد اليمين ولا من تمرد اليسار : انهـا عاجزة ، تافهة ، كاذبة ، لاتنفع إلا في تضليل الفئات المتخلفة من السكان وبخاصة البورجوازية الصغيرة .

ان الأمل الذي عبر عنه كاوتسكي في القسم الاخير من كتابه ، الأمل بأن تقدم لنا بلدان اوروبا الغربية و « الديموقراطيات العريقة » في

فرنسا وانكلترا ،المتوجة بغار النصر ،لوحة تطور طبيعي ، صحي ،سلمي كاوتسكي" فعلا ، نحو الاشتراكية ،إن هذا الأمل هو اكثر الاوهام بطلاناً.
ان مايسمى بـ « الديموقراطية الجمهورية » في فرنسا المنتصرة ، هو اليوم حكومة هي من اكثر الحكومات التي عرفتها فرنسا رجعية ودموية وانحطاطاً . فسياستها الداخلية تقوم على الخوف والطمع والعنف ، شأنها شأن سياستها الخارجية تماماً . والبروليتاريا الفرنسية من جهة اخرى التي خدعت كما لم تخدع أي طبقة أخرى قط ، تنتقل أكثر فأكثر الى العمل المباشر . ان ثأر الحكومة من « الاتحاد العام للشغل » يدل على انه لامكان شرعياً في الديموقراطية البورجوازية حتى للنقابية الكاوتسكية ، اي لسياسة مصالحة مرائية ان تطور الجماهير نحو الثوروية وتعنت المالكين وتراجع التجمعات الوسطية — وهي تطورات ثلاثة تشرط وتمهد الجو ، في مستقبل قريب ، لحرب أهلية طاحنة — قد تفاقمت بسرعة ،تحت انظارنا في فرنسا خلال الشهور الاخيرة .

وتسير الاحداث في انكلترا في الاتجاه نفسه وان تحت شكل مختلف ففي هذا البلد تضطهد الطبقة الحاكمة وتنهب العالم اجمع ، اليوم اكثر من اي وقت مضى ، وقد فقدت الصيغ الديموقراطية كل دلالة لها وحتى على صعيد البهلوانيات البرلمانية . ان لويد جورج ، اشهر الاختصاصيين في هذا الموضوع ، لم يعد يذكر الديموقراطية ، بل تحالف الملاك الليبيراليين والمحافظين ضد الطبقة العاملة . اننا لم نعد نجد أثراً في حججه لاندفاعات كاوتسكي « الماركسي » الديموقراطية . ان لويدجورج يحتل مكانه الان على صعيد الوقائع الطبقية ، ويستخدم لهذا السبب لغة الحرب الاهلية . ان الطبقة العاملة الانكليزيه تقترب ، من خلال النزعة

التجريبية الثقيلة المميزة لها ، من فصل في تاريخ صراعها ستبدو الى جانبه صفحات الحركة الشارتية المجيدة شاحبة ، تمامـــاً كما ان التمرد القريب للبروليتاريا الفرنسية سيحكم بالشحوب حتى على أبهة كومونة باريس .

وانما على وجه التحديد لأن الاحداث التاريخية قد تطورت خلال الشهور الأخيرة بمنطق ثوري حازم ، تساءل مؤلف هذا الكتاب عم اذا كانت ماتزال هناك حاجة لنشره ، وعم اذا كانت ماتزال هناك حاجة للرد على كاوتسكي نظرياً ، وعم اذا كانت ماتزال هناك حاجة لتبرير الارهاب الثوري نظرياً .

اجل، مع الأسف . ان الايديولوجية تلعب في الحركة الاشتراكية، بسبب من طبيعتها بالذات ، دوراً كبيراً . ان انكلترا نفسها ، مهما كانت تميل الى النزعة التجريبية ، تدخل الان في مرحلة ستتطلب فيها الطبقـــة العاملة بالحاح متزايد ان تدرس تجاربها ومهامها دراسة نظرية . غير ان نفسيتها – بل حتى نفسية البروليتاريا – تشتمل على قوة رهيبة من العطالة المحافظة . وبخاصة ان المسألة ليست الا مسألة العقيدة التقليـدية لأحزاب الاممية الثانية التي أيقظت البروليتاريا وكان لها الى عهد قريب قوة واقعية . وبعد انهيار الحركة الاشتراكية ـ الوطنية الرسمية (شايدمان ، فيكتور آدلر، رينوديل ،فاندرفيلد ، هندرسون،بليخانوف) اصبحت الكاوتسية الدولية (قيادة اركان الالمان المستقلين ، فريتز آدلر ، لونغيه ، جزء هام من الاشتراكيين الايطاليين ، « المستقلون » الانكليز ، جماعة مارتوف ، الخ) العامل السياسي الرئيسي الذي يتحقق بواسطته التوازن غير المستقر للمجتمع الرأسمالي . ويمكننا ان نقول إن ارادة الجماهير الكادحة في العالم المتمدن ، المتوترة دوماً بمجرى الاحداث ، لهي اكثر ثورية بما لا يقاس

من وعيها الذي مايزال تحت تأثير الاراء البرلمانية المسبقة والنظريات التوفيقية. ان النضال من أجل دكتاتورية الطبقة العاملة يعني اليوم ضربة قاصمة الى الكاوتسكية في قلب الطبقة العاملة. ان الاكاذيب والاراء المسبقة التوفيقية التي ماتزال تسمم الجو حتى في اوساط الاحزاب الملتفة حول الاممية الثالثة يجب ان تطرح. وهدف هذا الكتاب هو ان يخدم قضية من يحاربون، بلا شفقة، في جميع البلدان، ضد الكاوتسكية الحائرة الغامضة المرائية.

× × ×

ملاحظة - ان الغيوم تتجمع من جديد في هذا الوقت (ايار ۱۹۲۰) فوق روسيا السوفييتات. ان بولونيا البورجوازية، بعدوانها على اوكرانيا قد دشنت هجوماً جديداً من قبل الامبريالية العالمية ضد روسيا السوفييتات. ان الاخطار الكبرى التي تهدد الثورة من جديد، والتضحيات الضخمة التي تفرضها الحرب على الجماهير الكادحة، تحرض من جديد الكاوتسكيين الروس على ان يقاوموا بشكل مكشوف سلطة السوفييتات اي ان يساعدوا القتلة الدوليين اعداء روسيا السوفييتات. ان مهمة الكاوتسكيين هي ان يحاولوا مساعدة ثورة البروليتاريا حين تكون قضيتها سائرة على ما يرام، وان يخلقوا امامها كل انواع العراقيل عندما تكون بأشد الحاجة الى المساعدة. لقد سبق لكاوتسكي ان تنبأ اكثر من مرة بهزيمتنا التي ستكون أفضل دليل على صحة نظريته. ان «وريث ماركس» هذا قد هوى، في سقوطه، الى هوة عميقة للغاية، حتى ان برنامجه السياسي وحده تجسيد حي لنظريته عن سقوط دكتاتورية البروليتاريا

انه يخطىء مرة أخرى. ان هزيمة بولونيا البورجوازية على يد الجيش الاحمر الذي يقوده العمال الشيوعيون، ستثبت من جديد قوة

دكتاتورية البروليتاريا ، وستسدد بالتالي ضربة جديــدة الى التشكيك البورجوازي الصغير (الكاوتسكية) بالحركة العمالية . ان التاريخ المعاصر ، رغم البهرجة المجنونة في المظاهر والشعارات ، قد بسط الى اقصى حد تطوره الاساسي بارجاعه الى الصراع بين الامبريالية والشيوعية .
ان بيلسودسكي لايقوم بالحرب من أجل امتيازات النبلاء البولونيين في اوكرانيا وروســيا البيضاء فحسب ، ولا من اجل الملكية الرأسمالية والكنيسة الكاثوليكية فحسب ، بل ايضاً من أجل الديموقراطية البرلمانية ، من أجل الاشتراكية التدرجية ، من أجل الاممية الثانية ، من أجل حق كاوتسكي في ان يبقى كناقد شماساً للبورجوازية ونحن انما نحارب من أجل الاممية الشيوعية ، من أجل الثورة العالمية للبروليتاريا . ان الرهـان عظيم بين الطرفين . وستكون المعركة عنيدة وصعبة . ونحن نأمل في النصر نظراً الى ان لنا عليه كل الحقوق التاريخية .

ل . تروتسكي

- ١ -

ميزان القوى

ثمة حجة تتردد باستمرار في نقد النظام السوفياتي الروسي وبخاصة في نقد الانتقال الثوري الى نظام السوفييتات في بلدان أخرى ، أعني بها الحجة المتعلقة بـ « ميزان القوى » فالنظام السوفياتي في روسيا طوبائي لأنه لايتجاوب مع « ميزان القوى » . انروسيا المتخلفة لاتستطيع ان تأخذ على عاتقها مهاماً يمكن ان تكون مهام المانيا المتقدمة . وانه لجنون حتى بالنسبة الى البروليتاريا الالمانية ، ان تستولي على السلطة السياسية ، لأن هذا سيكون معناه الاخلال بـ « ميزان القوى » .

وان « عصبة الامم » ليست مثالية ، لكنها تتجاوب مع « ميزان القوى » . والنضال من أجل الغاء النظام الرأسمالي طوبائي ، لكن ادخال بعض التعديلات على معاهدة فرساي سيتجاوب مع « ميزان القوى » . وحين يعرج لونغيه خلف ويلسون ، فليس ذلك بسبب ضعفه السياسي الكبير ، بل من أجل مجد « ميزان القوى » . ويرى فريدريك آدلر ان على الرئيس النمساوي شايدتز والمستشار وينر ان يطبقا افكارهما البورجوازية الصغيرة المهترئة في التشريعات الاولى للجمهورية البورجوازية

حتى لايتحطم « ميزان القوى » . فقبل عامين من الحرب العالمية لم يكن كارل رينر ، الذي لم يكن قد اصبح بعد مستشاراً ، الا محامياً « ماركسياً » انتهازياً يريد ان يثبت لي ان نظام الحركة النقابية الاتحادية الانكليزية ، أي نظام الرأسماليين والملاك العقاريين المتوج بالحكم الملكي ، سيقوم حتماً في روسيا طوال عصر تاريخي كامل ، ذلك لأنه يتجاوب مع « ميزان القوى »

فما هو اذن « ميزان القوى » — هذه الصيغة المقدسة التي تحدد وتفسر كل مجرى التاريخ ، جملة وتفصيلا ؟ وبتعبير أدق ، لماذا يستخدم « ميزان القوى » هذا بصورة متماثلة ثابتة لخدمة مدرسة كاوتسكي الراهنة ، ولتبرير التردد ، والعطالة ، والجبن ، والخيانة ؟

ان « ميزان القوى » يعني كل مايراد تحميله اياه : مستوى الانتاج ، درجة التفاوت الطبقي ، عدد العمال المختصين ، صندوق النقابات ، واحياناً نتيجة آخر انتخابات برلمانية ، واحياناً أكثر درجة تنازلات الوزارة أو وقاحة الاوليغارشية المالية — وأخيراً ، وفي غالب الاحيان الانطباع السياسي العام لدعي نصف أعمى يسمى بالسياسي الواقعي ، يتقن التعابير الماركسية لكنه يستلهم في الواقع احط المناورات والاراء المسبقة الشائعة والطرق البرلمانية . فبعد محادثة وجيزة سرية مع مدير الأمن العام ، كان السياسي الاشتراكي — الديموقراطي النمساوي يعرف دوماً بصورة دقيقة ، في الايام الجميلة المنصرمة الماضية ، ما اذا كان « ميزان القوى » يسمح بتظاهرة سلمية في فيينا بمناسبة أول أيار . ولقد كان أمثال ايبرت وشايدمان ودافيد يقيسون ، منذ مدة ليست بالبعيدة ، « ميزان القوى » بعدد الاصابع التي يوجهها اليهم بتمان — هولويغ ولودندورف عند لقائهما بهم في الرايخستاغ .

ان فريدريك آدلر يرى ان اقامة دكتاتورية السوفييتات في النمسا ستحطم بصورة مأساوية « مـــيزان القوى » ، وان « التفاهم الودي » سيجوع البلاد آنذاك . ويضرب لنا فريدريك آدلر مثالاً على ذلك هنغاريا التي لم يكن أمثال رينر الجريون قد نجحوا فيها بعد بقلب سلطة السوفييتات بمساعدة امثال آدلر . ويبدو للوهلة الاولى ان فريدريـك آدلر كان على حق . فالدكتاتورية البروليتارية لم تتأخر عن الانهيـار في هنغاريا لتحل محلها وزارة فريدريتش المغرقة في الرجعية . لكننا نستطيـع ان نتساءل بحق ما اذا كان هذا يتجاوب مع « مـــيزان القوى » . فلا فريدريتش ولا هوسزار كانافادرين ، في كل الاحوال ، على الاستيلاء على السلطة ولو مؤقتاً لولا وجود الجيش الروماني . لكن من البديهي اننا لا نستطيـع ان نتوقف هنا . فلو وطدت دكتاتورية السوفييتات في النمسا قبل الأزمة الهنغارية ، لصعب للغـاية قلب سلطة السوفييتات في بودابست . فها نحن مرغمين اذن على ان ندخل في حساب « ميزان القوى » الذي كان وراء السقوط المؤقت لحكومـــة السوفييتات الهنغارية ، النمسا وسياسة فريدريك آدلر الخائنة .

ان فريدريك آدلر نفسه لا يفتش عن مفتاح « ميزان القوى » في روسيا أو في هنغاريا ، بل في الغرب لدى كليمانصو ولويد جورج : فهما يمسكان بالخبز والفحم . والحال ان الخبز والفحم عاملان بالغا الاهمية اليوم في آلية « توازن القوى » ، ولا يقلان أهمية عن المدافع في دستور لاسال. ان رأي فريدريك آدلر ، الذي تفضل بالنزول من الاعالي التي يستوطن فيها ، هو أن على بروليتـاريا النمسا ألا تستولي على السلطة مالم يسمح لها بذلك كليمانصو (أو ميران ، أي كليمانصو من الدرجة الثانية) .

لكن من المسموح لنا ان نتساءل ههنا : هـــل تتجاوب سياسة كليانصو حقاً مع ميزان القوى ؟ قد يبدو للوهلة الاولى ان درك كليانصو اذا لم يثبتوا هذا الارتباط، فانهم كفيلون بتأمينه بحلهم الاجتماعات العمالية وباعتقالهم واعدامهم الشيوعيين . ولا نستطيع الا ان نذكر بهذا الصدد ان تدابير الارهاب التي اتخذتها حكومة السوفييتات ـ تفتيش ، اعتقال، اعدام ـ والتي وجهت ضد اعداء الثورة وحدهم ، قد اعتبرت من قبـل الكثيرين بأنها برهان على ان حكومة السوفييتات لا تتجاوب مع ميزان القوى . لكن عبثاً نفتش اليوم في العالم قاطبة عن نظـام لم يلجأ الى ثأر جماعي رهيب ذلك ان قوى الطبقات المعادية تميل ، بعد انتهاكها الحقوق كافة ، الى ان تثبت ارتباطاتها الجديدة بصراع لا شفقة معه .

فحين توطـد نظام السوفييات في روسيا ، لم يكن السياسيون الرأسماليون هم وحدهم الذين اعتبروه تحدياً وقحاً لميزان القوى : فقد كان هذا أيضاً رأي الاشتراكيين الانتهازيين في جميع البلدان . وليس ثمة خلاف في هذا الموضوع بين كاوتسكي ، كونت شزيرنان الهبسبورغي ، وبين رادوسلافوف رئيس لوزارة البلغارية . فمنذ أن انهارت الحكومات الملكية النمساوية ـ الهنغارية والالمانية ، تفتتت اقوى نزعة عسكرية في العالم وصمدت حكومة السوفييتات . وجندت دول « التفاهم » المنتصرة كل ما استطاعت تجنيده ، وقذفت به ضدها . لكن حكومة السوفييتات ثبتت . ولو أمكن لكاوتسكي وفريدريك آدلر واوتو بوير ان يتنبؤوا قبل عامين بأن دكتاتورية البروليتاريا ستتوطد في روسيا ، بالرغم من تهجمات الامبريالية الالمانية أولاً ، وبالرغم من نضال متواصل ضد امبريالية « التفاهم » ثانياً ، فان عقلاء الأممية الثانية كانوا سيعتبرون هذا التنبؤ دليلاً

على جهل مضحك بميزان القوى .

ان ميزان القوى السياسية هو ، في كل لحظة معينة ، حصيلة العديد من عوامل القوة والقيمة غير المتعادلتين ، ولايتحدد في الواقع إلا بدرجة تطور الانتاج . ان البنية الاجتماعية لشعب من الشعوب تكون دوماً متخلفة الى حد كبير عن تطور القوى المنتجة . والبورجوازية الصغيرة وطبقة الفلاحين تظلان على قيد الحياة حتى بعد مدة طويلة من تجاوز تطور المجتمع الصناعي والتكنيكي لطرائقها الاقتصادية وادانته لها. ويكون وعي الجماهير متخلفاً بدوره تخلفاً ملحوظاً عن تطور العلاقات الاجتماعية . ووعي الاحزاب الاشتراكية القديمة يكون متخلفاً بعصر كامل عن الحالة المعنوية للجماهير . ووعي الزعماء البرلمانيين والتريد - يونيونيين ، الاكثر رجعية من وعي احزابهم ، يشكل نوعاً من حصاة متحجرة لم يستطع التاريخ الى اليوم لا ان يهضمها ولا أن يتقيأها . وفي عصر البرلمانية السلمية ، يمكن للعامل البسيكولوجي ان يستخدم ، نظراً لاستقرار العلاقات الاجتماعية - وبدون اخطاء فاحشة - كأساس للحسابات كافة ولقد كان الاعتقاد يسود بأن الانتخابات البرلمانية تعبر بما فيه الكفاية عن ميزان القوى . ولقد فضحت الحرب الامبريالية ، بتحطيمها توازن المجتمع البورجوازي ، النقص الجذري في المعايير القديمة التي لم تكن تأخذ البتة بعين الاعتبار العوامل التاريخية العميقة المتراكمة ببطء في الماضي ، والتي تبرز اليوم لتوجه مجرى التاريخ .

ان السياسيين الروتينيين العاجزين عن فهم التطور التاريخي في تعقيده وتناقضاته وتنافراته الداخلية ، قد تصوروا ان التاريخ يعد العدة بصورة متوافقة وعقلانية ، ومن كل الجوانب في آن واحد ، لانتصار

الاشتراكية ، بحيث ان تمركز الصناعة والاخلاق الشيوعيـــة للمنتج والمستهلك يمكن ان يتطور وينضج مع المحاريث الكهربائية والغالبيات البرلمانية . ومن هنا كان موقفهم الميكانيكي المحض تجاه البرلمانيـة التي كانت تشير ، في نظر معظم سياسيي الأممية الثانية ، الى درجـة استعداد المجتمع للاشتراكية تماماً كما يشير جهاز قياس الضغط الى ضغط البخار . ولاحاجة بنا ان نشير الى سخافة مثل هـذا التصور الميكانيكي لتطور العلاقات الاجتماعية .

واذا ما ارتفعنامن الانتاج الذي هو اساس المجتمعـات الى البنى الفوقية ــ الطبقات ، الدول ، الحقوق ، الاحزاب ، الخ ــ يمكننا أن نقرر ان قوة العطالة في كل طابق من طوابق البنية الفوقيـة لاتنضاف مجرد اضافة الى قوة الطوابق الدنيا ، لكنها تتضاعف بهـا في بعض الحالات . وبالنتيجة فان الوعي السياسي للفصائل التي تظاهرت لمدة طويلة من الزمن بأنها الفصائل الاكثر تقدماً ، يبدو في مرحلة الانتقال كعقبة رهيبـة في وجه التطور التاريخي وبما لاريب فيه على الاطلاق ان احزاب الاممية الثانية ، التي تقف الان على رأس البروليتاريا ، كانت القوة الحاسمـة في الثورة المضادة ، نظراً الى انها لم تجرؤ ولم تعرف ولم تشأ ان تستولي على السلطة في احرج لحظات تاريخ الانسانية ، نظراً الى انهاقادت البروليتاريا الى الفناء المتبادل .

ان قوى الانتاج الجبارة ، التي هي عامل حاسم في الحركة التاريخية ، كانت تختنق في البنى الفوقية الاجتماعية المتخلفة (الملكية الخاصة ، الدولة القومية) التي كان التطور السابق قد حبسها فيها . لقد كانت قوى الانتاج ، التي نمتها الرأسمالية ، تصطدم بكل جدران الدولة القوميـة

والبورجوازية ، مطالبة بتحررهـــا عن طريق تنظيم عالمي للاقتصاد الاشتراكي . إن عطالة التجمعات الاجتماعية ، وعطالة القوى السياسية التي افتضح عجزها عن هدم التجمعات الطبقية القديمة ، وعطالة الاحزاب التي تتولى في الواقع حماية المجتمع البورجوازي ، إن هذا كله يفضي الى تمرد القوى المنتجة تمرداً تلقائياً بدائياً ، تحت مظاهر الحرب الامبريالية. وان التكنيك الانساني ، الذي هو اكثر عوامل التاريخ ثورية ، قد تمرد بما له من قوة متراكمة عبر عشرات السنين ، على النزعة المحافظة الكريهة وعلى العطالة الدنيئة لأمثال شايدمان وكاوتسكي ورينوديل وفاندرفيلد ولونغيه ، واطلق ضد الثقافة الانسانية شرارة مذبحة رهيبة بما لديه من رشاشات وطائرات .

ان سبب الكوارث التي تجتازها الانسانية اليوم يكمن على وجه التحديد في ان قوة الانسان التكنيكية قد نضجت منذ زمن طويـــل للاقتصاد الاشتراكي ، وفي ان البروليتاريا باتت تحتل في الانتاج موقفاً يضمن دكتاتوريتها ،في حين ان اوعى قوى التاريخ -الاحزاب وقادتها - ماتزال رازحة تماماً تحت نير الاراء المسبقة القديمة ولاتفعل شيئاً سوى ان تزيد في ريبة الجماهير في نفسها . وقد فهم كاوتسكي ذلك في الاعوام الاخيرة . فقد كتب في « طريق السلطة » : « لقد تطورت البروليتاريا الى حد تستطيع معه ان تنتظر بهدوء الحرب التي تأتي . ولم يعد ثمة مجال للكلام عن ثورة سابقة لأوانها في الوقت الذي استخلصت فيه البروليتاريا من الأسس الراهنة للدولة كل القوى التي كان بمقدورها استخلاصها منها وفي الوقت الذي أصبح فيه تحويل هذه القوى شرطاً لارتفاعها اللاحق » . ومن اللحظة التي فتح فيها نمو القوى المنتجة ،بعد ان تجاوزت أطر الدولة

القومية - البورجوازية ، عصراً جديداً من الازمات والاضطرابات امام الانسانية ، تحطم التوازن النسبي لوعي الجماهير في العصر السابق نتيجة لهزات مهددة . لقد سبق للروتين والعطالة اليوميين والتخدير باسم الشرعية ان فقدت كل سلطة لها على البروليتاريا . لكن البروليتاريا لم تدخل بعد بوعي وبلا تحفظ في طريق النضالات الثورية المكشوفة . فهي ماتزال تتردد في اللحظات الاخيرة من توازنها غير المستقر . وفي هذه اللحظة البسيكولوجية يأخذ دور القمة ، الحكومة من جهة والحزب الثوري من الجهة الاخرى دلالة عظيمة . اذ تكفي دفعة حاسمة - من اليمين أو اليسار - لتعطي البروليتاريا لفترة طويلة أو قصيرة - هذا الاتجاه أو ذاك . ولقد رأينا في عام ١٩١٤ كيف ان ضغط الحكومات الامبريالية والاحزاب الاشتراكية - القومية المتحدة قد حطم على حين غرة توازن الطبقة العاملة ودفع بها الى طريق الامبريالية . وقد رأينا فيما بعد كيف ان محنة الحرب والتنافر بين نتائجها وبين شعاراتها اللفظية الأولية ، قد هزت الجماهير وجعلتها أقدر على التمرد المكشوف ضد الرأسمال . وفي مثل هذه الشروط يشكل وجود حزب ثوري يدرك تمام الادراك طبيعة القوى القائدة للمرحلة ، ويفهم المكانة الحاسمة التي تحتلها الطبقة الثورية بين هذه القوى ، ويعرف طاقاتها الهائلة ، ويؤمن بها ، ويعي كل قوة المنهج الثوري في العصور التي تكون فيها العلاقات الاجتماعية غير مستقرة ، ويقف على استعداد لتطبيق هذا المنهج حتى النهاية ، أقول ان وجود مثل هذا الحزب يشكل عاملا تاريخياً ذا أهمية لاتقدر .

وعلى العكس : ان حزباً اشتراكياً يتمتع بنفوذ تقليدي معين لكنه لا يعي مايجري حوله ، ولا يفهم الموقف الثوري ولا يستطيع

بالتالي ان يجد مفتاحه ، ولا يؤمن لا في نفسه ولا في البروليتاريا ، ان حزباً من هذا النوع يشكل في عصرنا عقبة تاريخية مؤسفة ، وسبباً للقلق والفوضى المنهكة .

هذا هو اليوم دور كاوتسكي وتلامذته . انهم يعلمون البروليتاريا ألا تؤمن في نفسها، وان تصدق الصورة التي تعكسها لها مرآة الديموقراطية الخادعة ، هذه الديموقراطية التي تمزقت إرباً تحت حذاء الامبريالية . ان سياسة البروليتاريا الثورية يجب ألا تحدد نفسها، في رأيهم ، بالموقف الدولي، وبانهيار الرأسمالية انهياراً واقعياً ، وبما ينتج عن ذلك من دمار اجتماعي ، وبالضرورة الموضوعية لسيطرة الطبقة العاملة التي تعلن تمردها فوق انقاض الحضارة الرأسمالية التي يتصاعد منها الدخان . لا شيء من هـذا كله يجب ان يحدد سياسة الحزب الثوري البروليتاري . فهذه السياسة انما تتعلق فقط بعدد الاصوات التي يعترف لها بها محامو البرلمانية بموجب حساباتهم المتعالمة . ويبدو ان كاوتسكي كان يفهم ، قبل عـــدة سنوات ، ما هية المشكلة الثورية . فلقد كتب في منشوره الذي استشهدنا به آنفاً (طريق السلطة) : « لما كانت البروليتاريا الطبقة الوحيدة الثورية في الأمة ، فان انهيار المجتمع الحالي ، سواء أتخذ طابعاً مالياً ام عسكرياً ، انمـا يعني افلاس الاحزاب البورجوازية التي تقع عليها المسؤولية كلها ، ولا مخرج من هذا المأزق الا عن طريق حكم البروليتاريا » . لكن حزب التخاذل والخوف ، حزب كاوتسكي ، يقول اليوم للطبقة العاملة :

« ليست المسألة هي معرفة ما اذا كنت في هـــذا الوقت القوة الوحيدة الخلاقة للتاريخ ، وما اذا كنت قادرة على طرد عصابة المسيئين التي هي خلاصة انحطاط الطبقات المالكة الحاكمة . وليست هـي مسألة

كونك الوحيدة التي تستطيع ان تفعل ذلك ولا أحد سواك ، ولا هي مسألة ان التاريخ لايسمح لك بأي تأجيل - ذلك ان نتائج الفوضى الدامية الراهنة تهدد بأن تدفنك إنت أيضاً تحت آخر انقاض الرأسمالية . لكن المسألة كلها كامنة في ان اللصوص الحاكمين قد نجحوا بالامس أو اليوم في خداع الرأي العام واغتصابه وقمعه بحيث انهم جمعوا ٥١٪ من الاصوات ضد ٤٩٪ ألا فليمت العالم ، لكن فلتحي الغالبية البرلمانية ! » .

- ٢ -

دكتاتورية البروليتاريا

« لقد أبدع ماركس وانجلز مبدأ دكتاتورية البروليتاريا ، هذا المبدأ الذي دافع عنه انجلز بعناد عام ١٨٩١ قبل زمن قصير من موته ، والذي يعني ممارسة البروليتاريا وحدها للسلطة السياسية ، هـذه الممارسة التي هي الشكل الوحيد الذي تستطيـع ان تقيم عليه سلطة حكومية »

هذا ما كتبه كاوتسـكي قبل حوالي عشرة أعوام . كان يعتبر آنذاك ان ممارسة البروليتاريا وحدها للسلطة السياسـية ، للدكتاتورية ، لا للغالبية الاشتراكية في برلمان ديموقراطي ، هي الشكل الوحيد للسلطة الاشتراكية . وبديهي اننا اذا ماتصورنا ان المهمة هي الغاء الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، فلا سبيل الى تحقيق ذلك الا بتمركز جميع سـلطات الدولة بين يدي البروليتاريا ، وبخلق نظام استثنائي لاتخضع خلاله الطبقة الحاكمة لاعتبارات المقاييس المحسوبة لزمن طويل ، بل لاعتبارات ثورية متلائمة مع الهدف .

ان الدكتاتورية لاغنى عنها ، لأن المسألة ليست مسألة تغيير ذي

طابع فردي خاص ، بل هـي مسألة وجود البورجوازية بالذات وعلى هذا الاساس ، لامجال لأي اتفاق . ان القوة وحدها هي التي تستطيع ان تقرر . ان انفراد البروليتاريا بالسلطة لايستبعد بالطبع امكانية اتفاقات جزئية أو تنازلات كبيرة ، وبخاصة تجاه البورجوازية الصغيرة وطبقة الفلاحين . لكن البروليتاريا لاتستطيع أن تعقد هذه الاتفاقات الابعد أن تستـــولي على جهاز السلطة المادي والا بعد ان تضمن لنفسها امكانية التقرير الحر للتنازلات التي ستقبل بها أو ترفضها في اطـار مصلحة القضية الاشتراكية .

ان كاوتسكي يرفض اليوم رفضاًباتاً دكتاتورية البروليتاريا «عنف بمارس من قبل الاقلية ضد الغالبية » . وهذا معناه انه يستخدم ، لتعريف نظام البروليتاريا الثوري ، التعابير نفسها التي كان يستخدمها باستمرار الاشتراكيون الشرفاء في جميع البلدان ليشوهوا سمعة دكتاتورية المستغلين ولو كانت محجوبة بقناع الديموقراطية .

ان كاوتسكي ، بانكاره الدكتاتورية الثورية ، يحل مسألة استيلاء البروليتاريا على السلطة في مسألة الوصول الى غالبية اشتراكية ـ ديموقراطية خلال حملة انتخابية قريبة . ان الانتخاب العام يعبر ، حسب التصورات الخيالية الحقوقية للبرلمانية ، عن ارادة المواطنين المنتمين الى طبقات المجتمع كافة ، ويسمح للاشتراكية بأن تتمتع بالغالبية . وما لم تتحقق هـــذه الامكانية النظرية ، فان على الأقلية الاشتراكـية ان تنحني أمام الغالبية البورجوازية . ان العبـادة الوثنية للغالبية البرلمانية لاتقتضي النفي الفظ لدكتاتورية البروليتاريا فحسب ، بل تقتضي أيضاً نفي الماركسية والثورة بشكل عام . واذا كان لابد مبدئياً من ربط السياسة الاشتراكية بالطقوس

البرلمانية القائمة على الغالبيات والاقليات، فلن يبقى مكان في الديموقراطيات الشكلية للنضال الثوري. واذا ما أملت الغالبية المنتخبة عن طريق الاقتراع العام في سويسرا اتخاذ تدابير جبارة ضد المضربين، واذا ما أعدمت السلطة التنفيذية المعبرة عن ارادة الغالبية الشكلية العمال في أميركا، فهل يحق للعمال السويسريين والاميركيين أن يحتجوا على ذلك بالاضراب العام؟ بالتأكيد لا. فالإضراب السياسي يمارس ضغطاً فوق برلماني على « الارادة القومية » التي عبر عنها الانتخاب العام. وصحيح ان كاوتسكي يتردد في المضي الى هذا الحد مع منطق موقفه الجديد. فهو مرغم، مادام مرتبطاً ببعض بقايا من ماضيه، على القبول بالعمل المباشر باعتبار انه يحسن نظام الانتخاب العام. ان الانتخابات البرلمانية لم تكن في يوم من الايام، مبدئياً على الاقل، بالنسبة الى الاشتراكيين - الديموقراطيين، البديل عن الصراع الطبقي وصداماته وهجوماته المضادة وتمرداته. انها لم تكن قط الا وسيلة مساعدة مستخدمة في هذا الصراع، تلعب دوراً كبيراً حيناً ودوراً صغيراً حيناً آخر، الى ان تلتغي نهائياً في عهد دكتاتورية البروليتاريا.

لقد كان انجلز يدافع بعناد عام ١٨٩١، أي قبل زمن قصير من موته - كما قلنا آنفاً - عن دكتاتورية البروليتاريا التي هي الشكل الوحيد لسلطتها الحكومية. ولقد كرر كاوتسكي هذا التعريف مراراً عديدة. وهذا يدل - بين هلالين - على كل دناءة محاولاته الراهنة لتزييف دكتاتورية البروليتاريا الى حد انه جعل منها اختراعاً روسياً.

ان من ينشد الغاية لايمكن أن يرفض الوسائل. ان النضال يجب أن يكون شديداً بما فيه الكفاية ليضمن فعلياً للبروليتاريا الانفراد بالسلطة. ولما كان التحويل الاشتراكي يستلزم الدكتاتورية، التي هي الشكل الوحيد

الذي تستطيع البروليتاريا أن تقيم عليه سلطة حكومية »، فان هذه الدكتاتورية ينبغي أن تتأمن بأي ثمن .

ان المرء، كي يكتب منشوراً عن دكتاتورية البروليتاريا، لابد أن تكون لديه محبرة وبضع صفائح من الورق، وبعض الافكار في الرأس حتماً . لكن لتأسيس دكتاتورية البروليتاريا وتوطيدها، لابد من منع البورجوازية من تهديم سلطة البروليتاريا وبديهي أن كاوتسكي يفترض أن من الممكن الوصول الى هذه النتيجة بواسطة منشورات مهيجة للدموع. هذا مع العلم بأنه كان من المفروض في تجربته الشخصية ان تعلمه أنه لا يكفي للمرء أن يفقد كل تأثير له على البروليتاريا حتى يصبح له تأثير على البورجوازية

ان انفراد الطبقة العاملة بالسلطة لايمكن أن يؤمن الا اذا فهمت البورجوازية، التي اعتادت على الحكم، كل الخطر الذي تجازف به من وراء تمردها على دكتاتوريه البروليتاريا، وتدميرها لها بالتخريب والمؤامرات والتمردات وتدخل الجيوش الاجنبية . ان البورجوازية المطرودة من السلطة يجب أن ترغم على الخضوع لكن كيف ؟ لقد كان الكهنة يبثون الخوف في قلب الشعب بواسطة العقوبات التي تنتظره في الابدية . لكننا لانملك نحن هذه الوسيلة . وبالاصل لم يكن جحيم الكهنة وسيلتهم الوحيدة في العمل . بل كان هذا الجحيم مرتبطاً بالنيران المادية فعلاً للتفتيش المقدس وبعقارب الدولة الديموقراطية . ترى هل يميل كاوتسكي الى الاعتقاد بأنه من الممكن ترويض البورجوازية بواسطة الآمر المطلق الذي قال به كانت والذي لعب، في أواخر كتاباته، دور الروح القدس ؟ اننا لانستطيع نحن أن نعده بمساعدتنا الا اذا قرر توجيه رسالة انسانية وكانتية الى بلاد

دينيكين ر كولتشاك . وعندها ستتاح له الفرصة ليقتنع بـأن الطبيعة لم تحرم مناوئي الثورة من طابـع معين عزته وقوته ستة أعوام من حرائق الحرب ودخانها إن كل حارس أبيض قد آمن بهذه الحقيقة البسيطة التي تنص على أنه من الأسهل أن يشنق الشيوعي من أن يعود الى رشده ويرتد بارغامه على قراءة كاوتسكي . ان أولئك السادة لايشعرون بأي اجـلال مزعوم للمبادىء الديموقراطية ، ولا بأي خوف من نيران الجحيم وبما يقويهم في موقفهم هذا ان كهان الكنيسة والعلم الرسمي يعملون بالاتفاق معهم ويرسلون صواعقهم مجتمعة على رؤوس البولشفيين . ان الحراس الروس البيض يشبهون الحراس الألمـان البيض ـ وسائر الحراس – من حيث انه لايمكن اقناعهم أو اشعارهم بالخجل . ولا مجال الا لأحد أمرين: اما أخذهم بالخوف واما سحقهم .

ان من يتخلى عن مبدأ الارهاب ، أي عن تدابير التخويف والقمع تجاه الثورة المضادة المسلحة ، ينبغي أيضاً ان يتخلى عن السيطرة السياسية للطبقة العاملة ، عن دكتاتوريتهـــا الثورية . ومن يتخلى عن دكتاتورية البروليتاريا يتخلى عن الثورة الاجتماعية ويشطب باشارة ضرب على الاشتراكية .

× × ×

ان كاوتسكي لايملك اليوم أي نظرية عن الثورة الاجتماعية . وفي كل مرة يحاول فيها أن يعمم أفكاره عن الثورة والدكتاتورية ، لايفعل شيئاً سوى أن يبعث الحرارة من جديد في آراء الجوريسية والبرنشتاينية المسبقة البالية . كتب كاوتسكي :

« لقد أبعدت ثورة ١٧٨٩ من نفسها الأسباب التي وسمتها بطابـع

فظ وعنيف للغاية، وهيأت اشكالاً أكثرنعومة للثورة القادمة » (ص٩٧) لنقبل بذلك ، وان كان هـذا يقتضي منا أن نغض النظر عن ذكرى أيام حزيران ١٨٤٨ وفظائع قمع الكومونة . لنقبل بـأن ثورة القرن الثامن عشر الكبرى قد هيأت للمستقبل ، بارهابها الحاقد وبهدمها الحكم المطلق والاقطاعية والاكليريكية ، امكانية حل المسائل الاجتماعية سلمياً وبدون صدام . فحتى لو قبلنا بهذا التحليل الليبيرالي الخالص، فان خصمناسيكون ههنا ايضاً على خطأ تام . ذلك أن الثورة الروسية ،التي انتهت بدكتاتورية البروليتاريا ، قد بدأت على وجه التحديد بالعمل الذي قامت به الثورةفي فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر . ان أسلافنا في القرون الماضية ما كانوا يهتمون بتهيئة الشروط الديموقراطية – عن طريق الارهـاب الثوري – التي يفترض فيها أن تلطف من شيم ثورتنا . ولقد كان من الواجب عـلى المثقف المتمسك بأهداب الاخلاق ،أعني كاوتسكي، أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الواقعة ، وألا يتهمنا بل أن يتهم الذين تقدموا علينا .

ويبدو على كل الاحوال انه يقبل بتنازل ضئيل لنا في هذا الصدد.

فقد كتب : « ما من انسان يستطيع أن يشك ، مهما كان نير البصيرة ، في أن الملكيات العسكرية كملكيات المانيـا والنمسا وروسيا لايمكن أن تقلب الا بالعنف . لكن عندما نفكر بذلك ، فاننا (من؟) لانفكر باللجوء الى السلاح بقدر مانفكر باللجوء الى شكل من العمل هو أقرب الى الطبقة العاملة ، نعني الاضراب العام .. أمان جزءاً هاماً من البروليتاريا ، المستلم للسلطة ، سيقوم من جديد كما في القرن الثامن عشر عن طريق سفك الدماء بتقديم البرهان على مدى حنقه ورغبته في الانتقام فهذا ما لا نستطيع أن نتوقعه . وهذا يعني اننا سننظر الى التطور كلـه

بعكس مجراه » (ص ١٠١) .

لقد كان لابد ، كما نرى ، من حرب وسلسلة كاملة من الثورات كي نستطيع أن نلقي نظرة على العلبة الجمجمية لبعض النظريين ونعرف مايجري فيها . ونحن نعرف الآن ذلك : لم يكن كاوتسكي يفكر بأن من الممكن ابعاد أمثال الرومانوف والهوهنزولرن عن السلطة بالإقناع ، لكنه كان يتصور جدياً أن من الممكن قلب الملكية العسكرية عن طريق اضراب عام - أي عن طريق تظاهرة سلمية تقوم بها الاذرع المتصالبة . وهكذا وبالرغم من تجربة ١٩٠٥ الروسية والمناقشة العالمية التي تلتها ، فان كاوتسكي قد احتفظ بوجهة نظره الفوضوية - الاصلاحية عن الاضراب العام . ونستطيع أن نذكره بأن جريدته الخاصة « الزمن الحديث » كانت تقدم الأدلة منذ حوالي اثني عشر عاماً على أن الاضراب العام ليس إلا تعبئة البروليتاريا لمعارضة القوى العدوة في الحكومة ، وبأنه لايستطيع أن يحل المسألة من تلقاء نفسه ، نظراً الى انه يستهلك قوى البروليتاريا قبل ان يستهلك قوى خصمها ، ويدفع بها بالتالي الى استئناف العمل . ان الاضراب العام لايمكن أن يكون له تأثير حاسم إلا اذا كان تمهيداً للنزاع بين البروليتاريا وقوة العدو المسلحة ، أي تمهيداً لتمرد . إن البروليتاريا لاتستطيع أن تحل مشكلة السلطة ، وهي مشكلة جوهرية في كل ثورة إلا بتحطيمها ارادة الجيش الذي يجند لمعارضتها . ان الاضراب العام يفضي الى التعبئة من الطرفين ويسمح بتقدير جدي أولي لقوى مقاومة الثورة المضادة ، لكن التطورات اللاحقة للصراع هي التي تحدد وحدها الثمن الدموي الذي ستتكلفه البروليتاريا من أجل الاستيلاء على السلطة . أما أن على البروليتاريا أن تدفع من دمها وأما ان عليها أن تعرف كيف تموت

وكيف تقتل في نضالها من أجل الاستيلاء على السلطة والحفاظ عليها ،فهذا ما لم يشك فيه أي ثوري حقيقي قط . أما الزعم بأن الصراع العنيف بين البروليتاريا والبورجوازية - الصراع حتى الموت - يعني النظر الى «التطور كله بعكس مجراه» ، فهذا دليل على ان رؤوس بعض الايديولوجيين المحترمين هي غرف مظلمة - كاميرا مظلمة - تبدو فيها الصور معكوسة

إن ما من شيء يثبت صحة نظريات كاوتسكي التاريخية فيما يتعلق بالبلدان الاكثر تقدماً والاكثر ثقافة،الخاضعة لتأثير التقاليد الديموقراطية القديمة . ان هذه النظريات بالاصل ليست جديدة . ولقد كان التحريفيون في الماضي ينسبون اليها طابعاً مبدئياً أكثر جدية . وكانوا يقدمون الأدلة على أن نمو المنظمات البروليتارية في قلب الديموقراطيـة يضمن الانتقال التدريجي غير المنظور - الاصلاحي التطوري - نحو النظام الاشتراكي ، بدون تدخل الاضراب العام ، والتمرد ، والدكتاتورية البروليتارية .

لقد كان كاوتسكي في ذلك العصر ،العصر الذي شهد ذروة نشاطه ، يبين ان التناحرات الطبقية في المجتمـــع البورجوازي تزداد رغم أشكال الديموقراطية وأنها ستؤدي الى الثورةوالى استيلاء البروليتاريا على السلطة.

بالطبـع ، لم يحاول أحد أن يحسب مقدماً عدد ضحـــايا التمرد والدكتـاتورية البروليتارية . لكن كان من الواضح ان هذا العدد يتعلق بقوة مقاومة الطبقات المالكة . واذا كان كتيب كاوتسكي يميل الى ان يثبت ان التربية الديموقراطية لم تلطف من أنانية البورجوازية الطبقيـة ، فنحن نوافقه على ذلك حالاً .

واذا كان يريد ان يضيف بأن الحرب الامبريالية ، التي عاشت

فساداً مدة أربعة أعوام بالرغم من الديموقراطية ، قدمت الوحشية في الاخلاق وعودت على اللجوء الى العنف ، وعلمت البورجوازية ألا تحرج البتة من ابادة الجماهير ، فانه سيكون على حق أيضاً . فهذا هو الواقع لكن علينا ان نحارب في هذه الشروط . انها ليست مسألة مبارزة بين جن بروليتاريين وبورجوازيين خارجين من دماغ فاغنر - كاوتسكي ، بل هي مسألة حرب بين بروليتاريا واقعية وبورجوازية واقعية كما كونتها الجزرة الامبريالية الكبرى .

ان كاوتسكي يرى في الحرب الاهلية الطاحنة التي تدور في العالم قاطبة ، النتيجة المشؤومة .. للتخلي عن « التكتيك المجيد المتمرس » الذي رسمته الأممية الثانية .

كتب يقول :

« في الواقع ، ومنذ أن سيطرت الماركسية على الحركة الاشتراكية أصبحت هذه الاخيرة بمنجى ، حتى الحرب العالمية ، من الهزائم الكبيرة في كل حركاتها الكبيرة الواعية . ولقد اختفت نهائياً من صفوفنا فكرة تحقيق النصر بالارهاب .

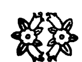
« اننا مدينون بالكثير من هذه الزاوية الى ان الديموقراطية كانت تتوطد بعمق في بلدان أوروبا الغربية وتكف عن أن تكون هدفاً منشوداً من وراء الصراع لتصبح الأساس الدائم للحياة السياسية ، هذا في الوقت الذي كانت فيه الماركية هي التعليم الاشتراكي السائد » .

ان « صيغة التقدم » هذه لا تحتوي على ذرة واحدة من الماركسية : فالتطور الواقعي للصراع الطبقي ولمعاركه المادية ينحل في الدعاية الماركسية

التي تبدو وكأنها تضمن ، بفضل شروط الديموقراطية ، الانتقال غيرالمؤلم الى اشكال اجتماعية « اكثر عقلانية » . ان هذه الصيغة لاتعدو أن تكون تبسيطاً مبالغاً فيه للمذهب العقلي الهرم الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر ، استبدلت فيه أفكار كوندورسيه بترجمة فقيرة شاحبة لـ « البيان الشيوعي » . وهكـذا فان التاريخ ينقلب الى شريط دوار من الورق المطبوع ، واننا لنشاهد في قلب هذا التطور « الانساني » لوحـة عمل كاوتسكي .

انه يضرب لنا مثلاً بالحركة العمالية في عصر الأممية الثانية التي لم تتعرض قط ، برفعها رايات الماركسية ، الى أي هزيمة في هجماتها الواعية. لكن الحركة العمالية بكاملها ، لكن البروليتاريا العالمية ومعها كل الثقافة الانسانية ، قد تعرضت في آب ١٩١٤ ، في الساعة التي كشف فيها التاريخ عن ميزان قوى وطاقات كل الاحزاب الاشتراكية الموجهة كما يقال من قبل الماركسية و « المستندة بقوة الى الديموقراطية » ، الى هزيمة مريعة . **لقد وجدت هذه الاحزاب نفسها في حالة إفلاس** . وأطاحت الريح بكل سمات عملها السابق التي يريد كاوتسكي الآن ان يخلدها : القابليـة للتلاؤم مع الظروف ، التخلي عن العمل غير المشروع ، الابتعاد عن الصـراع المكشوف ، الامل في الديموقراطية كطريق لتحويل اجتماعي غير مؤلم ! إن احزاب الاممية الثانية ، التي خافت من الهزيمـة ، والتي ردعت في كل الظروف الجماهير المستعدة دومـاً للنضال المكشوف ، والتي ميعت في مناقشاتها حتى الاضراب العام ، قد هيأت بنفسها هزيمتها الرهيبة . ذلك انها لم تعرف أن تحرك أصبعها الصغيرة لتجنب خطر كارثة الحرب العالمية التي حددت الطابع الشرس للحرب الاهلية . وفي الحقيقة لابد للمرء ان يضع

عصابة لا على عينيه فحسب ، بل أيضاً على أذنيه وأنفه ، حتى يعارضنا الآن بعد الانهيار المخجل للأممية الثانية ، وبعد إفلاس حزبها القائد ــ الاشتراكي الديموقراطي الالماني ، وبعد مهزلة الحرب العالمية الدامية والامتداد الواسع للحرب الاهلية ، أقول حتى يعارضنا الآن بعمق فكر الاممية الثانيــة وإخلاصها وحبها للسلام وتبصرها ، هذه الاممية التي نصفي اليوم ميراثها !



- ٣ -

الديموقراطية

« إما الديموقراطية وإما الحرب الاهلية ».

لا يعرف كاوتسكي إلا طريقاً واحداً للسلام والخلاص: الديموقراطية. يكفي ان يعترف بها الجميع وان يقبل الجميع بالخضوع لها. وعلى الاشتراكيين اليمينيين ان يتخلوا عن العنف الدموي الذي لجؤوا اليه برضى البورجوازية. وعلى البورجوازية نفسها أن تتخلى عن فكرة التشبث حتى النهاية بوضعها الممتاز بفضل أمثال نوسك والملازم فوجيل. وعلى البروليتاريا أخيراً، مرة واحدة وأخيرة، ان تتخلى عن هدف قلب البورجوازية بغير الطرق الدستورية. واذا ماروعيت هذه الشروط بدقة، فان على الثورة الاجتماعية أن تنحل بلا ألم في الديموقراطية. يكفي اذن، كما نرى، أن يقبل تاريخنا العاصف بأن يعتمر قبعة كاوتسكي القطنية وبأن ينهل الحكمة من علبة تبغه.

يقول حكيمنا: « ليس هناك إلا احد حلين: إما الديموقراطية

وإما الحرب الاهلية » (ص ١٤٥) . ومع ذلك فان الحرب الاهلية لم تقف ساعة واحدة في المانيا حيث تجتمع كل عناصر الديموقراطية الشكلية. ويوافق كاوتسكي على ذلك : « مع الجمعية الوطنية الحالية ، لا يمكن لالمانيا بالتأكيد ان تستعيد صحتها . لكننا بدلاً من ان نساعدها على الشفاء ، فاننا سنحكم عليها بالانتكاس اذا حولنا الصراع ضد الجمعية الحالية الى صراع ضد الانتخاب العام الديموقراطي » (ص ١٥٢) . فلكأن المشكلة في المانيا مشكلة اشكال الانتخاب لا مشكلة السيطرة الفعلية على السلطة !

ان كاوتسكي يعترف بأن الجمعية الوطنية الحالية لا يمكن ان تعيد الى البلاد صحتها . فماذا ينتج عن ذلك ؟ معاودة اللعبة من جديد .

فهل سيقبل شركاؤنا بذلك ؟ نستطيع ان نشك . فاللعبة اذا لم تكن في صالحنا ، فهي في صالحهم حتماً .

ان الجمعية الوطنية ، العاجزة عن « اعادة الصحة » الى البلاد ، قادرة تماماً على ان تعد العدة لدكتاتورية لودندورف الجدية بواسطة دكتاتورية نوسك المقنعة . وهذا مافعلته الجمعية التأسيسية التي مهدت الطريق امام كولتشاك ان رسالة كاوتسكي التاريخية هي على وجه التحديد ان يكتب ، بعدالانقلاب ، المنشورالذي سيفسر سقوط الثورة بكل المجرى السابق للتاريخ ، بدءاً من القرد الى نوسك ، ومن نوسك الى لودندورف . لكن مهمة الحزب الثوري مختلفة : انها تكمن في توقع الخطر في الوقت المناسب واتقائه بالعمل . ولتحقيق هذه الغاية ليس هناك اليوم إلا شيء واحد يعمل : انتزاع السلطة من القابضين الاصيلين على

زمامها ، من ملاك الاراضي والرأسماليين الذين يختفون خلف ايبرت ونوسك . فالطريق تفترق اذن بدءاً من الجمعية الوطنية : إما دكتاتورية حفنة امبريالية واما دكتاتورية البروليتاريا . وما من طريق يفضي الى « الديموقراطية » . وكاوتسكي لا يدرك ذلك . فهو يعرض ، ليس من دون إطناب ، اهمية الديموقراطية بالنسبة الى التطور السياسي والتربية التنظيمية للجماهير ، ويزعم انها تستطيع ان تقود البروليتاريا الى تحرير الجماهير تحريراً كاملاً (ص ٧٢) . ان من يقرأ هذا الكلام يخيل اليه أن ما من شيء مهم قد حدث في هذه الدنيا منذ اليوم الذي كتب فيه برنامج ايرفورت .

بيد ان البروليتاريا الفرنسية والالمانية وبروليتاريا بعض البلدان الاخرى الهامة قد ناضلت طوال عشرات السنوات مستفيدة من كل مزايا الديموقراطية لتخلق منظمات سياسية قوية . غير ان تطور البروليتاريا هذا نحو الاشتراكية قد توقف نتيجة لحدث بالغ الاهمية ، اعني الحرب الامبريالية العالمية . لقد امكن للدولة الطبقية ، في اللحظة التي اندلعت فيها الحرب بخطيئتها ، ان تخدع البروليتاريا بمساعدة المنظمات القائدة للديموقراطية الاشتراكية وان تجرها الى مدارها . وهكذا اثبتت الطرائق الديموقراطية ، بالرغم من المزايا التي لا نقاش فيها التي توفرها في ظرف محدد ، تأثيرها المحدود للغاية : باعتبار ان التربية الديموقراطية لجيلين بروليتاريين لم تهيء البتة الجو السياسي لتفهم وتقدير حدث كالحرب الامبريالية العالمية . ان هذه التجربة لا تسمح بالتأكيد بأن الحرب لو اندلعت بعد عشر أو عشرين سنة لوجدت البروليتاريا مهيئة تهيئة سياسية أفضل . ان الدولة الديموقراطية البورجوازية لا تقتصر على منح الشغيلة

شروطاً أفضل للتطور ، بالنسبة الي شروط الحكم المطلق ، بل هي تحدد هذا التطور بالذات بشرعيته ، وتجمع وتقوي بفن لدى الارستقراطيات البروليتارية الصغيرة العادات الانتهازية والآراء المسبقة الشرعية . وفي اللحظة التي اصبحت فيها الكارثة – الحرب – وشيكة ، انكشف عجز مدرسة الديموقراطية التام عن قيادة البروليتاريا الى الثورة . وجاءت مدرسة الحرب الهمجية ، والآمال الاشتراكية – الامبريالية ، وانتصارات عسكرية اكبر ، وهزيمة لامثيل لها . وبعد هذه الاحداث ، التي ادخلت بعض التعديلات على برنامج ايرفورت ، لن يعني إحياء الافكار الشائعة القديمة عن دلالة البرلمانية بالنسبة الى تربية البروليتاريا ، لن يعني الا السقوط سياسياً في الطفولة . وهذه هي مصيبة كاوتسكي .

لقد كتب :

« لقد تميزت البرودونية بريبة عميقة تجاه نضال البروليتاريا السياسي من أجل تحررها ، وتجاه عملها السياسي . وهذا الرأي يعاود اليوم الظهور (!!) ويزعم انه الانجيل الجديد للفكر الاشتراكي ، وانه نتاج التجربة التي لم يعرفها ماركس والتي لم يكن يستطيع ان يعرفها . وفي الحقيقة ، اننا لا نجد في هذا الرأي الا صيغة جديدة لفكرة قديمة ترجع نصف قرن الي الوراء ، كان ماركس قد حاربها وقهرها » (ص ٥٨ – ٥٩) .

وعلى هذا ، ليست البولشفية الا ... نزعة برودونية أعيدت اليها الحياة ! ان هذا التأكيد الوقح لهو ، من الزاوية النظرية ، أسفه تأكيدات المنشور .

لقد كان البرودونيون يرفضون الديموقراطية ، للسبب نفسه الذي كان يدفعهم الى رفض السياسة لقد كانوا من أنصار تنظيم الشغيلة تنظيماً اقتصادياً بدون تدخل سلطة الدولة ، وبدون انقلابات ثورية . كانوا من أنصار التشارك العمالي على أسس الاقتصاد البضاعي . وبقدر ما كانت قوة الأشيـــاء تدفع بهم الى النضال السياسي ، كانوا يفضلون ـ باعتبـارهم ايديولوجيين بورجوازيين ـ ديموقراطية حكم الطبقة الغنيــة حتى على الدكتاتورية الثورية . فأي شيءمشترك بينهم وبيننا ؟ ففي حين اننا نرفض الديموقراطية باسم سلطة بروليتارية متمركزة ، كان البرودونيون مستعدين على العكس للتلاؤم مع ديموقراطية ممزوجة قليلاً بالاتحـادية كيما يتجنبوا السلطة العمالية الثورية الحاسمة . ولقد كان بمقدور كاوتسكي أن يقارننـــا بصورة منطقية اكثر مع البلانكيين خصوم البرودونيين ، البلانكيين الذين كانوا يدركون أهمية السلطة الثورية ، ويتجنبون بورع ديني ، عند طرحهم مسألة الاستيلاء عليها ، أن يأخذوا بعين الاعتبار المظاهر الشكلية للديموقراطية . لكن لتبرير المقارنة بين الشيوعيين والبلانكيين ، لا بـد من الاضافة أنناتمتع بتنظيم ثوري لم يحلم به البلانكيون قط : سوفييتات النواب العماليين والجنود ، وان لدينا في حزبنا تنظيماً سياسياً قيادياً لا مثيل له مزوداً ببرنامج كامل للثورة الاجتماعية ، وان نقاباتنا تشكــــل أخيراً ، بسيرهـــا مع المجموع تحت الراية الشيوعية وبدعمها حكومة السوفييتات بدون تحفظ ، جهازاً قوياً للتحويل الاقتصادي . فلا يمكن اذن ، في هذه الشروط ، الكلام عن بعث البولشفية للآراء البرودونية البالية ، الااذا فقد المرء نهائياً الحس التاريخي والنزاهة في موضوع المذهب.

اليقظة الامبريالية للديموقراطية

ليس عبثاً أن لكلمة الديموقراطية في القاموس معنى مزدوجاً. فهي من جهة أولى تشير الى نظام قائم على الانتخاب العام وعلى سائر ملحقات « السيادة الشعبية » الشكلية. وهي تشير من الجهة الثانية الى الجماهير الشعبية نفسها بقدر ماتكون لها حياة سياسية. ان مفهوم الديموقراطية يضع نفسه، من خلال هذين المعنيين، فوق الاعتبارات الطبقية.

ان خصوصيات اللفظة هذه لهـا دلالاتها السياسية العميقة. فالديموقراطية كنظام سياسي تكون اثبت وأكمل وأمتن كلما احتلت جماهير المدن والارياف البورجوازية الصغيرة، غير المتمايزة من وجهة النظر الطبقية، مكاناً أوسع في الحياة الاجتماعية لقد بلغت الديموقراطية أوجها في القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة الاميركية وسويسرا. ففيما وراء البحار كانت الديموقراطية الحكومية للجمهورية الاتحادية تستند الى ديموقراطية المزارعين الزراعية. أما في الجمهورية السويسرية الصغيرة، فقد شكلت البورجوازية الصغيرة في المدن والفلاحون الاغنياء أساس ديموقراطية الكانتونات المحافظة.

لقد أصبحت الديموقراطية بسرعة، وهي التي ولدت في ظل صراع الطبقة العاملة ضد الاقطاعية، سلاحاً ضد التناحرات الطبقية التي كانت في طريقها الى النمو في المجتمع البورجوازي وتنجح الديموقراطية البورجوازية في أداء مهمتها على وجه أفضل كلما كانت مدعومة بطبقة بورجوازية صغيرة واسعة، وكلما كانت أهمية هذه الطبقة في الحياة الاقتصادية أكبر، وكلما كان

مستوى التناحرات الطبقية بالتالي أدني . لكن الطبقـــات المتوسطة ، المتخلفة أكثر فأكثر عن التطور التاريخي، تفقد مع ذلك حقها في الكلام باسم الأمة . ولقد أمكن لمذهبيي هذه الطبقات (برنشتـاين وشركائه) أن يثبتوا برضى أن الطبقات المتوسطة لن تختفي بالسرعـــة التي كانت تفترضها المدرسة الماركسية . ويمكننا ان نوافق بالفعل ان عناصر المـدن والارياف البورجوازية الصغيرة ماتزال تحتل عددياً مكانة هامة للغاية . لكن الدلالة العميقة للتطور تكمن في فقدان اهميتها في الانتاج : ان قيمة الثروات التي تصبها البورجوازية الصغيرة في أرباح الامة قد سقطت بسرعة أكبر بكثيرمن أهميتها العددية . ان التطور التاريخي يزداد اعتماداً على القطبين المتعارضين في المجتمع - البورجوازية الرأسمالية والبروليتاريا - لا على تلك الفئات المحافظة التي خلفها الماضي .

وكلما فقدت البورجوازية الصغيرة أهميتها الاجتماعيــة ، تضاءلت قدرتها على الحفاظ بقوة على دورها كحكم في النزاع التاريخي الكبير بين الرأسمال والعمل . لكن بورجوازية المدن الصغيرة ، وبخاصة بورجوازية الارياف ، ما تزال تجد تعبيرها ، باعتبار كثرتهـــا العددية ، في احصاء البرلمانية الانتخابي . ان المساواة الشكلية بين جميع المواطنـين بصفتهم ناخبين لا تفعل شيئاً سوى ان تثبت بشكل أوضح ، في مثل هذه الظروف ، عجز « البرلمانية الديموقراطية » عن حل المسائل الاساسية التي يطرحهـا التطور التاريخي . ان المساواة في الانتخاب بين البروليتاري والفلاح وصاحب التروست الكبير قد جعلت من الفلاح وسيطاً بين متناحرين . لكن الطبقة الفلاحية المتخلفة بصورة مزدوجة من وجهة نظر الثقافة والحياة الاجتماعية ، والعاجزة سياسياً ، تخدم بالفعل دوماً كقوة داعمة للاحزاب الاكثر رجعية

والاكثرمغامرةوالاكثرفساداً التي تنتهي دوماً بدعم الرأسمال ضد العمل .

وبخلاف كل تنبؤات برنشتاين وسومبارت وطوغان-بارانوفسكي لم تخفف حيوية الطبقات المتوسطة من حدة الأزمات الثورية في المجتمع البورجوازي ، بل جعلتها أشد ايلاماً ولو اتخذ تحول البورجوازية الصغيرة والطبقة الفلاحية الى بروليتاريا أشكالا صافية وواضحة ، لكان استيلاء البروليتاريا على السلطة سلمياً بواسطة الآلية البرلمانية محتملا اكثر مما هي عليه الحال اليوم . ان تركيز انصار البورجوازية الصغيرة على حيوية هذه الطبقة كان نحساً حتى على الاشكال الخارجية الديموقراطية منذ أن زعزعت الرأسمالية أسس هذه الطبقة فالبورجوازية الصغيرة،باحتلالها في السياسة البرلمانية المكان الذي فقدته في الانتاج ، قد أساءت نهائياً الى البرلمانية عندما جعلت منها مجرد ثرثرة مائعة وأداة في يد الاقليمية لعرقلة التشريعات . ان هذه الواقعة وحدها تفرض على البروليتاريا واجب الاستيلاء على سلطة الدولة ، بصورة مستقلة عن البورجوازية الصغيرة بل ضدها - لا ضد مصالحها بل ضد عطالتها وضد سياستها غير المتماسكة التي هي عبارة عن نزوات عاطفية عاجزة .

كتب ماركس بصدد امبراطورية نابليون الثالث : « ان الامبريالية هي أعهر واكمل شكل من أشكال السلطة الحكومية ... حولته البورجوازية ، حين بلغت أوجها ، الى اداة لاستعباد الرأسمالية للعمل » . ان هذا التعريف يتجاوز الامبراطورية الفرنسية الثانية ويشمل الامبريالية الجديدة التي اثارتها في العالم أجمع اطماع الرأسمال القومي للدول الكبرى . وتفترض الامبريالية في المجال الاقتصادي السقوط النهائي لدور البورجوازية الصغيرة ، وهي تعني في المجال السياسي التلاشي التام

للديموقراطية عن طريق تحويل سياقها بالذات وربط كل وسائلها وكل مؤسساتها بأهداف الامبريالية . ولقد أثبتت الامبريالية ، بامتدادها الى بلدان مختلفة ، ان الاراء المسبقة السياسية ، بغض النظر عن مصيرها السياسي السابق ، غريبة عنها كلها ، وانها مستعدة لأن تستخدم (وهي قادرة على ذلك) ملكيات نيقولا رومانوف او ولهلم هوهنزولرن ، والاتوقراطية الرئاسية في الولايات المتحدة ، وعجز بضع مئات من المشرعين المتباينين في البرلمان الفرنسي ، وذلك بعد ان تكون قد حولت هذا كله اجتماعياً واخضعته . ان المجزرة الكبرى – حمام الدم الذي حاولت البورجوازية عن طريقه ان تجدد شبابها – قد قدمت لنا صورة لتعبئة لم يسبق لها مثيل لكل أشكال الدولة والادارة والتوجيه السياسي والمدارس الدينية أو الفلسفية لخدمة الامبريالية . وان عدداً لا بأس به من الادعياء الذين لم يسبب تطور الامبريالية أي اضطراب في سباتهم الدائم منذ عشرات السنين ، والذين مايزالون مستمرين في النظر الى الديموقراطية والانتخاب العام الخ من وجهة نظرهم التقليدية ، اقول ان عدداً لا بأس به من هؤلاء بالذات قد أدرك اخيراً أثناء الحرب ان المفاهيم المألوفة قد أصبح لها من الآن فصاعداً مضمون جديد . الحكم المطلق ، الملكية البرلمانية ، الديموقراطية : إن جميع الاشكال الحكومية للسيطرة البورجوازية ، من القيصرية الروسية الى الاتحادية شبه الديموقراطية في أميركا الشمالية ، هي في نظر الامبريالية وبلا ريب في نظر الثورة التي ستخلفها ، متساوية في الحقوق وتشكل تركيبات يكمل فيها بعضها بعضاً بصورة متلاحمة . ان الامبريالية تنجح في أن تخضع ، في اللحظة الحرجة ، وبكل الوسائل التي تملكها ، وبالبرلمانات على وجه الخصوص مهما كان حساب الاصوات . بورجوازية

المدن والارياف الصغيرة بل حتى الارستقراطية العمالية . ان الفكرة القومية التي قادت طبقة العامة في صعودها الى السلطة عادت الى الظهور اثناء الحرب مع « الدفاع القومي » . وأضاءت العقيدة القومية مرة اخرى وأخيرة بسطوع باهر على حساب عقيدة الطبقات . ولقد أدى غرق الأوهام الامبريالية في البلدان المقهورة أولاً ، ثم في البلدان المنتصرة بعد زمن وجيز، الى تهديم أسس ما كان في الماضي الديموقراطية القومية وأداتها الرئيسية ، البرلمان الديموقراطي وتجلى في كل مكان بوضوح مخيف ضعف البورجوازية ونوعيتها الرديئة وعجزها . وانطرحت في جميع البلدان مسـألة السلطة الحكومية بوضوح بين العصابة الرأسمالية التي تحكم بشكل مكشوف أو غير مكشوف والتي تملك تحت تصرفها طبقة من الضباط المتمرسين أو المرتزقة - معززة أحياناً بمئات الالوف من الرجال - وبين البروليتاريا الثورية المتمردة ، ازاء الطبقات المتوسطة المذعورة ، الضائعة ، الخانعة . ويالها من أضغاث أحلام تافهة تلك العبارات التي يمكن ان تقال في مثل هذه الظروف عن الاستيلاء السلمي على السلطة من قبل البروليتاريا بواسطة البرلمانية الديموقراطية !

ان معالم الموقف السياسي على الصعيد العالمـــي واضحة للغاية . فالبورجوازية، وبخاصة بورجوازية البلدان المنتصرة ، بعد ان قادت الشعوب المنهوكة النازفة دماؤها الى حافة الهاوية ، قد أثبتت عجزها المطلق عن انتشالها من وضعها الرهيب وتناقض وجودها مع تقدم الانسانية اللاحق . لقد تفسخت جميع التجمعات السياسية الوسيطية والاحزاب الاشتراكية - القومية وهي ماتزال حية . والبروليتاريا التي خدعتها هذه التجمعات والاحزاب، تزداد كراهيتها لها يوماً بعد يوم ، وتوكد نفسها في رسالتها التاريخية على أنها القوة الوحيدة

التي تستطيع أن تنقذ الشعوب من الهمجية والموت . غير ان التاريخ لا يضمن لحزب الثورة الاجتماعية غالبية برلمانية شكلية . إنه ، بتعبير آخر ، لم يحول الأمم الى نواد تقترع بجفاوة - بغالبية الاصوات - لصالح الثورة الاجتماعية . بل على العكس : لقد أصبحت الثورة العنيفة ضرورة ، على وجه التحديد لأن مطالب التاريخ الملحة لم تعد تمكن تلبيتها عن طريق جهاز الديموقراطية البرلمانية . ان البورجوازية الرأسمالية تقول في نفسها : « مادمت أضع يدي على الاراضي والمصانع والمعامل والمصارف والصحافة والمدارس والجامعات ، مادمت أضع يدي ذلك ان هـذا هو الشيء الأساسي - على الجيش، فإن آلية الديموقراطية ستظل خاضعة لإرادتي كيفما حركت . والبورجوازية الصغيرة العاطلة ، المحافظة ، غير الأصيلة ، تخضع لي سواء أمادياً أم معنوياً . انني أتحكم وسأتحكم فيها بقوة مشاريعي وأرباحي وخططي وجرائمي . واذا ما استاءت وتململت ، فإنني سأخلق دزينة من مانعات الصواعق . بل سأخلق عند الحاجة احزاباً معارضة ستختفي ما إن تؤدي مهمتها مفسحة المجال أمام البورجوازية للتعبير عن سخطها دون أن تلحق أي أذى بالرأسمالية . وسأحافظ بالنسبة الى الجماهير الشعبية على نظام التعليم الابتدائي الالزامي الذي سيبقي هذه الجماهير عند حدود الجهل دون ان يسمح لها بالارتفاع فكرياً فوق المستوى الذي يرى خبرائي انه غير مؤذ . إنني سأفسد ، سأخدع ، سأخيف الفئات المرفهة أو المتخلفة من البروليتاريا . ومادامت أدوات الاضطهاد والتخويف بين يدي ، فان تنسيق كل هذه التدابير لن يسمح لطليعة الطبقة العاملة بتنوير وعي العدد الاكبر » .

وعلى هذا تجيب البروليتاريا الثورية : « لاريب في أن الشرط

الاول للخلاص هو ان أنتزع من البورجوازية أدوات سيطرتها . ولا أمل في الوصول الى السلطة سلمياً مادامت البورجوازية تمسك بكل أدوات السيطرة . انه لجنون مثلث أن آمل بالوصول الى السلطة بالطريق الذي تدل اليه البورجوازية وتسده في آن واحد :طريق الديموقراطية البرلمانية ليس هناك إلا سبيل واحد : انتزاع السلطة من البورجوازية بتجريدها من أدوات سيطرتها المادية. ومهما كانت العلاقة الظاهرية بين قوى البرلمان، فانني سأجعل من أهم وسائل الانتاج ثروة اجتماعية، وسأحرر وعي الطبقات البورجوازية الصغيرة الذي نومته الرأسمالية تنويماً مغناطيسياً .وسأبين لهذه الطبقات بالوقائع ماهو الانتاج الاشتراكي . وحين سيتم ذلك ، فان أكثر فئات الشعب تخلفاً ستدعمني بالتزامها التلقائي والواعي بالبناء الاشتراكي».

حين شتتت حكومة السوفييتات الروسية الجمعية التأسيسية ، بدا هذا الحدث في نظر القادة الاشتراكيين ــ الديموقراطيين في أوروبا وكأنه قطيعة متعسفة وفظة مع كل تطور الاشتراكية السابق إن لم يكن بداية نهاية العالم . لكنه لم يكن إلا نتيجة حتمية للوضع الذي خلقته الامبريالية والحرب . واذا كانت الشيوعية الروسية أول من استخلص النتائج النظرية والعملية لهذا الوضع ،فذلك للأسباب نفسها التي أرغمت البروليتاريا الروسية على أن تكون أول من يخوض النضال من أجل السلطة .

إن كل ماجرى في أوروبا فيما بعد يدل على اننا كنا على حق . ان الايمان بامكانية إعادة توطيد الديموقراطية على كل ضعفها ، إنما يعني التعلل بطوبائيات رجعية مسكينة .

ميتافيزيقا الديموقراطية

حين شعر كاوتسكي بأن الارض التاريخية تميد تحت قدميه ، انتقل من الديموقراطية الى فلسفة التجاوز وراح يتفذلك عما يجب ان يكون .

ان المبادىء الديموقراطية – سيادة الشعب ، الانتخاب العام ، الحريات – تبدو له محاطة بهالة الواجب الاخلاقي . انها تنفصل عن مضمونها التاريخي ، وتبدو ، اذا ما نظر اليها في طبيعتها المجردة ، ثابتة مقدسة . إن هذه الخطيئة الميتافيزيقية ليست بنت الصدفة . فالمرحوم بليخانوف بعدان كان ، في أحسن مراحل حياته ، الخصم اللدود للكانتية ، حاول هو أيضاً في أواخر أيامه ، بينما كانت تجتاحه موجة الوطنية ، ان يتعلق بقشة الآمر المطلق . وهذا شيء له دلالته العميقة ..

ان كاوتسكي يعارض الديموقراطية الواقعية التي تعرف اليها الشعب الالماني مؤخراً بديموقراطية مثالية ، كما يعارض الشيء في ذاته بالظاهرة المبتذلة . ان كاوتسكي لا يدلنا بثقة على أي بلد ديموقراطي تضمن فيه الديموقراطية الانتقال غير المؤلم الى الاشتراكية . وبالمقابل فان قناعته بوجوب وجود مثل هذا البلد صلبة . ان كاوتسكي يعارض الجمعية الوطنية الالمانية الحالية التي هي أداة العجز والخبث الرجعي والدناءة بجمعية وطنية أخرى متمتعة بكل الصفات باستثناء واحدة هي بلا ريب قليلة الاهمية : صفة الوجود .

ان مذهب الديموقراطية الشكلية لم تخلقه الاشتراكية العلمية بل

الحق الطبيعي . وماهية الحق الطبيعي تكمن في الاعتراف بالمعايير الحقوقية الخالدة الثابتة التي تجد لها في مختلف الازمـــان ولدى مختلف الشعوب تعبيرات مضيقة ومشوهة إن كثيراً أو قليلاً . ان الحق الطبيعي للتاريخ المعاصر ، كما أنتجه العصر الوسيط ، يشتمل قبل كل شيء على احتجاج على امتيازات الطوائف ،وعلى سوء الاستغلال الذي يضفي عليه تشريع الحكم الاستبدادي صبغة شرعية ، وعلى المنتجات « المصطنعة » للحق الوضعي الاقطاعي . ولقد كانت عقيدة طبقة العامة ، التي كانت ماتزال ضعيفة ، تعبر عن مصلحتها الخاصة بواسطة بضعة معايير مثالية أصبحت فيما بعد من تعاليم الديموقراطية واكتسبت في الوقت نفسه طابعاً فردي النزعة . إن الشخصية غاية في ذاتها . وللبشر جميعاً حق التعبير عن فكرهم بالكلام والكتابة . ولكل انسان الحق في اقتراع مساو لاقتراع الآخرين .ولقد كانت مطالب الديموقراطية ، الرامزة الى المعركة ضد الاقطاعيـة ، تسجل تقدماً وخطوة الى الأمام . ولكن كلما تقدمنا ،تجلى اكثر فأكثر المظهر الرجعي لميتافيزيقا الحق الطبيعي (نظرية الديموقراطية الشكلية) : وهذا المظهر هو فرض معيار مثـــالي على المطالب الواقعية للجماهير الشغيلة والاحزاب الثورية .

كان الحق الطبيعي ، الذي أصبح نظرية الديموقراطيـة ، يقول للعامل : « البشر جميعاً متساوون أمام القانون ، مهما كان أصلهم ،وصفتهم كمالكين أو غير مالكين ، والدور الذي يؤدونــه . إن لهم جميعاً حقاً متساوياً في ان يقرروا بالانتخاب مصائر الشعب » . ولقد كان لهذا المعيار المثـــالي أثر ثوري في وعي الجماهير ، بمقدار ما كان يدين الحكم المطلق والامتيازات الارستقراطية والانتخاب المقصور على بعض الفئات . أما فيما

عدا ذلك ، فقد كان لايفعل شيئاً سوى أن يخدر اكثر فأكثر وعي الجماهير ، ويضفي صفة شرعية على البؤس والعبودية والذل .

ان روتشيلد ، الذي حول دم العالم وعرقه الى نابوليونات ذهبية جميلة ، ليس له إلا صوت واحد في الانتخابات البرلمانية . وإن عامل المنجم المغمور الذي لا يعرف أن يوقع اسمه والذي ينام طوال حياته تقريباً بدون ان يخلع ثيابه والذي يحيا في المجتمع حياة الخلد ، يمسك هو الآخر بجزيئة من السيادة الشعبية ، ويقف مساوياً لروتشيلد أمام المحاكم وأثناء الانتخابات . أما في شروط الحياة الواقعية ، وفي العلاقات الاجتماعية ، وفي الأعراف ، فان عدم المساواة بين البشر يتفاقم اكثر فأكثر : هناتراكم ثروات لامثيل له ، وهناك بؤس بلا أمل . لكن هذه التناقضات الرهيبة تختفي في البنية الدورية للدولة ، فلا نرى فيها إلا ظلالاً شرعية مسلوخة عنها أجسامها . « المالك ، الفلاح المياوم ، الرأسمالي، البروليتاري ، الوزير ، صباغ الأحذية ، جميعهم متساوون « كمواطنين » و « مشرعين » . لقد نزلت مساواة المسيحية الصوفية من أعالي السماوات تحت شكل المساواة في الحق الطبيعي الديموقراطي . لكنها لم تنزل حتى الارض بالذات ، حتى الأساس الاقتصادي للمجتمع . ان الحق المثالي في التأثير على مصائر الشعب بواسطة الانتخابات البرلمانية لايكاد يكون ، بالنسبة الى الفلاح المياوم المغمور الذي لايكف في أي لحظة من لحظات حياته عن أن يكون دابة ركوب مستغلة من قبل الرأسمالي ، أقول لايكاد يكون أكثر واقعية من السعادة التي كان يوعد في الماضي بأنه ملاقيها في مملكة السموات .

ولقد دخل الحزب الاشتراكي ، الذي تقوده المصالح العملية للطبقة العاملة ، في مرحلة معينة في طريق البرلمانية وهذا لايعني البتة انه اعترف

مبدئياً بنظرية الديموقراطية الميتافيزيقية المبنية على حق متعال على التاريخ والطبقات الاجتماعية . لقد كان المذهب البروليتاري يعتبر الديموقراطية أداة في خدمة المجتمع البورجوازي ، متلائمة بالأصل كل التلاؤم مع حاجات وأهداف الطبقات المسيطرة . لكن المجتمع البورجوازي ، الذي يعيش من عمل البروليتاريا ولا يستطيع ان يمنعها ، تحت ضغط عقوبة الانهيار ، من أن تضفي صبغة شرعية على بعض مظاهر الصراع الطبقي على الأقل ، كان يعطي الاحزاب الاشتراكية امكانية استخدام آلية الديموقراطية الى حد معين وفي فترات معينة ، دون أن تلحق إي أذى بمبدئها غير المنظور .

لقد كانت المهمة الأساسية للحزب الاشتراكي ، في كل مراحل نضاله ، ان يخلق شروط مساواة واقعية اقتصادية ، مساواة في الأعراف بين أعضاء المجتمع الانساني ، قائمة على التضامن . ولهذا على وجه التحديد يتوجب على نظريي البروليتاريا ان يكشفوا عن وجه ميتافيزيقا البروليتاريا القناع الفلسفي الذي يحجب خلفه أضاليل سياسية .

واذا كان الحزب الديموقراطي قد قال للجماهير ، وهو يكشف في عنفوان حماسته الثورية كذب معتقدات الكنيسة : « انها تهدهدكم بوعد السعادة الأبدية ، في حين انكم على هذه الارض بلا حقوق ورازحون تحت التعسف ، فان الحزب الاشتراكي على حق اكثر في ان يقول لهابعد بضع عشرات من السنين : « انهم يخدرونكم بوهم المساواة والحقوق السياسية ، لكن امكانية تحقيق هذه الحقوق منتزعة منكم . ان المساواة الحقوقية ، الظاهرية والاصطلاحية ، تصبح قيداً مثالياً لربطكم بعجلة الرأسمال » .

ولقد جند الحزب الاشتراكي ، تحت رايةهدفه الاساسي ،الجماهير من أجل العمل البرلماني ، لكنه لم يلتزم قط في أي مكان من العالم بألا يقود البروليتاريا الى الاشتراكية إلا عن طريق البرلمانية . ونحن بتلاؤمنا مع النظام البرلماني ، اقتصرنا في العصر السابق على ان نكشف نظرياً قناع الديموقراطية التي لم نكن نملك القوة بعد للتغلب عليها عملياً . لكن المنحنى العقائدي للاشتراكية ، الذي يتكون رغم الانحرافات والسقطات وحتى الخيانات ، ينتهي برفض الديموقراطية وباستبدالها بآلية بروليتارية ما إن تصبح لدى الطبقة العاملة القوى اللازمة .

اننا لن نقدم إلا دليلا واحداً ، لكنه باهر الدلالة . ففي عام ١٨٨٨ كتب بول لافارغ في « الاشتراكي - الديموقراطي » (الروسية) : « إن البرلمانية نظام حكومي يوهم الشعب بأنه يسير بنفسه شؤون البلاد ، مع ان السلطة كلها في الواقع متمركزة في أيدي البورجوازية ، لا البورجوازية كلها ، بل بعض الفئات الاجتماعية المرتبطة بهذه الطبقة . ان البورجوازية ، في مرحلة هيمنتها ،لاتفهم أو لا تحس بالحاجة الى منح الشعب هذا الوهم . ولهذا فإن جميع بلدان أوروبا البرلمانية بدأت بالانتخاب المقيد . ففي كل مكان كان حق توجيه مصائر البلد السياسية عن طريق انتخاب النواب وقفاً في البداية على الملاك المتفاوتي الغنى ، ولم يمتد إلا فيما بعد الى سائر المواطنين الذين لم يواتهم الحظ في الثروة ، الى ان أصبح امتياز البعض حقاً للجميع ولكل مواطن في بعض البلدان .

« في المجتمع البورجوازي ، كلما كانت الثروة الاجتماعية أكبر ، كان عدد من يمتلكونها أقل . وكذلك هو شأن السلطة : فكلما تعاظمت جماهير المواطنين المتمتعة بالحقوق السياسية وازداد عدد الحكام المنتخبين ،

تركزت السلطة الفعلية وأصبحت احتكاراً لزمرة شخصيات يتضاءل عددها يوماً بعد يوم ، هذا هو سر نظام الغالبيات .

ان لافارغ يرى أن البرلمانية ستبقى مابقيت هيمنة البورجوازية. كتب يقول : « في اليوم الذي ستستولي فيه بروليتاريا أوروبا وأميركا على الدولة ،فإن عليها ان تنظم سلطة ثورية وتدير المجتمع ادارة دكتاتورية مالم تتلاش البورجوازية باعتبارها طبقة اجتماعية » .

لقد كان كاوتسكي في الماضي يعرف هذا التقدير الاشتراكي لقيمة البرلمانية ، ولقدردده بنفسه عدة مرات ، وان خانه هذا الوضوح الفرنسي الظريف . ان جحود كاوتسكي النظري يكمن على وجه التحديد في تخليه عن الديالكتيكية المادية ليعود الى الحق الطبيعي معترفاً بأن المبدأ الديموقراطي مبدأ مطلق غير منظور . ان ما كانت الماركسية تعتبره آليــة مؤقتة للبورجوازية ، ومالم يكن يمكن استخدامه في السياسة الا مؤقتاً ، بغاية اعداد الثورة البروليتارية ، يصوره لنا كاوتسكي على انه مبدأ ازلي يقف فوق الطبقات ويرتبط به بلا مراء طرائق النضال البروليتاري . ان تفسخ البرلمانية المناوىء للثورة قد وجد اكمل تعبير له في تأليه الديموقراطيـة من قبل نظريي انحطاط الاممية الثانية .

الجمعية التأسيسية

ان الحصول على غالبية ديموقراطية في برلمــان بورجوازي ليس مستحيلاً استحالة مطلقة بصورة مطلقة . لكن هذه الواقعة حتى لو تحققت ، فانها لن تغير شيئاً ، مبدئياً ، من مجرى الأحداث . ان المثقفين المنتمين

الى الطبقات المتوسطة ، المتأثرين بانتصار البروليتاريا البرلماني ، قد يبدون مقاومة أضعف تجاه النظام الجديد . لكن المقاومة الأساسية للبورجوازية ستحددها وقائع معينة كالوقائع التالية : حالة الجيش المعنوية ، درجة تسلح العمال ، الوضع في البلدان المجاورة . وستتبع الحرب الأهلية مجراها تحت تأثير هذه العوامل الواقعية لا تحت تأثير الحساب البرلماني الهش .

ان حزبنا لم يكن يرفض ان يقود البروليتاريا الى الدكتاتورية مروراً بالديموقراطية . ولقد كان يدرك ادراكاً دقيقاً المزايا التي يقدمها الى الدعاية والى العمل السياسي مثل هذا الانتقال « المشروع » الى النظام الجديد . ومن هنا كانت محاولتنا لدعوة الجمعية التأسيسية . لكنها فشلت . لقد وجد الفلاح الروسي نفسه ، هذا الفلاح الذي أيقظته الثورة للحياة السياسية ، تجاه دزينة من الأحزاب كان هدف كل منها ان يبلبل أفكاره . ولقد اعترضت الجمعية التأسيسية طريق الثورة فكنسناها .

ان الغالبية « التوفيقية » في الجمعية التأسيسية لم تكن تعكس الا النقص في فكر واصالة الفئات الوسطية في المدن والارياف والعناصر البروليتارية المتخلفة . واذا ما نظرنا من زاوية الامكانيات التاريخية الموضوعية ، فاننا نستطيع ان نقول ان الازمة كانت ستكون اقل ايلاماً لو ان الجمعية التأسيسية قد اسقطت نهائياً ، خلال سنتين من العمل ، حظوة الاشتراكيين ـ الثوريين والمنشفيك لتحالفهم مع الكاديت ، فتكون بذلك قد حققت انعطافاً شكلياً لصالح البولشفيك مثبتة للجماهير انه ليس هناك في الواقع الا قوتان البروليتاريا الثورية التي يقودها الشيوعيون ، والديموقراطية المناوئة للثورة التي يقف على رأسها الجنرالات والأميرالات . لكن عقدة المسألة ليست هنا : فالموقف الداخلي كان

بعيداً آنذاك عن التطور بالتوازي مع الموقف الدولي ، ولو أن حزبنا وضع ثقته ، فيما يخص كل المسؤوليات ، في التربية الموضوعية « لمجرى الامور » ، فقد كان من الممكن ان توجهنا الاحداث العسكرية وحدها . لقد كان بمقدور الامبريالية الالمانية ان تستولي على بتروغراد التي كانت حكومة كرينسكي قد بدأت باخلائها . وخسارة بطبرسبورغ كانت ستكون قاتلة بالنسبة الى البروليتاريا الروسية التي كانت خير قواتها آنذاك هي قوات اسطول البلطيق والعاصمة الحمراء .

لا يمكن اذن ان يلام حزبنا على انه اراد ان يعاكس تيار التاريخ ، بل على انه قفز بضع درجات من التطور السياسي . لقد تخطى الاشتراكيين – الثوريين والمنشفيك كي لا يسمح للعسكرية الالمانية بأن تتخطى البروليتاريا الروسية وبأن تعقد معاهدة صلح مع « التفاهم » على حساب الثورة قبل أن يتاح الوقت لها لبسط اجنحتها .

وليس من الصعب البتة ان نستخلص مما سبق الجواب على السؤالين اللذين يطرحهما علينا كاوتسكي بصورة خادعة . واولهما : لمـاذا دعينا الجمعية التأسيسية ما دمنا نستهدف دكتاتورية البروليتاريا ؟ وثانيهما : اذا كانت الجمعية التأسيسية الأولى التي اعتقدنا ان من واجبنا ان ندعوها قد انكشفت رجعيتها ولم تتجاوب مع مصالح الثورة ، فلماذا نرفض ان ندعو جمعية تأسيسية جديدة ؟ ان القصد الخفي لكاوتسكي هو ادانتنا بأننا رفضنا الديموقراطية ، لا لأسباب مبدئية ، بل لأنها كانت ضدنا . فلنستعرض اذن الوقائع حتى نستطيع ان نلتقط هذه الحماقة المغرضة من اذنيها .

كان شعار « كل السلطة للسوفييتات ! » شعار حزبنا منذ بداية الثورة ، أي قبل مدة طويلة من حل الجمعية التأسيسية ، بل قبل مدة طويلة من صدور مرسوم دعوتها . صحيح اننا لم **نكن نعارض** السوفييتات بالجمعية التأسيسية القادمة التي كانت حكومة كيرينسكي تقلل من احتمال دعوتها وتؤخرها باستمرار . لكننا بالتأكيد لم نكن ننظر الى الجمعية التأسيسية القادمة على طريقة الديموقراطيين البورجوازيين الصغار الذين كانوا يرون فيها سيد البلاد الروسية المؤهل لتقرير كل شيء . لقد كنا نفهم الجماهير ان منظماتها الثورية الخاصة – السوفييتات – هي التي تستطيع ويجب أن تكون سيدة الموقف بكل أصالة . وإذا كنا لم نرفض رفضاً قاطعاً الجمعية التأسيسية مسبقاً فهذا فقط لأنها لم تكن تبدو معارضة لسلطة السوفييتات ، بل معارضة لسلطة كيرينسكي الذي لم يكن هو نفسه إلا رجل القش في يد البورجوازية . كنا قد قررنا سلفاً انه اذا ما كانت الغالبية في الجمعية التأسيسية الى جانبنا ، فانها ستحل نفسها بنفسها بنقل سلطاتها الى السوفييتات كما فعلت فيما بعد دوما بتروغراد البلدية التي انتخبت على اوسع أسس الانتخاب الديموقراطي . ولقد حاولت، في كتابي الصغير « ثورة او كتوبر » ، ان أبين الأسباب التي جعلت من الجمعية التأسيسية انعكاساً متخلفاً لعصر تجاوزته الثورة . ولما كنا لانرى تنظيم السلطة الثورية إلا في السوفييتات ولما كانت هذه السوفييتات تقبض على زمام السلطة الفعلية لحظة دعوة الجمعية التأسيسية ، فقد كانت المسألة محلولة في نظرنا عن طريق الحل الاجباري للجمعية التأسيسية التي لم تكن مستعدة لحل نفسها بنفسها لصالح سلطة السوفييتات .

لكن كاوتسكي يسألنا : لماذا لاتدعون جمعية تأسيسية جديدة؟

لأننا لانشعر بالحاجة الى ذلك . واذا كانت الجمعية التأسيسية الاولى تستطيع ان تلعب في حينه دوراً تقدمياً مؤقتاً وذلك باضفائها صفة شرعية، في نظر البورجوازية الصغيرة ، على سلطة السوفييتات التي كانت في المرحلة الاولى من تأسيسها ، فان السلطة السوفياتية لم تعد بحاجة الآن ، وبعد سنتين من دكتاتورية البروليتاريا المظفرة ، وبعد الاخفاق التام لكل المشاريع « الديموقراطية » في سيبيريا وعلى شطآن البحر الابيض وفي اوكرانيا والقوقاز ، أقول ان السلطة السوفياتية لم تعد بحاجة الى ان تنال تصديق سلطة الجمعية التأسيسية المشبوهة . لكن كاوتسكي يتساءل بلهجة لويد جورج : ألسنا على حق ، مادام الامر كذلك ، في ان نستنتج ان حكومة السوفييتات تقوم على ارادة الاقلية باعتبار انها تستبعد رقابة الاستشارة الشعبية ؟

ان هذه الفكرة تمر بجانب الهدف .

اذا كان النظام البرلماني لايعبر إلا بصورة مجملة ، حتى في عصر تطوره « الهادىء » الموثوق ، عن الحالة المعنوية للبلاد ، واذا كان فقد نهائياً في عصر العواصف الثورية القدرة على متابعة نضال وتطور الوعي السياسي ، فـان نظام السوفييتات يشكل اتصالاً أوثق وأصدق وأكثر عضوية الى مالانهاية بغالبية الشغيلة . واهم دلالة له ليست التعبير بصورة سكونية عن الغالبية ، بل ان يصيغها بصورة ديناميكية ولقد دللت الطبقة العاملة الروسية ، بدخولها في طريق الدكتاتورية الثورية ، على انها لاتبني سياستها ، في مرحلة الانتقال ، على فن منافسة الاحزاب المتقلبة كيما تنتزع منها بعض الاصوات الفلاحية ، بل على مبادهة الجماهير الفلاحية العاملة باتفاق تام مع البروليتاريا وادارة البلاد في اطار المصالح الحقيقية للشغيلة.

ان هذه لديموقراطية عميقة الاختلاف عن الديموقراطية البرلمانية .

والآن إذ تقوم المهمة الاساسية للثورة ـ وهذه مسألة حياة أو موت ـ على صد هجوم العصابات البيضاء ، هل يفكر كاوتسكي بأن « غالبية برلمانية » ما قادرة على تأمين تنظيم أشد قوة واخلاصاً وظفراً للدفاع الثوري ؟ ان شروط النضال تطرح نفسها بوضوح كبير في البلاد المطوقة بالحصار السافل ، حتى ان الطبقات الوسطية والزمر الاجتماعية ليس لها من خيار الا بين دينيكين وحكومة السوفييتات . وهل ثمة حاجة الى براهين جديدة بعد ان رأينا احزاب الوسط ، المنشفيك والاشتراكيين ـ الثوريين ، تنقسم على نفسها على هذا النحو ؟

هل يتوقع كاوتسكي ، باقتراحه علينا انتخاباً جديداً للجمعية ، ان تقف الحرب الاهلية اثناء الفترة الانتخابية ؟ واذا كان ينوي ان يدفع بالأممية الثانية الى مثل هذا الاتجاه ، فلنسرع لنعلمه ان مثل هذا الاتجاه لم يعد له من حظوة لا في نظرنا ولا في نظر دينيكين . واذا ما استمرت الحرب بين عصابات الامبريالية وبين جيش العمال والفلاحين ، واذا ماتوجب على الانتخابات ان تقتصر على اراضي السوفييتات ، فهل سيطلب كاوتسكي ان نترك للأحزاب التي تؤيد دينيكين حق الدعاية الحرة ؟ انها الثرثرة بائسة فارغة : فما من حكومة قط تستطيع ان تسمح في أي ظرف كان بتعبئة قوى الاعداء التي تحاربها من خلف صفوف جيوشها .

ان وجود زهرة سكاننا الشغيلة في الجبهة في هذا الوقت لا يحتل اي مكان في طرح كاوتسكي للمسألة . ان البروليتاريين المتقدمين والفلاحين الواعين الذين يقفون ، في جميع الانتخابات وفي جميع الأعمال السياسية الجماهيرية في الصف الأول ويوجهون رأي الشغيلة العام ، موجودون الآن جميعاً في

الجبهات ، في الجيش الأحمر ، حيث يحارب المفوضون والضباط والجنود ويموتون . واذا كانت حكومات الدول الديموقراطية البورجوازية ، التي يقوم نظامها على البرلمانية ، قد رأت انها لاتستطيع ان تجري الانتخابات طوال مدة الحرب ، فانه لمن السخف البالغ بالمقابل ان يطلب مثل هـذا الشيء من روسيا السوفييتات التي ليس فيها من مكان للبرلمانية . ويكفينا ان حكومة روسيا الثورية لم تعرقل ، حتى في أخطر الساعات ، تجديد سوفييتاتها المحلية والمركزية عن طريق الانتخابات .

وسنقول أخيراً ، وكنتيجة نهائية ، لننير عقل كاوتسكي ، ان الكاوتسكيين الروس أنفسهم ، منشفيك مارتوف ودان ، لا يعتقدون أن من الممكن الآن طلب دعوة الجمعية التأسيسية ويرجئون هذا المشروع الجميل الى أيام أفضل . لكن هل سنحتاج اليه آنذاك ؟ من المسموح لنا أن نشك في ذلك . فعندما ستنتهي الحرب الأهلية ، فان الطبقة العاملة ستثبت قوتها الخلاقة وستبين للجماهير الأكثر تخلفاً كل ما يمكن أن تقدمه لهـا . ان جميع السكان سينخرطون في عجلة النظام الاقتصادي والادارة الذاتية السوفياتية ، عن طريق التطبيق العقلاني للعمل الالزامي وتنظيم مركزي لتوزيع المنتجات . ان السوفييتات نفسها ، الـتي هي اليوم أجهزة السلطة ، ستتحول الى منظمات اقتصادية خالصة . وفي مثل هذه الشروط نشك في أن فكرة تتويج البناية الواقعية للمجتمع الاشتراكي بواسطة جمعية تأسيسية [1] بالية وأثرية ، ستخطر لأي كان ، وبخاصة ان هذه

---

(١) كما يغرينا كاوتسكي بالجمعية التأسيسية ، فانه يدعم براهينه القائمة على الآمر المطلق باعتبارات مأخوذة من الرسم البياني للقطع النادر يقول : « ان روسيا بحاجة لمساعدة الرأسمال الاجنبي . والحال ان روسيا السوفييتات ستحرم من هذه المساعدة اذا ←

الجمعية لن تستطيع الا أن تصدق على « تكوين » مختلف المؤسسات التي كانت البلاد بحاجة اليها قبلها وبدونها .

← لم تدع الجمعية التأسيسية ولم تمنح حرية الصحافة ، لا لان الرأسماليين مؤمنون بالمثالية الديموقراطية – انهم لم يترددوا في اقراض القيصرية عدداً لا بأس به من المليارات – بل لانهم لا يثقون ، في مجال الاعمال ، بنظام السوفييتات » (ص ١٤٤) .

ثمة ذرة من الحقيقة في هذا الخلط . فالبورصة قد دعمت بالفعل حكومة كورنيلوف . لكنها دعمتها بقوة اكبر ايضاً عندما شتتت الجمعية التأسيسية . لقد عززت البورصة قناعتها ، عن طريق تجربة كولتشاك ، بأن آلية الديموقراطية البورجوازية يمكن أن تستخدم لخدمة قضية الرأسمالية ثم تطرح فيما بعد كثوب رث . ومن المحتمل كثيراً أن تقبل البورصة بمد الجمعية التأسيسية بقروض جديدة مقابل رهون معينة بأمل – أمل تبرره تماماً التجربة السابقة – ان ترى الجمعية التأسيسية توطد من جديد الدكتاتورية الرأسمالية . اننا لا نفكر بأن ندفع مثل هذا الثمن من أجل « ثقة أرباب الاعمال » في البورصة ، ونفضل عليه الف مرة الثقة التي توحي بها الى البورصة اسلحة الجيش الاحمر .

حول الارهاب

يئن كاوتسكي :

« تؤدي الثورة الى ارهاب دموي تستخدمه حكومات اشتراكية .
ولقد كان البلاشفة في روسيا اول من سار في هذا الطريق . وهذا ماصب عليهم بأقسى صورة استنكار جميع الاشتراكيين الذين لايقبلون بوجهة النظر البولشفية والذين تقف الى جانبهم الغالبية الالمانية . لكن هؤلاء الاخيرين ما كادوا يشعرون بأن هيمنتهم مهددة حتى لجؤوا بدورهم بدون تردد الى طرائق الارهاب التي أدانوا استعمالها في الشرق » .

ويخيل الينا انه كان من الواجب الاستنتاج من هذه المقدمات ان الارهاب أعمق ارتباطاً بكثير بطبيعة الثورة مما يفكر بعض الحكماء . اما كاوتسكي فانه يستخلص نتيجة معاكسة كلياً . ان التطور المدهش لارهاب البيض والحمر في مختلف الثورات الاخيرة ـ الروسية والفنلندية والالمانية والنمساوية والمجرية ـ هو في نظره دليل على ان هذه الثورات انحرفت عن طريقها القويم ولم تتجل كما كان يجب ان تتجلى حسب احلامه النظرية . وبدون ان نتأخر في نقاش « تلازم » الارهاب المنظور اليه «

« في ذاته » مع الثورة المفهومة هي ايضاً « في ذاتها » ، فلنقف عند مثال بعض الثورات كما يظهرها لنا تاريخ الانسانية الحي

اننا سنذكر اولاً بعهد الاصلاح الذي رسم خط شبه فاصل بين العصر الوسيط والتاريخ الحديث : فكلما كان الاصلاح يعانق المزيد من المصالح العميقة للجماهير الشعبية ، كان يزداد اتساعاً وتزداد ضراوة الحرب الاهلية التي كانت تدور تحت الرايات الدينية، وتزداد ايضاً قسوة الارهاب من كلا الجانبين .

لقد قامت انكلترا في القرن السابع عشر بثورتين : الاولى التي اشعلت انفجارات اجتماعية عنيفة وحروباً طويلة وأدت الى اعدام شارل الاول ، والثانية التي انتهت نهاية سعيدة بصعود اسرة مالكة جديدة الى العرش . ان البورجوازية الانكليزية ومؤرخيها ينظرون الى هاتين الثورتين من زاويتين مختلفتين : فالاولى في نظرهم مذبحة مقرفة و« عصيان » عظيم ، أما الثانية فقد لقبت باسم « الثورة المجيدة » . ولقد بين المؤرخ الفرنسي اوغستان تييري أسباب هذا الاختلاف في التقدير . ففي الثورة الانكليزية الاولى ، في « العصيان الكبير » ، كان الشعب يعمل ، أما في الثانية فقد « صمت » تقريباً . ومن هنا ينتج انه من الصعب للغاية ، في نظام قائم على العبودية الطبقية ، ان تتعلم الجماهير المضطهدة الطرائق المهذبة . فهي اذا ما استشاط غضبها قاتلت بالدبابيس والحجارة ، بالنار والحبل . ولقد أحس احياناً المؤرخون الذين نذروا انفسهم لخدمة الملوك والمستغلين بالاهانة بسبب ذلك . لكن لنلاحظ ان « العصيان الكبير » لا « الثورة المجيدة » هو الذي يحتل مكانه في تاريخ انكلترا الحديثة (البورجوازية) كحدث حاسم .

واهم حدث في التاريخ الحديث بعد الاصلاح و «العصيان الكبير» ، الحدث الذي خلف وراءه الحدثين السابقين بعيداً بسبب أهميته ، كان الثورة الفرنسية الكبرى .

لقد ولدت الثورة الكلاسيكية الارهاب الكلاسيكي . وكاوتسكي مستعد ليعذر ارهاب اليعاقبة ، معترفاً بأن اي تدبير آخر ما كان ليسمح لهم بانقاذ الجمهورية . لكن لا يدري احد ما الفائدة من هذا التبرير المتأخر . لقد كان اليعاقبة يجسدون الشر في نظر كاوتسكيي نهاية القرن الثامن عشر (زعماء حزب الجيروندين الفرنسي) . واليكم هذه المقارنة المبتذلة التي فيها من الدلالة مافيها بين الجيرونديين واليعاقبة . لقد خطت هذه المقارنة ريشة احد المؤرخين البورجوازيين الفرنسيين « كان كلا الطرفين يريد الجمهورية ...» . لكن الجيرونديين « كانوا يريدون جمهورية شرعية ، حرة ، كريمة . أما الجبليون فكانوا يريدون (!) جمهورية استبدادية رهيبة . كان كلا الطرفين يعلن انه مع سيادة الشعب . لكن الجيرونديين كانوا يعنون حقاً بكلمة الشعب مجموع السكان ، في حين ان الشعب بالنسبة الى الجبليين لم يكن الا الطبقة الكادحة . ومنذ ذاك اصبحت السلطة بيد الاشخاص الاخيرين » . ان التناقض بين فرسان الجمعية التأسيسية والمنفذين الدمويين للدكتاتورية البروليتارية تدل عليه ههنا بما فيه الكفاية تعابير العصر السياسية .

ان دكتاتورية اليعاقبة الحديدية قد املاها موقف فرنسا الثورية البالغ الحرج واليكم مايقوله مؤرخ بورجوازي : « كانت الجيوش الاجنبية قد دخلت الاراضي الفرنسية من أربعة جوانب في آن واحد . في الشمال الانكليز والنمساويون . في الالزاس ، البروسيون . في دوفيني وحتى ليون ،

البيمونتيون . وفي روسيون، الاسبانيون . وهذا في الوقت الذي كانت فيه الحرب الاهليـــة تعيث فساداً في اربع نقاط مختلفة : في نورماندي وفاندي وليون وطولون . وينبغي ان نضيف ايضاً الاعداء الداخليين ، المدافعين المتسترين عن النظام القديم، المستعدين لمساعدة العدو بكل الوسائل».

ونحن سنقول ان تشديد الدكتاتورية البرولیتارية في روسيا كان مشروطاً بظروف لاتقل احراجاً . جبهة متصلة من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب . وعلاوة على جيوش كولتشاك ودينيكين المناوئة للثورة ، كانت روسيا السوفياتيـــة تهاجم بالتواقت أو التتابع من قبل الالمان والنمساويين والتشيكوسلوفاكيين والرومانيين والفرنسيين والانكليز والاميركان واليابانيين والفنلنديين والاستونيين والليتوانيين . أما في داخل البلاد ، المحاصرة من جميع الاطراف والمحتضرة جوعاً ، فكانت لاتنقطع المؤامرات والتمرد والاعمال الارهابية وتدمير المستودعات وسكك الحديد والجسور . «كانت الحكومة التي اخذت على عاتقها ان تحارب العدو الذي لايحصى له عدد في الخارج والداخل ، لاتملك لا مـالاً ولا جيشاً كافياً ، وبكلمة واحدة لاشيء ، باستثناء طاقة لاحد لها ، وتأييد حار من قبل العناصر الثورية في البلاد وجرأة اللجوء الى جميع التدابير من أجل سلامة الوطن مهما كانت قاسية تعسفية غير شرعية» . بهذه العبارات كان بليخانوف يصف في الماضي حكومة اليعاقبة (الاشتراكي - الديموقراطي : لمحة سياسية وأدبية عن فترة ثلاثة أشهر . شباط ، الجزء الاول . لنـدن ١٨٩٠ . مقال عن «الذكرى المئوية للثورة الكبرى» ص ٦ و٧) .

لكن لنلتفت الى الثورة التي حدثت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، في الولايات المتحدة ، بلد «الديموقراطية» . فبالرغم من انها

لم تكن تهدف الى إلغاء الملكية الخاصة ، بل الى الغاء تجارة الزنوج ، الا ان مؤسسات الديموقراطية عجزت مع ذلك عن حل النزاع بالطريق السلمي . كانت ولايات الجنوب ،التي هزمت في انتخابات ١٨٦٠ الرئاسية، قد قررت ان تستعيد ، بأن ثمن كان، النفوذ الذي مارسته حتى ذلك الحين بفضل الابقاء على عبودية الزنوج ، وبينما كانت تلقي ، كما جرت العادة ، خطابات بليغة عن الحرية والاستقلال ، سارت في الطريق الذي أدى الى تمرد ملاك العبيد . وكان لابد ان تنتج عن ذلك حتماً جميع نتائج الحرب الاهلية اللاحقة . ومنذ بداية النزاع اعتقلت حكومة بالتيمور العسكرية في حصن ماك ــ هنري عدداً من انصار الرق رغم القانون الذي يمنع اعتقال المواطنين بدون قرار من الحكمة . وقد كانت شرعية او لاشرعية هذه الاعمال مثار نقاش حاد بين أعيان المنطقة . وقد صرح القاضي الاول تيني ان رئيس الجمهورية لايملك لاحق تعليق القانون السابق الذكر ، ولا حق منح المسؤولين العسكريين مثل هذه السلطات . وقد قال أحد اوائل مؤرخي الحرب الاميركية : «كان هذا هو ، حسب كل احتمال ، الحل الطبيعي للمسألة . لكن الموقف كان بالغ الحرج ، وضرورة اتخاذ تدابير جذرية تجاه سكان بالتيمور ملحة للغاية الى حد ان شعب وحكومة الولايات المتحدة كانا يطالبان بأحزم التدابير » . (« تاريخ الحرب الاميركية» ، بقلم فليتشر ، ملازم - كولونيل في رماة الحرس الايرلنديين ، مترجم الى الانكليزية ، سان ــ بترسبورغ ، ١٨٦٧ ، ص ٩٥) .

والبضائع القليلة التي كان الجنوب الثوري بحاجة اليها كانت تأتيه سراً عن طريق تجار الشمال . وفي مثل هذه الشروط لم يعد أمام سكان الشمال إلا اللجوء الى القمع . وفي ٦ آب ١٨٦١ صدق رئيس البلاد على

مشروع قانون مقدم من قبل الكونغرس بمصادرة الملكية الخاصة المستخدمة لأغراض العصيان . وكان الشعب ، ممثلا بالعناصر الاكثر ديموقراطيـة ، يميل الى التدابير القصوى . وكان للحزب الجمهوري في الشمال غالبية كاسحة وكان كل من يشتبه في انه انفصالي ، أي محبذ لولايات الجنوب المنشقة ، يتعرض للعنف . وفي عدد من مدن الشـمال وحتى في ولايات انكلترا الجديدة التي كانت تتبـاهى باستتباب النظام فيها ، قام السكان في عدة مناسبات بنهب مراكز الصحف التي كانت تؤيـد انصار الرق وحطموا مطابعها . ولم يكن من النادر ان يرى الانسان الناشرين الثوريين مطليين بالقطران ، ممرغين في الريش ، ومعروضين في الشوارع بهذا الزي الى ان يقبلوا بحلف الايمان على الاخلاص للاتحاد . وكانت شخصية المزارع المطلي بالقطران تفقد كل صلة بـ « الشيء في ذاته » ، وهكـذا تعرض الآمر المطلق الذي قال به كانت الى اكثر من فشل اثناء الحرب الاميركية الاهلية لكن ليس هذا كل شيء . يروي لنا المؤرخ نفسه : « ولجأت الحكومة من جانبها الى تدابير قمع متنوعة ضـد المنشورات التي لاتتبنى وجهة نظرها . ووجدت الصحافة الاميركيةالتي كانت تتمتع بأكبرحرية ممكنة ، وجدت نفسها بسرعة في وضع مؤسف لايفترق بشيء عن الوضع في اوروبا في عهـد الحكم الملكي المطلق . ولقد عانت حرية الكلام من المصير نفسه . وهكذا ـ يتابع الملازم ـ الكولونيل فليتشر ـ وجـد الشعب الاميركي نفسه محروماً في الوقت نفسـه من معظم حرياته . ومن المفيد ان نلاحظ ـ مضيفاً بلهجة الاخلاقي ـ ان غالبية السكان كانت مأخوذة بالحرب ومستعدة للقبول بجميع التضحيات من اجل الوصول الى هدفها حتى انه كان يبدو عليها انها لم تتبين انها خسرت حرياتها ولم تأسف عليها قط » (« تاريخ الحرب الاميركية » ـ ص ١٦٢ ـ ١٦٤) .

ولقد كان رد فعل دمويي الجنوب انصار الرق واتباعهم الرعاع اشد واعنف بكثير . يروي الكونت دي باري : « في كل مكان كانت تتكون فيه غالبية تؤيد ملاك العبيد ، كان الرأي العام يصبح مستبداً الى درجة رهيبة ازاء الاقلية. وكان جميع الذين يأسفون على العلم القومي مرغمين على التزام الصمت . لكن تبين ان هذا لا يكفي . وكما يحدث في الثورات كافة ، فقد رغم اللامبالون على اظهار تعلقهم بالقضية الجديدة . ومن كان يرفض منهم كان يصبح عرضة لكراهية الرعاع وعنفهم ... وفي كل مراكز الحضارة الوليدة (ولايات الجنوب الغربي) تشكلت لجان رقابة مؤلفة من جميع الذين عرفوا بتطرفهم في المعركة الانتخابية ... وكان الملهى المكان الطبيعي للاجتماع وكانت حفلات الدعارة تختلط بخطابات بائسة لتمجيد العدالة . وكان بعض المهووسين يجلسون حول مائدة يسيل منها الوسكي ، ويحاكمون مواطنيهم الحاضرين والغائبين . وكان المتهم يشاهد تهيئة الحبل المشؤوم حتى قبل ان توجه اليه الاسئلة . ومن لا يحضر امام المحكمة كان يعلم بالحكم عليه وهو يسقط صريعاً تحت رصاص الجلاد القابع بين اشجار الغابة ... » ان هذه الصورة تذكر بالمشاهد التي تحدث يومياً في المناطق التي يعمل فيها دينيكين وكولتشاك ويودينيتش وسائر ابطال « الديموقراطية » الفرنسية - الانكليزية والاميركية .

كيف كانت تطرح مسألة الارهاب في ظل كومونة باريس ؟ هذا ما سنراه فيما بعد . ومهما يكن من امر ، فان الجهود التي يبذلها كاوتسكي ليعارضنا بالكومونة لا تستند الى اساس من الصحة وترغمه على الوقوع في لفظية حقيرة .

ينبغي على مايبدو ان نعتبر اعتقال الرهائن ، متلازماً ،وارهاب الحرب الاهلية ، لكن كاوتسكي ، خصم الارهاب واعتقال الرهـائن ، مؤيد لكومونة باريس مع ذلك (صحيح انها شهدت النور قبل خمسين عاماً) . بيد ان الكومونة لم تتردد في اخذ الرهائن . ومن هنا كان بعض الحرج لدى مؤلفنا . لكن ما الفائدة من مهارة اللغو والمحاججة ان لم تستخدم في مثل هذه الظروف ؟

ان مراسيم الكومونة عن الرهائن وتنفيذ حكم الاعـدام فيها ، جواباً على فظائع اتباع فرساي ، قد املتها ـ حسب تفسير كاوتسكي العميق الرغبة في الحفاظ على الحيوات الانسانية لا الرغبة في القتل . ياله من اكتشاف مدهش ! لكن لايبقى علينا الا ان نوسعه . اننا نستطيع ويتوجب علينا ان نفهم العالم اننا في ايام الحرب الاهلية كنا نبيد الحرس الابيض حتى لايبيد الشغيلة . ومن هنـــا ليس هدفنا حذف الحيوات الانسانية بل الحفاظ عليها . واذا ماتوجب علينا ،للحفاظ عليها، ان نحارب والسلاح في ايدينا ، واذا ما ادى بنا هذا الى عمليات ابادة ، فان لفي هذا لغزاً ، استطاع العجوز هيغل ان يكتشف سره الديالكتيكي ، هذا اذا لم نشأ ان نتحدث عن الحكماء المنتمين الى مدارس اقدم .

ان الكومونة ما كانت لتستطيع ان تقف على قدميها وتوطد نفسها اذا لم تشن حرباً لاهوادة فيها ضد اتباع فرساي . ولقد كان لهؤلاء عـدد لابأس به من العملاء في باريس . وما كان بمقدور الكومونة ، وهي تحارب عصابات تيير ، الا ان تبيد اتباع فرسـاي سواء أفي الجبهة أم في المؤخرة . ولو تخطت سلطتها حدود باريس ، لاصطدمت - مع تطور الحرب الاهلية مع جيش الجمعية التأسيسية - بأعداء اشد خطراً في صفوف

السكان بالذات . لم يكن اذن باستطاعة الكومونة وهي تقف في وجه الملكيين ان تمنح حرية الكلام لعملائهم في المؤخرة .

ان كاوتسكي ، رغم الاحداث الكبيرة الراهنة ، لا يكون لنفسه أي فكرة عن الحرب بشكل عام وعن الحرب الاهلية بشكل خاص . انه لايتوصل الى ان يفهم ان كل نصير لتيير في باريس لم يكن مجرد «خصم» عقائدي لرجال الكومونة ، بل عميلاً وجاسوساً لتيير ، عدواً مميتاً ، يترقب اللحظة التي يستطيع فيها ان يطلق النار على ظهورهم . والحال ان العدو يجب ان يكون في وضع يستحيل معه ان يؤذي ، وهذا مالايتوفر في زمن الحرب الا بحذفه .

وفي الثورة كما في الحرب ينبغي تحطيم ارادة العدو وارغامه على الاستسلام راضياً بشروط المنتصر .

ان الارادة لهي بالتأكيد ذات صفة بسيكولوجية ، لكن الثورة بخلاف الحفلة الخطابية او الاجتماع العام او المؤتمر ، تسعى وراء اهدافها باللجوء الى وسائل مادية وإن بأقل من حدود الحرب .

لقد استولت البورجوازية على السلطة بالتمرد ، ووطدتها عن طريق الحرب الاهلية . وهي تحافظ على السلطة في ايام السلم بمعونة جهاز للقمع شديد التعقيد . ومادام هناك مجتمع طبقي قائم على اعمق التناحرات ، فان استعمال القمع امر لامفر منه لاخضاع الطرف الخصم .

وحتى لو ولدت دكتاتورية البروليتاريا في بعض البلدان في حضن الديموقراطية ، فان الحرب الاهلية لن تصبح بحكم المستبعدة لهذا

السبب . ان مسألة معرفة لمن ستعود السلطة في البـلاد ، اي معرفة هل ستبقى البورجوازية على قيد الحياة ام ستفنى ، لن تنحل بالعودة الى مواد الدستور ، بل باللجوء الى مختلف اشكال العنف . ومهما يفعل كاوتسكي لتحليل غذاء جلاد البشرية (انظر الصفحات ٨٥ والصفحات التالية من كتابه) وسائر الظروف القريبة او البعيدة التي ستسمح بتحديد أسباب القسوة الانسانية ، فانه لن يجد في التاريخ وسائل اخرى لتحطيم ارادة العدو غير اللجوء الحازم الى القوة .

ان درجة ضراوة المعركة تتعلق بسلسلة كاملة من الشروط الداخلية والدولية وكلما بدت مقاومة العدو الطبقي المغلوب ضارية وخطرة ، تحول بالضرورة نظام القمع الى نظام ارهاب .

لكن كاوتسكي يتخذ ههنا على حين غرة موقفاً جديداً في محاربة الارهاب السوفياتي . فهو يتظاهر بكل بساطة بتجاهل مقاومة البورجوازية الروسية الحانقة المناوئة للثورة . يقول : « لم يلحظ احد ضراوة مشابهة لما جرى في بترسبورغ وموسكو في تشرين الثاني ١٩١٧ ثم في بودابست مؤخراً بشكل خاص » (ص ١٠٢) .

ونتيجة لهذه الطريقة الموفقة في طرح المسألة ، يصبح العنف مجرد نتاج لفكر البلاشفة الدموي ويقطع في الوقت نفسه صلته بتقاليد الانسان الاول آكل العشب وبدروس اخلاق « الكاوتسكية » .

ان استيلاء السوفيتات على السلطة في مطلع تشرين الثاني ١٩١٧ (اسلوب جديد) قد تم بخسارة لا تكاد تذكر . لقد كانت البورجوازية الروسية تشعر انها بعيدة كل البعد عن الجماهير الشعبية وعاجزة كل العجز

في الداخل ، ومتورطة الى ابعد الحدود بمجرى الحرب ونهايتها ، وفاقدة لكل حظوة لها بسبب نظام كيرنسكي ، الى حد انها لم تجازف ، ان صح التعبير ، بالمقاومة . ولقد تمت الاطاحة بسلطة كيرنسكي في بترسبورغ بدون قتال تقريباً . اما في موسكو فقداستمرت المقاومة بسبب الطابع المتردد لأعمالنا بشكل خاص . وفي معظم مدن الاقاليم، انتقلت السلطة الى السوفييتات بمجرد برقية من بترسبورغ او موسكو . ولو بقيت الامور عند هذا الحد ، لما طرحت البتة مسألة الارهاب الاحمر . لكن منذ تشرين الثاني ١٩١٧ ، كنت شاهداً على بداية المقاومة من جانب من يملكون . ولاشك في ان تدخل حكومات الغرب الامبريالية هو الذي منح الثورة المضادة تلك الثقة بالنفس واعطى مقاومتها قوة متعاظمة باستمرار: وهذا ما نستطيع اثباته بالوقائع اليومية الهامة او الثانوية التي حدثت طوال الثورة السوفياتية .

ان « الاركان العامة » لكيرنسكي لم تكن تشعر بأي دعم من جماهير الجنود . ولقد كانت على استعداد للاعتراف بدون مقاومة بالسلطة السوفياتية التي كانت قد بدأت المفاوضات مع الألمان بهدف عقد الهدنة . لكن سرعان ما جاء احتجاج من بعثات « التفاهم » العسكرية مترافق بتهديدات مباشرة . وتملك الذعر قيادة الاركان العامة . وتحت ضغط الضباط « الموالين » ، دخلت في طريق المقاومة ، مثيرة بالتالي نزاعاً مسلحاً ومؤدية الى اغتيال قائد الاركان العامة ، الجنرال دوخونين ، على أيدي جماعة من البحارة الثوريين .

وفي بترسبورغ ، قام العملاء الرسميون لـ « التفاهم » وبصورة خاصة البعثة العسكرية الفرنسية بالتعاون مع الاشتراكيين ـ الثوريين

والمنشفيك ، بتنظيم مقاومة مكشوفة منذ اليوم الثاني للثورة . وهكذا جندوا وسلحوا ووجهوا ضدنا الضباط التلاميذ (الجنكر) (١) والشبيبة البورجوازية ولقد كلف تمرد الجنكر في ١٠ تشرين الثاني من الخسائر اكثر بمئة مرة مما كلفته ثورة ٧ تشرين الثاني . ولقـد ادت مغامرة كيرنسكي - كراسنوف ضد بترسبورغ ، التي كان « التفاهم » وراءها ، الى ادخال اول عناصر الضراوة في النزاع . ومع ذلك فقـد اطلق سراح الجنرال كراسنوف بناء على كلمة شرف منه . اما تمرد ياروسلاف (اثناء صيف ١٩١٨) الذي كلف الكثير من الضحايا ، فقـد نظمه سافنكوف بأمر من سفارة فرنسا وعلى نفقتها . ولقد تم احتلال أرخانجيل حسب خطة العملاء العسكريين والبحريين الانكليز ، وبمساعدة المراكب الحربيـة والطائرات الانكليزية ولقد جاء صعود كولتشاك ، رجل الرأسمـال الامـيركي ، بفضل الكتائب الأجنبية التشيكوسلوفاكية على حساب الحكومة الفرنسية . ولم يستطـع كاليدين و كراسنوف ، اول زعيمين لثورة الدون المضادة ، واللذان اطلقنا سراحهما ، ان يحصلا على بعض النجاح الجزئي الا بفضل المعونة المالية والعسكرية من المانيا . وفي اوكرانيا ، قلبت السلطة السوفياتية في مطلع ١٩١٨ على يد العسكريين الالمان . وانما بفضل المعونات المالية والفنية من فرنسا وبريطانيا العظمى تم انشاء جيش دينيكين المناوىء للثورة . ولم ينظم جيش يودينيتش الا بأمل تدخـل انكلترا ونتيجة لمساعدتها المادية . ان السياسيين والدبلوماسيين والصحافيين في بلدان « التفاهم » يتناقشون بكل صراحة منذ سنتين في مسألة معرفة ما اذا كانت الحرب الأهلية في روسيا مربحة الى حد يدعو الى تمويلهـا .

---

(١) الجنكر : أولاد النبلاء من ملاك الاراضي . « المترجم »

وفي مثل هذه الشروط ، لا بد ان تكون جمجمة المرء قاسية كالصخرحتى يبحث عن أسباب الطابع الدموي للحرب الاهلية في روسيا في سوء نية البلاشفة لا في الموقف الدولي .

لقد كانت البروليتاريا الروسية اول من سار في طريق الثورة الاجتماعية ، ولقد تجرأت البورجوازية الروسية ، العاجزة سياسياً ، على ألا تقبل بتجريدها من امتيازاتها سياسياً واقتصادياً ، لا لشيء الا لأنها كانت ترى في كل مكان اخوانها الاكبر سناً منها قابضات على زمام السلطة ومتمتعات بكل القوة الاقتصادية والسياسية ، والعسكرية الى حد ما .

ولو أن ثورتنا في تشرين الثاني حدثت بعد بضعة شهور او حتى بضعة أسابيع من استيلاء البروليتاريا على السلطة في المانيا وفرنسا وانكلترا ، لما كان هناك شك في ان ثورتنا كانت ستكون اكثر الثورات سلمية واقلها دموية في حدود ما هو ممكن على هذه الأرض . لكننا لم نخرج على هذا الترتيب التاريخي ـ الطبيعي للغاية للوهلة الاولى والعظيم الفوائد بالنسبة الى الطبقة الثورية الروسية - بغلطتنا بل بغلطة الاحداث فبدلاً من أن تكون البروليتاريا الروسية الأخيرة ، كانت الأولى . وهذا الظرف على وجه التحديد هو الذي اعطى ، بعد مرحلة الالتباس الاولى ، طابعاً شديد الضراوة لمقاومة الطبقات السائدة سابقاً في روسيا ، وهو الذي ارغم البروليتاريا الروسية ، لحظة الاخطار الكبيرة والاعتداءات من الخارج والمؤامرات والتمرد من الداخل ، على اللجوء الى تدابير الارهاب الحكومي القاسية .

اما ان هذه التدابير كانت غير مجدية ، فهذا ما لا يستطيع

ان يقوله احد اليوم . لكن ربما كان البعض يريد أن يعتبرهـا .. « غير مقبولة » .

لقد كانت مهمة وواجب الطبقة العاملة ، التي استولت على السلطة بالقتال ، ان توطد هذه السلطة بصورة لا تتزعزع معها ، وان ترسخ دعائم سيطرتها نهائياً ، وان تقضي على كل رغبة في الانقلاب لدى اعدائهـا ، وان تعطي لنفسها ، من هنـا بالذات ، امكانية تحقيق الاصلاحات الاشتراكيـة الكبرى . والا كان عليها ألا تستولي على السلطة . ان الثورة لا تستلزم « منطقياً » الارهاب ، كما انها لا تستلزم العصيان المسلح . يا لها من فكرة بليغة مبتذلة ! لكن الثورة بالمقابل تتطلب من الطبقـة الثورية ان تلجأ الى كل الوسائل لتحقيق غاياتها . الى العصيان المسلح اذا اقتضى الامر ، والى الارهاب ان كان ذلك ضرورياً . ان على الطبقـة العاملة ، التي استولت على السلطة والسلاح في ايديهـا ، ان تحطم بالعنف جميع المحاولات التي قد تقوم لانتزاع السلطة منها . واينما وجدت نفسها تجاه مؤامرة مسلحة او تمرد او محاولة مشبوهة ، فان قمعها سيكون عديم الشفقة . لعل كاوتسكي قد اخترع وسائل اخرى ? او لعل كل المسألة في نظره هي مسألة درجة القمع ، ولعله يقترح في مثل هذه الحال اللجوء الى الاعتقال بدل عقوبة الموت ?

ان مسألة أشكال القمع ودرجته ليست بالتأكيد مسألة « مبدأ » . انها مسألة الوسائل بهدف بلوغ الهدف . ففي عصـر ثوري ، لن يسمح الحزب الذي طرد من السلطة والذي لا يريـد استقرار الحزب الحاكم والذي يثبت ذلك بالنضال الشرس الذي يخوضه ضده ، اقول لن يسمح لنفسه بأن يخيفه التهديد بالسجن الذي لا يؤمن أصلاً بدوامه . وانما هذه

الواقعة الحاسمة هي وحدها التي تفسر تطبيق عقوبـــة الموت في الحرب الأهلية في معظم الحالات .

لكن لعل كاوتسكي يريد ان يقول ان عقوبـــة الموت ليست منسجمة بصورة عامة مع الهدف المرام بلوغه وانه من المستحيل اخافـة « الطبقات » ؟

هذا غير صحيح . ان الارهاب عاجز – وهو ليس كذلك الا في نهاية الأمر – اذا ما مارسته الرجعية ضد الطبقة الـــتي تثور بمقتضي قوانين تطورها التاريخي . ان على الارهاب بالمقابل ان يكون فعالاً ضد الطبقة الرجعية الـتي لا تريد ان تغادر الحلبـة . ان التخويف هو أقوى وسيلة في العمل السياسي سواء أعلى الصعيد الدولي ام في الداخل . ان الحرب ، شأنها شأن الثورة ، تستند الى التخويف . ان الحرب المنتصـرة لا تبيد عامة الا جزءاً صغيراً من الجيش المقهور ، لكنها تقضي عـــلى معنويات الآخرين وتحطم ارادتهم وتـلك الثورة السلوك ذاته : انهـا تقتل بضعة اشخاص وتخيف ألفاً وبهذا المعنى لا يتميز الارهاب الاحمر مبدئياً عن العصيان المسلح الذي ليس هو الا استمراراً له . ولا يستطيـع ان يدين « اخلاقياً » الارهاب الحكومي للطبقة الثورية الا من يستنكر مبدئياً (ولفظياً) كل عنف بصورة عامة . لكن في مثل هذه الحـال لا يعدو المرء ان يكون واحـداً من اولئك « الكويكر » المسالمين المرائـين .

كيف تميزون اذن تكتيككم عن حكم الاقلية الغنية المطلق ؟ – هذا ما يسألنا عنه كهنة الليبيرالية و « الكاوتسكية » ؟

ألا تفهمون ذلك ، أيها الاتقياء الكذبة ؟ سنشرح لـكم الأمر .

لقد كان ارهاب القيصرية موجهاً ضد البروليتاريا . ولقـــد كان الدرك القيصري يخنق الشغيلة الذين يناضلون من أجل النظام الاشتراكي اما « لجاننا الاستثنائية » فهي تعدم الملاك الكبار والرأسماليين والجنرالات الذين يحاولون اعادة توطيد النظام الرأسمالي . أتدركون هذا ... الفرق؟ نعم ؟ انه بالنسبة الينا ، نحن الشيوعيين ، كاف تماماً .

حرية الصحافة

ان كاوتسكي ، الذي ألف العديد من الكتب والمقالات ، يشكو بصورة خاصـة من التعرض لحرية الصحف . فهل من المقبول به ان تلغى الصحف ؟

ان جميـع المؤسسات واجهزة السلطة الحكوميـة والرأي العام تصبح بصورة مباشرة او غير مباشرة ، في زمن الحرب ، اجهزة لتسيير الحرب . وهذا ينطبق بالدرجة الاولى على الصحافة . ان مامن حكومة تخوض حرباً جدية ، تستطيـع ان تسمح بتوزيـع منشورات في اراضيهـا تناصر العدو علناً او سراً . فكم بالاحرى في مرحلة الحرب الاهلية . ان طبيعة الحرب الاخيرة تستلزم ان يكون لدى الطرفين ، خلف قواتهما ، سكان يتعاطفون مع العدو . وفي الحرب حيث يقرر الموت مصير النجاح او الفشل ، يتوجب تطبيق عقوبة الموت على العملاء الاعداء الذين تغلغلوا الى خلف الجيوش انه قانون غير انساني بلا شك ، لكن مامن احد حتى يومنا هذا اعتبر الحرب مدرسة انسانية ، وكم بالاحرى الحرب الاهلية . فهل يمكن لأحد ان يطالب جدياً اثناء الحرب ضد عصابات دينيكين المناوئة للثورة بالسماح لمنشورات الاحزاب التي تؤيده بالظهور دونما عراقيل

في موسكو او بتروسبورغ ؟ ان اقتراح ذلك باسم « حرية » الصحافة يعادل المطالبة باسم الاعلان بنشر اسرار عسكرية . كتب رجل الكومونة آرثر آرنولد : « ان مدينة محاصرة لا تستطيع ان تسمح لا للرغبة في رؤيتها تسقط تعبر عن نفسها بحرية ضمن اسوارها ، ولا بتحريض المدافعين عنها على الخيانة ، ولا بتبليغ العدو حركات قواتها » . وهذا ما كان عليه موقف الجمهورية السوفياتية منذ تأسيسها. فلنستمع مع ذلك الى ما يقوله كاوتسكي في هذا الموضوع :

« ان تبرير هذا النظام (يعني الغاء الصحافة) يتلخص في الاعتقاد الساذج بأن هناك حقيقة مطلقة (!) لا يعرفها غير الشيوعيين وحدهم (!!) وهو يتلخص ايضاً يتابع كاوتسكي في ذلك الرأي القائل ان الكتاب كافة يكذبون بسبب من طبيعتهم (!) وان الشيوعيين وحدهم هم المتعصبون للحقيقة (!!) ، في حين ان الكذابين والمتعصبين لما يعتبرون انه الحقيقة يلتقون ، في الواقع ، في جميع المعسكرات، الخ، والخ، الخ » (ص ١١٩).

وهكذا فان كاوتسكي يرى انه حتى في اشد مراحل الثورة حدة، وحين تكون المسألة بالنسبة الى الطبقات المتصارعة مسألة حياة او موت ، يظل النقاش الادبي قائماً كما في الماضي لتقرير ... الحقيقة . ما اعمق هذا الرأي !... ان « حقيقتنا » ليست حتماً مطلقة . لكن بما اننا نسفح الدم الآن باسمها ، فليس لنا من داع او امكانية للخوض في نقاش ادبي حول نسبية الحقيقة مع الذين « ينتقدوننا » بكل الوسائل بلا تورع للوصول الى غاياتهم . كما ان مهمتنا ليست معاقبة الكذابين وتشجيع محبي العدالة من الصحفيين من جميع الاتجاهات، بل مهمتنا فقط ان نخنق كذب البورجوازية الطبقي وان نضمن انتصار حقيقة البروليتاريا الطبقية— بغض النظر عن وجود

الكذابين والمتعصبين في كلا المعسكرين .

يشكو كاوتسكي فيما بعد :

« لقد دمرت السلطة السوفياتية القوة الوحيدة التي تستطيع ان تساعد على استئصال الفساد : حرية الصحافة . ان الرقابة بواسطة حرية الصحافة غير المقيدة على الاطلاق كانت ستكون الوسيلة الوحيدة لقمع اللصوص والمغامرين الذين سيريدون حتماً الاستفادة من كل سلطة غير محدودة ، غير مراقبة .. » (ص ١٤٠) . وهكذا ودواليك . الصحافة سلاح موثوق ضد الفساد ! ان لهذه الوصفة الليبيرالية وقعاً حزيناً حين نفكر بالبلدين اللذين يتمتعان بأكبر « حرية » للصحافة : اعني بهما اميركا الشمالية وفرنسا اللتين هما في الوقت نفسه الدولتان اللتان بلغ فيهما الفساد الرأسمالي ذروته .

ان كاوتسكي ، المكتظ بالثرثرات البالية التي اخذها عن الدكاكين السياسية الخلفية للثورة الروسية ، يتصور ان الجهاز السوفياتي ، وقد حرم من صحافة الكاديت والمنشفيك ، سيتهدم على ايدي « اللصوص والمغامرين » هذا ما كان مايطبل له المنشفيك قبل عام ونصف .. اما اليوم فانهم لن يجرؤوا حتى على ترديده . لقد استطاعت السلطة السوفياتية ، بمساعدة الرقابة السوفياتية والانتخاب الذي يقوم به الحزب بلا انقطاع في جو من الصراع المحموم ، ان تتغلب على اللصوص والمغامرين الذين صعدوا الى السطح لحظة الثورة ، بصورة افضل بكثير مما كانت تستطيع ان تفعله اي سلطة اخرى في اي لحظة كانت .

اننا نحارب . اننا نقاتل قتالاً مريراً حتى الموت . والصحافة ليست

سلاح مجتمع مجرد ،بل سلاح معسكرين لا يمكن التوفيق بينها ،يتحاربان بالسلاح انا نلغي صحافة الثورة المضادة كما نهدم مراكزهـــا المحصنة ومستودعاتها ومواصلاتها وشبكات جاسوسيتها . اننا نحرم انفسنا من الهام ووحي الـكاذيت والمنشفيك عن فساد الطبقة العاملة وبالمقابل فاننا ندمر والظفر معقود لنا اسس الفساد الرأسمالي .

لكن كاوتسكي يذهب الى ابعد من ذلك في تطوير اطروحته :انه يشكو من اننا نغلق صحف الاشتراكيين – الثوريين والمنشفيك ، بـل من اننا – وهذا يحدث – نعتقل زعماءهم . أفليس هؤلاء « جزءاً » من البروليتاريا او من الحركة الاشتراكية ؟ ان مربينا لايرى الوقائـع وراء هذه الكلمات المعتادة فالمنشفيك والاشتراكيون – الثوريون لايشكلون في نظره الا اتجاهات سياسية ، في حين انهم تحولوا اثناء الثورة الى منظمات وثيقة التحالف مع الثورة المضادة تشن علينا حرباً صريحة . لقد تشكل جيش كولتشاك من الاشتراكيين – الثوريين (لـكم يرن هذا الاسم اليوم رنيناً زائفاً اجوف !) ودعمه المنشفيك وفي الجبهة الشمالية ، يحارب كلا الطرفين ضدنا منذ عام ونصف . ان القادة المنشفيك في القوقاز ، الحلفاء السابقين لهوهنزولرن ، والحلفاء الحاليين للويد جورج ، يعتقلون ويعدمون البلاشفة بالاتفاق التام مع الضباط الانكليز والالمان . ولقد خلق المنشفيك والاشتراكيون – الثوريون في راد كوبان جيش دينيكين . وقـد ساهم المنشفيك الاستونيون ، الاعضاء في الحكومة ،مباشرة في هجوم يودينيتش الاخير ضد بترسبورغ .

انهم يمثلون اذن « اتجاهات » اشتراكية .. ان كاوتسـكي يعتقد انه من الممكن ان نكون في حالة حرب علنية مع المنشفيك والاشتراكيين .

الثوريين الذين يناضلون بمساعدة جيوش يودينيتش و كولتشاك ودينيكين المشكلة بفضل مساهمتهم ، وباسم « اختلافهم » الاشتراكي الجزئي عنا ، وان نمنح في الوقت نفسه لهذه « الاختلافات » البريئة ، في مؤخرة جبهتنا ، حرية الصحافة . ولو امكن للنزاع بين الاشتراكيين الثوريين والبلاشفة ان ينحل بالاقناع والتصويت ، اي لو لم يكن خلفهم الامبرياليون الروس والاجانب ، لما كانت هناك حرب اهلية .

ان كاوتسكي مستعد بالطبع لأن « يدين » (نقطة حبر اخرى) الحصار والمساعدة الممنوحة لدينيكين من قبل « التفاهم » ، والارهاب الابيض . لكنه لا يستطيع من اعلى تجرده ألا يجد لهذا الاخير ظروفاً مخففة . فالارهاب الابيض ، على سبيل المثال ، لا ينتهك مبادئه ، في حين ان البلاشفة ، بتطبيقهم الارهاب الاحمر ، ينتهكون احترام « الصفة المقدسة » للحياة الانسانية ، هذا الاحترام الذي طالبوا به هم انفسهم ... (ص ١٣٩) . ماذا يعني عملياً احترام الصفة المقدسة للحياة الانسانية وبم يتميز عن وصية : « لا تقتل » ؟ ان كاوتسكي يستنكف عن التفسير . عندما يرفع لص سكينه على طفل ، فهل يمكن قتل الاول لإنقاذ الثاني ؟ أليس هذا العمل انتهاكاً « للصفة المقدسة » للحياة الانسانية ؟ هل يمكن للانسان ان يقتل لصاً لينقذ نفسه ؟ هل من الممكن القبول بتمرد العبيد ضد سادتهم ؟ هل من الممكن القبول بأن يدفع انسان ثمن حريته موت جلاديه ؟ اذا كانت الحياة الانسانية مقدسة ولا يجوز انتهاكها بصورة عامة ، ينبغي اذن ان نمتنع عن اللجوء لا الى الارهاب والحرب فحسب ، بل الى الثورة ايضاً . ان كاوتسكي لا يدرك المعنى المضاد للثورة لـ « المبدأ » الذي يحاول فرضه علينا . وسوف نرى في مكان آخر انه يلومنا على عقد

صلح بريست – ليتفوسك . وقد كان علينا ، كما يرى ، ان نتابع الحرب . لكن الام تنتهي اذن « الصفة المقدسة » للحياة الانسانية ؟ هل ستكف الحياة عن ان تكون مقدسة بالنسبة الى افراد يتكلمون لغة اخرى ؟ ام ان كاوتسكي يعتبر ان الاغتيالات الجماعية، المنظمة حسب قواعد الاستراتيجية والتكتيك المعاصرين ، ليست باغتيالات ؟ في الحقيقة من الصعب ، في عصرنا هذا ، تأكيد مبدأ مراء وغبي معاً كهذا المبدأ . ومادامت اليد العاملة الانسانية وبالتالي الحياة سلعة للتجارة والاستغلال والتبذير ، فان مبدأ « الصفة المقدسة للحياة الانسانية » لايعدو ان يكون كذبة دنيئة هدفها الابقاء على العبيد تحت نير العبودية .

لقد ناضلنا ضد عقوبة الموت التي سنها كيرنسكي ، لأنها كانت تصدر عن محاكم الجيش القديم العرفية ضد الجنود الذين يرفضون متابعة الحرب الامبريالية . وقد انتزعنا هذا السلاح من مجالس الحرب القديمة . وهدمنا تلك المؤسسات ومرحنا الجيش القديم الذي خلقها . ونحن بتطهيرنا الجيش الاحمر وبصورة عامة سائر البلاد من المتآمرين المناوئين للثورة الذين كانوا يعملون على اعادة النظام القديم عن طريق العصيان والاغتيال واشاعة الفوضى ، انما نتصرف بصورة متلائمة مع قوانين الحرب الحديدية التي نريد عن طريقها ان نكفل لأنفسنا النصر .

واذا كان المرء يريد ان يبحث عن تناقضات شكلية ، فبديهي ان عليه ان يبحث عنها قبل كل شيء في جانب الارهاب الابيض الذي هو سلاح الطبقات التي تعتبر نفسها مسيحية وتحمي الفلسفة المثالية ، والمقتنعة كل الاقتناع بأن الشخصية (شخصيتها) هي الشخصية الانسانية ، « الغاية في ذاتها » . اما فيما يتعلق بنا ، فنحن لم نهتم قط بثرثرات الرعاة الكاوتسكيين

والكويكر النباتيين عن « الصفة المقدسة » للحياة الانسانية . لقد كنا دوماً ثوريين ، وما زلنا كذلك في السلطة . فكيما تعود الى الشخصية قدسيتها ، فلا بد من هدم النظام الاجتماعي الذي يسحقها . وهذه المهمة لايمكن ان تتحقق الا بالحديد والدم .

ثمة فرق آخر بين الارهاب الابيض والارهاب الاحمر . ان كاوتسكي الراهن يجهله ، لكنه ذو اهمية بالغة في نظر الماركسي . ان الارهاب الابيض سلاح طبقة رجعية تاريخياً . اننا لم ننكر قط ، ونحن نؤكد اهمية قمع الدولة البورجوازية للبروليتاريا ، ان الطبقات الحاكمة تستطيع ، عن طريق الاعتقالات والانتقام ، وفي بعض الشروط ، ان تؤخر مؤقتاً تطور الثورة الاجتماعية . لكنا كنا مقتنعين بأنها لن تنجح في ايقافه . ويقيننا نابع من ان البروليتاريا طبقة صاعدة تاريخياً ، وان المجتمع البورجوازي لايستطيع ان يتطور دون ان يزيد من قوى البروليتاريا . ان البورجوازية، في العصر الراهن، طبقة سائرة الى الانحطاط. فهي عدا انها لاتلعب الدور الاساسي في الانتاج ، تهدم الاقتصاد العالمي والثقافة الانسانية بوسائلها الامبريالية في التملك . غير ان الحيوية التاريخية للبورجوازية عنيدة . فهي تتشبث بالسلطة ولا تريد ان ترخي قبضتها عنها ومن هنا بالذات تهدد بأن تجر المجتمع كله في سقوطها . ونحن مرغمون على انتزاعه منها ، وعلى قطع يديها بالتالي ... ان الارهاب الاحمر هو السلاح المستخدم ضد طبقة محكوم عليها بالفناء ولا تستسلم . واذا كان الارهاب الابيض لايستطيع الا ان يؤخر صعود البروليتاريا التاريخي ، فان الارهاب الاحمر يعجل بسقوط البورجوازية . والعجلة – التي فيها ربح الوقت – لها اهميتها الحاسمة في بعض العصور . ولولا الارهاب الاحمر

لكانت البورجوازية الروسية ، بالتعاون مع البورجوازية العالمية ، قد خنقتنا قبل قيام الثورة في اوروبا بمدة طويلة . ولابد ان يكون الانسان اعمى حتى لايرى ذلك ، او مزيفاً حتى ينفيه . ان من يعترف بأهمية ثورية تاريخية لوجود السلطة السوفياتية بالذات ، عليه ايضاً ان يوافق على الارهاب الاحمر . وكاوتسكي بعد ان سوّد ، خلال العامين المنصرمين ، جبالاً من الورق ضد الشيوعية والارهاب ، مرغم على الاعتراف ، في نهاية كتيبه ، بأن السلطة السوفياتية الروسـية تمثل في الوقت الراهن العامل الرئيسي في الثورة العالمية . لقد كتب : « مهما كان الموقف الذي يتخذه المرء تجاه الطرائق البلشفية ، فان وصول حكومة بروليتارية الى السلطة في بلد كبير وحفاظها عليها منذ سنتين رغم المصاعب التي لا مثيل لها ، يقويان بشكل ملموس ، لدى بروليتاريي جميع البلدان ، الاحساس بقوتهم . ومن هنا بالذات ادى البلاشفة خدمة لا تقدر بثمن للثورة الواقعية » (ص١٥٣) ان هذا التصريح يفاجئنا مفاجأة عميقة ، كما يفاجأ الانسان بالاعتراف بحقيقة تاريخية في وقت كف فيه عن انتظاره . ان البلاشفة ، بوقوفهم في وجه العالم الرأسمالي المتحالف ، قد حققوا مأثرة تاريخية جديرة بالاعتبار انهم لم يحافظوا على السلطة بالفكرة وحدها ، بل بالسلاح ايضاً . ان اعتراف كاوتسكي هو موافقة غير ارادية على طرائق الارهاب الاحمر ، وادانة صارمة في الوقت نفسه لكتاباته النقدية .

تأثير الحرب

يرى كاوتسكي في الحرب ، من خلال تأثيرها المخيف على الاخلاق ، احد اسباب الطابع الدامي للنضال الثوري . وهذا امر لاجدال فيه .

لكن كان بالإمكان توقع هذا التأثير مسبقاً ، مع كل النتائج التي تنتج عنه في الزمن الذي لم يكن كاوتسكي يعرف فيه ان كان من الواجب ان يصوت مع الاعتمادات العسكرية او ضدها .

لقد كتبنا منذ خمسة اعوام في كتاب باللغــة الالمانية عن « الحرب والاممية » :

« لقد انتزعت الامبريالية بعنف المجتمع من توازنه اللامستقر . ودمرت السدود التي كانت الاشتراكية – الديموقراطية تكبح بهـا سيل طاقة البروليتاريا الثورية، ودفعت به في مجريها . انهذه التجربة التاريخية المدهشة التي حطمت بضربة واحدة صلب الاممية الاشتراكية ، تحمل في حضنها في الوقت نفسه خطراً قاتلًا بالنسبة الى المجتمع البورجوازي . لقد سحبت المطرقة من يدي العامل واستعيض عنها بالسيف . ولقـد انسلخ العامل ، المرتبط كلياً بدولاب الاقتصاد الرأسمالي، انسلخ فجأة عن وسطه وتعلم ان يضع اهداف المجتمع فوق الرفاهية الوادعة والحياة .

«ان العامل يجد نفسه ، وهو يمسك بيديه بالاسلحة التي صنعها بنفسه في وضع يصبح معه مصير الدولة السياسي معلقاً به مباشرة . ومن كانوا عادة يضطهدونه ويحتقرونه ،باتوا يتملقونه ويطلبون رضاه . وهو يتدرب في الوقت نفسه على ان يعرف معرفة وثيقة المدافع التي تشكل حسب رأي لارسال جزءاً هاماً لايتجزأ من الدستور . انه يتخطى حدودالدولة ويساهم في المصادرات العنيفة ، ويشاهد المدن تنتقل من يد الى يد تحت ضرباته . وبذلك تحدث تغيرات لم يشهدها الجيل قط

« واذا كان العمال المتقدمون يعرفون نظرياً ان القوة هــي ام

الحق ، الا ان طريقتهم السياسية في التفكير كانت تتركهم تحت تأثير روح التردد والتلاؤم مع الشرعية البورجوازية . وقد بدأت الآن الطبقة العاملة تتعلم كيف تحتقر فعلياً وتهدم بالعنف هذه الشرعية . ان المراحل السكونية من بسيكولوجيتها تفسح المكان للمراحل الديناميكية . ان المدافع الثقيلة تقدم للطبقة العاملة فكرة انه عندما يستحيل اللف حول العقبة فان الوسيلة الباقية هي تحطيمها . ان جميع البشر الراشدين تقريباً يمرون بمدرسة الواقعية الاجتماعية الرهيبة التي هي الحرب ، الخالقة لنموذج انساني جديد.

« ان قبضة الضرورة الحديدية تخيم اليوم فوق معايير المجتمع البورجوازي كافة بما فيها الحق والاخلاق والدين . وقد صرح المستشار الالماني : « ليس للضرورة شريعة » (٤ آب ١٩١٤) . والملاك يأتون الى الساحات العامة ليلقوا خطباً غوغائية ويتبادلوا تهمة الطمع . والحكومات تدوس بأقدامها الالتزامات التي اخذتها على عاتقها بأبهة . والكنيسة القومية تجر ، وكأنها محكوم بالاشغال الشاقة ، سيدها ــ الاله الى المدفع القومي .

« أليس واضحاً ان هذه الظروف ستؤدي الى اعمق التغييرات في الحياة النفسية للطبقة العاملة بعد ان شفتها بصورة نهائية من تخدير الشرعية التي هي نتيجة عصر سياسي آسن ؟ ان الطبقات المالكة ستقتنع بذلك مريعاً وبذعر كبير . وستشعر البروليتاريا التي مرت بمدرسة الحرب عند اول عقبة جدية ستعترضها داخل وطنها بالحاجة الملحة الى استعمال لغة القوة . « ليس للضرورة شريعة ! » : هذا ماستقذف به في وجه الذين سيحاولون ان يوقفوها باسم قوانين الشرعية البورجوازية والحاجة المرعبة التي سادت اثناء هذه الحرب ، وبخاصة في نهايتها ، ستدفع بالجماهير الى ان تدوس تحت

اقدامها الكثير ، الكثير من القوانين » (ص ٥٦-٥٧) .

هذا كله امر لايقبل نقاشاً لكن ينبغي ايضاً ان نضيف الى ماقيل ان الحرب مارست تأثيراً مماثلاً على بسيكولوجية الطبقات المالكة: فبقدر ما اصبحت الجماهير كثيرة المطالب ، اصبحت البورجوازية رافضة لكل تعامل .

ففي ايام السلم ، يضمن الرأسماليون مصالحهم بالسرقة « السلمية » من الاجراء . وفي زمن الحرب كفلوا هذه المصالح نفسها بابادتهم عدداً لايحصى من الحيوات الانسانية . وهذا ما اضاف الى روحهم المحبة للسيطرة سمة « نابوليونية » جديدة .

لقد اعتاد الرأسماليون ، اثناء الحرب ، على ارسال الملايين من الارقاء الوطنيين او المستعمرين الى الموت باسم الارباح التي يجنونها من المناجم وسكك الحديد الخ .

لقد خرج اثناء الحرب من قلب البورجوازية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة مئات الآلاف من الضباط والمحاربين المتهنين – وهم رجال غلظت طباعهم في الحرب وتحرروا من كل الروادع الخارجية . والمرتزقة الاختصاصيين ، المستعدين والقادرين على الدفاع بضراوة تقارب البطولة عن الوضع الممتاز للبورجوازية التي ربتهم .

لقد كانت الثورة ستكون على الارجح اكثر انسانية ، لو كانت لدى البروليتاريا امكانية شراء « كل هذه العصابة » ، كما كان يعبر ماركس عن ذلك في الماضي . لكن الرأسمالية قد حملت الشغيلة ، اثناء هذه الحرب ، حملاً ساحقاً من الديون : فقد دمرت الانتاج تدميراً شديداً يستحيل معه الكلام جدياً عن هذا الشراء الذي لو تم لقبلت البورجوازية بالثورة دونما

شغب كثير . لقد فقدت الجماهير الكثير من الدماء ،وقاست عذاباً مريراً واكتسبت صلابة لاتسمح لها باتخاذ مثل هذا القرار الذي تعجز بالاصل عن تحقيقه اقتصادياً .

وهناك ظروف اخرى اثرت في الاتجاه نفسه . ان بورجوازيات البلدان المقهورة ، التي اثارت الهزيمة حفيظتها ، مستعدة لإلقاء مسؤولية هذه الهزيمة على عامة الشعب ، على العمال والفلاحين الذين ما كانوا قادرين على خوض « الحرب الوطنية الكبرى » حتى النهاية . ومن وجهة النظر هذه ، فان التفسيرات الوقحة وقاحة لامثيل لها والتي قدمها لودندورف الى لجنة الجمعية الوطنية بالغة الدلالة . ان عصابات لودندورف تتأرم شوقاً الى غسل عار اذلالها الخارجي في دم بروليتاريا وطنها . اما بورجوازية البلدان المنتصرة التي كلها كبرياء ، فهي مستعدة اكثر من اي وقت مضى للدفاع عن وضعها الاجتماعي بالاعتماد على الوسائل الدنيئة التي كفلت لها النصر . لقد رأينا ان البورجوازية الدولية قد انكشف عجزها عن تنظيم قسمة الغنيمة بدون حروب ولا دمار . فهل تستطيع ، بصورة عامة ، ان تتخلى بدون معركة عن الغنيمة ؟ ان تجربة الاعوام الخمسة الاخيرة لاتترك اي مجال للشك في هذا الموضوع . واذا امكن للناس في الماضي، رغم تفاؤلهم الخالص ، ان يتوقعوا ان تجريد الطبقات المالكة من املاكها عن طريق « الديموقراطية » - لن يتم « بهدوء » بدون تمرد وبدون تحالفات مسلحة وبدون محاولات مناهضة للثورة وبدون قمع عديم الشفقة، فاننا مرغمون اليوم على الاعتراف بـــأن الموقف المغاير الذي خلفته لنا الحرب الامبريالية يضاعف مرتين وثلاثاً من الطابع العديم الشفقة للحرب الاهلية ودكتاتورية البروليتاريا .

-٥-

كومونة باريس وروسيا السوفييتات

« فترة قصيرة دامت الثورة الاولى الـــتي قامت بها البروليتاريا من اجل البروليتاريا وانتهت بانتصار اعدائها . دامت هذه الفترة (من ١٨ آذار الى ٢٨ ايار) ٧٢ يوماً »

(« كومونة باريس ، ١٨ آذار ١٨٧١ » . ب . ل . لافروف . بتروغراد . طبعة مكتبة « غولوس » . ١٩١٩ ص ١٦٠) .

احزاب الكومونة الاشتراكية لم تكن مستعدة

لقد كانت كومة باريس عام ١٨٧١ اول محاولة تاريخية — وان ضعيفة - لسيطرة الطبقة العاملة انا نبجل ذكرى الكومونة ، رغم تجربتها الضيقة والنقص في اعداد مناضليها وبلبلة برنامجها وغياب الوحدة بين قادتها وعدم تركيز مشاريعها والفوضى الكبيرة في التنفيذ والكارثة المخيفة التي تبعتها بالضرورة . اننا نحيي في الكومونة حسب تعبير لا فروف — فجر الجمهورية البروليتارية الاولى رغم شحوبه .

ان كاوتسكي لا يفهم الامور على هذا النحو . فهو بعد انخصص الجزء الاعظم من كتابه « الارهاب والشيوعية » لاقامة توازن مغرض الى حد مفضوح بين الكومونة والسلطة السوفياتية ، يرى مزاياالكومونة البارزة حيث نرى نحن شقاءها وعيوبها .

ينكب كاوتسكي بحمية على اثبات ان كومونة باريس لم تعد لها العدة « بشكل مصطنع » بل بزغت تلقائياً مفاجئة الثوريين بخلاف ثورة اوكتوبر - نوفمبر الروسية التي أعد لها العدة حزبنا بدقـة وعناية . ان كاوتسكي ، الذي لا يجرؤ على التعبير بوضوح عن افكاره الرجعيـــة ، لا يقول لنا بصراحة هـــل يستحق الثوريين الباريسيون عام ١٨٧١ الثناء لأنهم لم يتوقعوا التمرد البروليتاري ، ام اننا نستحق اللوم لأننـا توقعنا ما هو محتم وسبقنا الاحداث بوعي لكن كل تحليل كاوتسكي معروض بطريقة يخلف معها في عقل القاريء هذا الانطباع : لقد ألمت برجـــال الكومة الكارثة من حيث لا يدرون (ألم يعبر فولمار البافاري المحدود

التفكير ذات يوم عن أسفه لأن رجال الكومونـة لم يذهبوا الى النوم بدلاً من استلام السلطة ؟) ولهذا فانهم يستحقون كل حلمنا ، في حين أن البلاشفة استبقوا الكارثة بوعي (الاستيلاء على السلطة) ولهذا فلن يغفر لهم لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر . ان طرح المسألة على هذا النحو قد يبدو سخيفاً الى درجة لا تصدق . لكن هذا ينبع بالضرورة من موقف « الكاوتسكيين المستقلين » الذين يدخلون رؤوسهم بين اكتافهم حتى لا يروا شيئاً ولا يتوقعوا شيئاً ، والذين لا يستطيعون ان يخطوا خطوة الى الامام اذا لم يتلقوا مسبقاً وخزة لا بأس بها في ظهورهم . كتب كاوتسكي : « اذلال باريس ، والضن عليها بالاستقلال الذاتي ، وتجريدها من لقبها كعاصمة ، ونزع السلاح منها حتى يمكن فيما بعد القيام بانقلاب ملكي بسلام : هذا ما كانته المهمة الرئيسية للجمعية الوطنية ولتيير الذي انتخبته رئيساً للسلطة التنفيذية . ومن هذا الموقف ولد النزاع الذي ادى الى التمرد الباريسي » . — « اننا نرى الى أي حد يتميز عن هذا الشكل من الثورة ما قامت به البولشفية التي انهكت قوتها في طموحها الى السلام ، والتي كانت تقف وراءها طبقة الفلاحين ، والتي لم تكن تواجه في الجمعية الوطنية ملكيين بل اشتراكيين ثوريين ومنشفيك » .

« لقد توصل البلاشفة الى السلطة بثورة أحسن اعدادها فوضعت بين ايديهم ، دفعة واحدة ، كل الآلة الحكومية التي يستخدمونها في الساعة الراهنة بأقصى ما يمكنهم وبصورة عديمة الشفقة لاخضاع خصومهم ومن بينهم البروليتاريون » .

« وبالمقابل فان ما من احد فوجيء بتمرد الكومونة كما فوجيء

الثوريون أنفسهم ، ولقد كان هذا النزاع بالنسبة الى الكثيرين منهم أمراً غير مرغوب فيه بعد كل شيء » (ص ٤٤) .

وحتى نكون فكرة واضحة دقيقة عن المعنى الحقيقي لما يقوله كاوتسكي هنا بصدد رجال الكومونة ، فاننا سنسجل الشهادة المفيدة التالية : كتب لا فروف في كتابه الغني بالمعلومات عن الكومونة :

« في الأول من آذار ١٨٧١ - اي بعد ستة أشهر من سقوط الامبراطورية وقبل أيام من انفجار الكومونة ـ كانت الشخصيات القيادية في الاممية في باريس ما تزال بدون برنامج سياسي محدد [1] » .
ويكتب هذا المؤلف نفسه :

« بعد ١٨ آذار ، كانت باريس في ايدي البروليتاريا ، لكن زعماءها ، الذين احتاروا امام قوتهم غير المنتظرة ، لم يتخذوا حتى تدابير الأمن الاولية [2] » .

لقد صرح أحد اعضاء اللجنة المركزية للحرس القومي : « ان دوركم ليس على قدكم ، وهمكم الوحيد ان تتخلصوا من المسؤوليات ». وقد كتب ليساغاراي الذي ساهم في الكومونة وأرخ لها : « في هذا الكلام شيء كثير من الحقيقة ، لكن في لحظة العمل بالذات ينبع نقص التنظيم والاعداد المسبق في غالب الاحيان من أن الأدوار تقع على عاتق

---

(١) : « كومونة باريس في ١٨ آذار ١٨٧١ » - ب . ل لافروف - طبعة مكتبة غولوس - بتروغراد - ١٩١٩ - ص ٦٤ - ٦٥ .
(٢) : المصدر نفسه - ص ٧١ .

رجال ليسوا بمستوى ادائها [1] » .

وينتج مما سبق (وهذا ماسيتضح اكثر فيما بعد) ان عدم وجود برنامج للنضال المباشر من اجل السلطة السياسية لدى الاشتراكيين الباريسيين يتفسر بعدم نضجهم النظري وبلبلتهم السياسية ، لكنه لا يتفسر البتة باعتبارات تكتيكية ارفع مستوى .

ومما لاشك فيه ان اخلاص كاوتسكي نفسه لتقاليد الكومونة سيعبر عن نفسه بصورة خاصة في الاندهاش العميق الذي سيستقبل به الثورة البروليتارية في المانيا التي لم ير فيها الا نزاعاً « غير مرغوب فيه بعد كل شيء » . غير اننا نشك في أن الاجيال القادمة ستقدر موقفه هذا . بل علينا ان نقول ان ماهية مقارنته التاريخية بالذات ليست الا خليطاً من البلبلة والتحفظ .

ان النيات التي كان تيير يضمرها لباريس ، كان ميليوكوف مدعوماً من قبل تشيرنوف وتسيريتيلي ، يضمرها لبترسبورغ . كانوا يرددون يومياً جميعاً – من كورنيلوف الى بوتريسوف – ان بترسبورغ قد انعزلت بنفسها عن البلاد ، وانه لم تعد لها من علاقة مشتركة بها ، وانها تريد ، بعد ان انحطت الى الدرك الاسفل ، ان تفرض ارادتها على الأمة . إذلال بترسبورغ وافقادها حظوتها : هذا ما كانته المهمة الاولى لميليوكوف وطغمته . لقد كان هذا يحدث في الوقت الذي كانت فيه بترسبورغ المواطن الحقيقي للثورة التي لم تكن بعد قد نجحت في توطيد

---

(١) « تاريخ كومونة ١٨٧١ » - بالميساغاراي - بروكسل - ١٨٧٦-ص١٠٦

نفسها في سائر اجزاء البلاد . ولقد كان رودزيانكو ، الرئيس السابق للدوما ، يتحدث علنا عن تسليم بترسبورغ للألمان كما سبق وسلمت ريجا، وذلك لتلقينها درساً . وما كان رودزيانكو الا ليحدد بكلامه هذا ماهية مهمة ميليوكوف الذي كان كيرنسكي يدعمه بكل سياسته

لقد كان ميليوكوف يريد ، على مثال تيير ، ان يجرد البروليتاريا من سلاحها . لكن الأسوأ من ذلك أيضاً ان بترسبورغ كانت قد جردت تقريباً من سلاحها في تموز ١٩١٧ بفضل كيرنسكي وتشيرنوف وتسيريتيلي وقد استعادت هــذا السلاح يوم هجوم كورنيلوف على بترسبورغ في آب . ولقد كان تسليح البروليتاريا الجديد هذا عنصراً جدياً بالنسبة الى اعداد تمرد اكتوبر ــ نوفمبر ، بحيث ان تلك النقاط التي يستند عليها كاوتسكي ليعارض تمرد العمال الباريسيين في آذار بثورتنا في تشرين الاول والثاني ، تتطابق الى حد ما .

لكن ماوجه الاختلاف بينها ؟ انه يكمن ، قبل كل شيء ، في ان مشاريع تيير المشؤومة قد تحققت ، وفي ان باريس قد خنقت وعشرات الآلاف من العمال قد ذبحوا ، في حين ان ميليوكوف قد انهار انهياراً بائساً ، وبترسبورغ ظلت حصن البروليتاريا المنيع ، وزعماء البورجوازية الروسية قد ذهبوا الى اوكرانيا ليحرضوا على احتلال روسيا من قبل جيوش الامبراطور وهــذه بالطبع غلطتنا الى حد كبير ، ونحن مستعدون لتحمل مسؤوليتها . والفرق الاساسي يكمن ايضاً ــ وهـذا ما اتضح اكثر من مرة من خلال التطور اللاحق للأحداث ــ في ان رجال الكومونة كانوا يفضلون أن ينطلقوا من اعتبارات وطنية ، في حين اننا نتبنى باستمرار وجهة نظر الثورة الأممية . لقد ادت هزيمة الكومونة الى الانهيار الفعلي للأممية

الاولى في حين ان انتصار السلطة السوفياتيـة ، قد أدى الى تأسيس الأممية الثالثة .

لكن ماركس كان ينصح رجال الكومونة - عشية الثورة ـ بالتنظيم لابالتمرد ! ونستطيـع انـ نفهم ، عند الحاجة ، ان يستشهد كاوتسـكي بذلك ليثبت كم كان ماركس يسيء تقـدير تفاقم الموقف في باريس . لكن كاوتسكي يريد بأي ثمن ان يستغل نصيحة ماركس ليدلل على الاذى الذي يصيب الحركة من جراء التمرد بشكل عام . انـ كاوتسكي ، الشبيه بكل مثقفي الاشتراكيـة ـ الديموقراطية ، يرى في التنظيم وسيلة لاحراج العمل الثوري قبل كل شيء .

ومن المناسب الا ننسى ، حتى لو اقتصرنا على مسألة التنظـيم وحدها ، ان ثورة تشرين الثاني قد سبقتها تسعة شهور من وجود حكومة كيرنسكي ، تسعة شهور اهتم فيها حزبنا بنجاح بالتنظيم والتحريض . لقـد تمت ثورة تشرين الثاني بعد ان حققنا الغالبية الساحقة في سوفييتات العمال والجنود في بترسبرغ وموسكو وفي جميع المراكز الصناعية في مختلف ارجاء البلاد بشكل عام ، وبعد ان حولنا السوفييتات الى منظمات قوية يوجهها حزبنا . ولم يحدث شيء من هذا لدى رجال الكومونة . واخيراً كان وراءنا مثال كومونة باريس البطولية وانهيارها الذي استخلصنا منه الاستنتاج القائل ان على الثوريين ان يتوقعوا الاحداث وان يستعدوا لها . ومرة اخرى نقول : هذه هي عيوبنا .

كومونة باريس والارهاب

لايحتاج كاوتسكي الى توازن واسع النطاق بين الكومونـــة

والسلطة السوفياتية الا ليفتري على هذه الاخيرة ويسيء الى سمعة دكتاتورية البروليتاريا الحية المظفرة ، لمصلحة دكتاتورية ترجع الى ماض اصبح بعيداً اليوم .

ان كاوتسكي يستشهد بسرور بالغ بتصريح للجنة المركزية للحرس القومي بتاريخ ١٩ آذار بصدد اغتيال الجنود لاثنين من الجنرالات ، هما لوكونت وكليمان توما : « اننا نذكر ذلك باستنكار . انها لطخة دم يراد بها أن يلوث شرفنا . انه لافتراء حقير . فنحن لم نأمر بالجريمة قط . والحرس القومي لم يساهم البتة في اعداد الجريمة » .

اننا نفهم ألا يكون للجنة المركزية أي سبب لتأخذ على عاتقها مسؤولية اغتيال لم يكن لها من دخل فيه . لكن لهجة التصريح العاطفية الحزينة تدل بوضوح على خجل اولئك الرجال السياسي أمام الرأي العام البورجوازي . ترى أينبغي أن ندهش لذلك ؟ لقد كان معظم ممثلي الحرس القومي رجالاً قليلي التمرس بالعمل الثوري . كتب ليساغاراي : « لم يكن أحد منهم معروف الاسم . كانوا بورجوازيين صغاراً ، بقالين ، غريبين عن المنظمات ، متحفظين ، والقسم الأكبر منهم غريبـاً عن السياسة » (ص ٧) .

ويكتب لافروف بهذا الصدد : « يتضح من كل بلاغات تلك اللجنة المركزية التي كانت باريس قد سقطت بين ايديها ، انها كانت تشكو من شعور خفي ، خائف بعض الشيء ، من المسؤولية التاريخية الرهيبة ، ومن الرغبة في التحرر منها بأسرع وقت ممكن » (ص ٧٧) .

ان كاوتسكي بعد أن يستشهد بذلك التصريح عن اراقة الدماء

ليلحق بنا العار ، يقوم بدوره ، بعد ماركس وانجلز ، بانتقـــاد تردد الكومونة : « لو أن الباريسيين (أي رجال الكومونة) قد اندفعوا بلا كلل في مطاردة تيير ، فلربما كانوا نجحوا في الاستيلاء على الحكم . ومـا كانت القوات المنسحبة من باريس لتستطيع ان تعارضهم بأي مقاومـة مهما كانت ضئيلة ... لكن تيير استطاع أن يقاتل وهو يتقهقر بدون عقبات لقد سمحوا له بأن ينسحب مع جيشه ، وبأن يعيد تنظيمـه في فرساي ، وبأن يجدد معنوياته ويعززه » (ص ٤٩) .

ان كاوتسكي لايستطيـع أن يفهم أنهم الرجـــال أنفسهم الذين أصدروا تصريح ١٩ آذار ثم سمحوا لتيير ،للأسباب نفسها،بأن ينسحب دونما قتال ويعيد تنظيم جيشه . ولو أمكن لرجال الكومونة أن ينتصروا بمجرد تأثيرهم المعنوي ، لكان لتصريحهم أهمية بالغة . لكن ليس هذا ما حدث . والحق أن عاطفيتهم الانسانية لم تكن الا الوجه الثاني لسلبيتهم الثورية . ان رجالاً شاءت ارادة القدر أن تسقط حكومة باريس بـين أيديهم ، ولا يفهمون ضرورة الاستفـادة من ذلك فوراً وبصورة كاملة لينـدفعوا في اثر تيير ، وليسحقوه نهائياً دون أن يتيحوا له الفرصة لتالك نفسه من جديد ، وليضعوا يدهم على الجيش ، وليقوموا بتطهير لا مفر منه في صفوف القيادة ، وليحتلوا الريف والاقاليم ، ان رجـالاً كهؤلاء غير مؤهلين بالطبـع للضرب بيد من حديد على العناصر المناهضة للثورة . ثمة ارتباط وثيق بين الاحداث فقد كان يستحيل الاندفاع في اثر تيـير بدون اعتقال العملاء في باريس ، وبدون اعدام المتآمرين والجواسيس . ولقد كان من الصبيانية بمكان أن تريد اللجنة المركزية تنمية روح العزيمة بين القوات التي يتزعمها جنرالات مناوئون للثورة ، في الوقت الذى كانت

تعتبر فيه اغتيال جنرالين مناوئين للثورة جريمة نكراء .

ان العزيمة القوية تعادل ، في الثورة ، الانسانية السامية ولقد أصاب لافروف حين كتب : « انهم على وجه التحديد أولئك الرجال الذين يعلقون كبير القيمة على الحياة الانسانية والدم البشري ، انهم أنفسهم الذين يتوجب عليهم أن يستخدموا كل الوسائل لتحقيق نصر سريع وحاسم ، والذين يتوجب عليهم فيما بعد أن يعملوا بأقصى سرعة لاخضاع الاعداء اخضاعاً أبدياً . ذلك أنه عن هذا الطريق وحده يمكن الحصول على أدنى حد من الخسائر المحتمة وأدنى حد من الدم المسفوح » (ص ٢٢٥) .

بيد أن تصريح ١٩ آذار يمكن أن يقدر تقديراً أصح اذا فهم لا على أنه اعلان عن قانون مطلق ، بل على انه تعبير عن حالة معنوية عابرة غداة نصر غير منتظر تحقق بدون أي اراقة للدماء . ان كاوتسكي الغريب كلياً عن تفهم ديناميكية الثورة والحالة المعنوية التي تتبدل بسرعة نتيجة لشروط داخلية ، ان كاوتسكي هذا يفكر بواسطة صيغ ميتة ويشوه مدلول الاحداث عن طريق اقامة تشابهات تعسفية . انه لايفهم ان ذلك التردد الكريم هو بصورة عامة طبيعي بالنسبة الى الجماهير في مرحلة الثورة الاولى . ان العمال لا ينتقلون الى الهجوم الا تحت ضغط ضرورة حديدية ، كما انهم لم ينتقلوا الى الارهاب الاحمر الا تحت تهديد المجازر المناهضة للثورة . ان مايصوره كاوتسكي على انه نتيجة الاخلاق السامية للبروليتاريا الباريسية ، عام ١٨٧١ ، لايميز في الواقع الا المرحلة الاولى من الحرب الاهلية . ولقد لوحظت وقائع مماثلة عندنا ايضاً .

لقد استولينا على السلطة في بترسبورغ في تشرين الاول والثاني من عام ١٩١٧ دون اراقة دماء تقريباً بل بدون اعتقالات . ولقد اطلق سراح وزراء كيرنسكي بعد الثورة مباشرة . بل اكثر من ذلك ، فبعد ان انتقلت السلطة الى السوفييت ، اطلق سراح الجنرال القوقازي كراسنوف الذي هاجم بترسبورغ بالاتفاق مع كيرنسكي واعتقل في غاتشينا ، بناء على كلمة شرف منه ، غداة اعتقاله بالذات . انها « شهامة » تميزت بها ايام الكومونة الاولى ، لكن هذا لم يمنع انها كانت خطأ . فالجنرال كراسنوف بعد ان قاتل ضدنا في الجنوب طوال اكثر من عام ، وبعد ان ذبح عدة آلاف من الشيوعيين ، قد هاجم مؤخراً بترسبورغ مرة اخرى ، لكن في صفوف جيش يودينيتش هذه المرة . ان الثورة البروليتارية لم تزدد عنفاً الا بعد تمرد الجنكر في بترسبورغ وبخاصة بعد تمرد التشيكو سلوفاكيين في منطقة الفولغا - بتحريض من الكاديت والاشتراكيين - الثوريين والمنشفيك - مما ادى الى ذبح آلاف الشيوعيين ، وبعد محاولة اغتيال لينين ، واغتيال اوريتسكي ، الخ ، الخ .

ان هذه الاتجاهات نفسها نلاحظها أيضاً في تاريخ الكومونة ، لكن في مراحلها الاولى فقط .

لقد سارت الكومونة في البداية ، مدفوعة بمنطق النضال ، في طريق التهديدات . وان خلق « لجنة السلامة العامة » قد املته على الكثير من انصارها فكرة الارهاب الاحمر . فقد كان الهدف من خلق هذه اللجنة « قطع رؤوس الخونة » (الجريدة الرسمية رقم ١٢٣) و « وأد الخيانة » (الجريدة نفسها رقم ١٢٤) . ومن بين مراسيم « التهديد » يجب ان

نشير الى الامر الصادر في الثالث من نيسان بحجز اموال تيير ووزرائه ، وهدم منزله ، والاطاحة بعمود فاندوم ، وبخاصة مرسوم الرهائن . فمقابل كل أسير او نصير للكومونة تعدمه قوات فرساي ، ينبغي اعدام ثلاثة رهائن . ولقد كانت التدابير التي اتخذتها مديرية الشرطة التي كان على رأسها راؤول ريغو ، ذات طابع ارهابي خالص ، رغم انها لم تكن دوماً منسجمة مع الهدف المنشود . ولقداصاب الشلل واقع هذه التدابير نتيجة روح المصالحة الشوهاء لدى عناصر الكومونة القيادية ، ورغبتها في مصالحة البورجوازية بالعبارات الفارغة مع الامر الواقع ، وتذبذبها بين وهم الديموقراطية وواقع الدكتاتورية . ولقد عبر لافروف عن الفكرة الاخيرة هذه اجمل التعبير في كتابه عن الكومونة :

« لقد كانت باريس الاغنياء والبروليتاريين البائسين ، باريس المفارقات الاجتماعية ، تتطلب باعتبارها كومونة سياسية ، باسم المبادىء الليبيرالية ، حرية تامة في الكلام والاجتماع ونقد الحكومة الخ . ولقد كانت باريس التي انجزت الثورة لصالح البروليتاريا والتي اتخذت هدفاً لها تحقيق هذه الثورة في المؤسسات ، تتطلب باعتبارها كومونة للبروليتاريا العاملة المتحررة تدابير ثورية اي دكتاتورية تجاه اعداء النظام الجديد » (ص ١٤٣ - ١٤٤) .

ولو لم تسقط كومونة باريس ، ولو استطاعت ان تستمر من خلال نضال متواصل ، لما كان هناك شك في أنهـــا ستلجأ الى تدابير متزايدة الحزم لسحق الثورة المضادة . وصحيح ان كاوتسكي ما كان ليستطيع عندئذ ان يعارض رجال الكومونة الانسانيين بالشيوعيين اللاانسانيين . لكن تيير بالمقابل ما كان ليستطيع ان يقوم بمذبحته

الرهيبة لبروليتاريا باريس - وسيكون التاريخ قد صفى حسابه بعد كل شيء وهو رابح .

اللجنة المركزية التعسفية
والكومونة « الديموقراطية »

يروي كاوتسكي : « في ١٩ آذار ، في اللجنة المركزية للحرس القومي ، كان البعض يطالب بالزحف على فرساي ، والبعض الآخر يطالب بدعوة الناخبين ، والبعض الثالث يطالب باللجوء الى التدابير الثورية ، وكأن كل خطوة من هذه الخطوات (كما يبين لنا ذلك مؤلفنا بروح عميقة عظيمة) ليست ضرورية ايضاً وكأن بعضها يستبعد البعض الآخر » (ص ٥٤) .

وفي السطور التالية يقدم لنا كاوتسكي ، بصدد هذه الاختلافات في قلب الكومونة ، افكاراً مبتذلة حامية عن العلاقات المتبادلة بين الاصلاحات والثورة . والواقع ان المسألة كانت مطروحة على هذا النحو : اذا كان لابد من الهجوم على فرساي والقيام بذلك بدون اضاعة ثانية واحدة ، فمن الضروري اعادة تنظيم الحرس القومي فوراً ، وتسليم قيادته لاكثر العناصر نضالية من البروليتاريا الباريسية ، وهذا ما كان سيؤدي الى اضعاف مؤقت لباريس في وضعها الثوري . لكن تنظيم الانتخابات في باريس واخراج نخبة من الطبقة العاملة من قلبها ، كان امراً لامعنى له من وجهة نظر الحزب الثوري . يقيناً ان الزحف على فرساي والانتخابات في الكومونة لايتناقضان البتة نظرياً ، لكنهما كانا يتنافيان عملياً : فلنجاح الانتخابات كان لابد من ارجاء الزحف

على فرساي ، ولنجاح هـذا الزحف كان لابد من ارجاء الانتخابات . واخيراً ، فان البروليتاريا بقيامها بالحملة ، كانت ستضعف باريس مؤقتاً، وسيتوجب عند ذاك درء جميع امكانيات المفاجآت المناهضة للثورة في العاصمة ، ذلك ان تيير ما كان ليحجم امام اي شيء ليشعل خلف رجال الكومونة حريق الرجعية . كان لابد اذن من اقامة نظام اكثر عسكرية، اى اشد حزماً ، في العاصمة . كتب لافروف : « لقد كانوا مرغمين على القتال ضد عدد كبير من الاعداء الداخليين الذين كانوا يربلون في باريس والذين كانوا بالامس يتمردون في ضواحي البورصة وساحة فاندوم والذين كان لهم ممثلوهم في الحرس القومي ولهم صحـافتهم وجمعياتهم ، والذين كانوا يجرون الاتصالات في وضح النهار تقريباً مع قوات فرساي ، والذين كانوا يزدادون تصميماً وجرأة كلما بدرت عن الكومونة اي غفلة او فشل » (ص ٨٧) . ولقد كان من الضروري ايضاً في الوقت نفسه اتخاذ سلسلة من التدابير الاقتصادية والمالية لتلبية حاجات الجيش الثوري قبل كل شيء . ان كل هذه التدابير البالغة الضرورة للدكتاتورية ما كانت لتتفق الا بصعوبة مع حملة انتخابية واسعة النطاق . لكن كاوتسكي لا يملك اي تفهم لماهية الثورة في الواقع . انه يعتقد ان المصالحة نظرياً تعني التنفيذ عملياً .

كانت اللجنة المركزية قد حددت موعد الانتخابات في الكومونة في ٢٢ آذار ، لكنها لما كانت تفتقد الى الثقة بالنفس وخائفة من لاشرعيتها وتبذل جهدها في التصرف بالانسجام مع مؤسسة اكثر « شرعية » ، فقد باشرت المفاوضات ، مفاوضات عاجزة ولا متناهية ، مـع الجمعية المجردة من السلطة ومن عمد ونواب باريس ، المستعدة لتقاسم السلطة معها ، لا لشيء الا لمجرد الوصول الى اتفاق . وهكذا ضاع وقت ثمين .

ان ماركس الذي يحاول كاوتسكي ، حسب تقليد قديم، ان يعتمد عليه ، لم يقترح ، في اي حال من الاحوال ، انتخاب الكومونة وقذف العمال في الوقت نفسه في حملة عسكرية . لقد كتب ماركس ، في رسالته الى كوجلمان بتاريخ ١٢ نيسان ١٨٧١ ، ان اللجنة المركزية للحرس القومي قد تخلت عن سلطاتها قبل الاوان لتترك المجال حراً للكومونة . ان كاوتسكي حسب تعبيره بالذات « لايفهم » رأي ماركس هذا الا ان الامر بسيط . لقد كان ماركس يفهم على كل الاحوال ان المهمة ليست الركض وراء الشرعية ، بل تسديد ضربة قاتلة الى العدو . ولو كانت اللجنة المركزية مؤلفة من ثوريين حقيقيين ــ على حد قول لافروف الصائب ـ لكان عليها ان تتصرف بصورة مغايرة تماماً . فلقد ارتكبت خطيئة لا تغتفر عندما منحت اعداءها فرصة عشرة أيام قبل الانتخاب ودعوة الكومونة ، حتى يتمكنوا من استعادة قواهم في الوقت الذي كان فيه قادة البروليتاريا يتخلون عن مهمتهم ولا يعترفون لأنفسهم بالحق بتوجيه البروليتاريا مباشرة . ان النقص الشامل في اعداد الاحزاب الشعبية قد انتج لجنة اعتبرت تلـــك الأيام العشرة من اللاعمل أنها كانت الزامية .

ان مطامح اللجنة المركزية ، الراغبة في تسليم السلطة بأسرع وقت ممكن الى حكومة « شرعية » ، لم تكن تمليها عليهـــا خرافات ديموقراطية شكلية هي متوفرة اصلاً بل الخوف من المسؤوليات . ان اللجنة المركزية ، بحجة أنها مؤسسة مؤقتة ، رفضت أن تتخذ كـــثير التدابير ضرورة والحاحاً ، رغم أن كل جهاز السلطة كان مركزاً بين يديها . والحال ان الكومونة لم تستعد كامل السلطة السياسية من اللجنة المركزية التي تابعت ، بدون حرج كبير ، تدخلها في الشؤون كافة

وكان نتيجة ذلك ثنائية في السلطة بالغة الخطورة ، وبخاصة بالنسبة الى الوضع العسكري .

في ٣ أيار ، ارسلت اللجنة المركزية الى الكومونة مندوباً طالب اعادة استلام ادارة الوزارة الحربية . ومن جديد - كما يقول ليساغاراي - طرحت هذه المسألة : « هل من المناسب حل اللجنة المركزية أو اعتقالها ، أم ينبغي تسليمها ادارة الوزارة الحربية » .

وبصورة عامة ، ان المشكلة هنا ليست مشكلة مبادىء الديموقراطية بل حاجة الطرفين الى برنامج واضح للعمل والرغبة المشتركة ، سواء ألدى التنظيم الثوري المطلق المتجسد في اللجنة المركزية أم لدى تنظيم الكومونة « الديموقراطي » ، في القاء المسؤوليات على عاتق الطرف الآخر ، دونما تخل كامل عن السلطة . ان مثل هذه العلاقات السياسية غير جديرة بالتقليد .

يعزي كاوتسكي نفسه قائلاً :

« لكن اللجنة المركزية لم تحاول قط ان تمس المبدأ الذي ينص على ان السلطة العليا يجب ان تكون بيد المنتخبين عن طريق الانتخاب العام . وحول هذه النقطة بالذات ، تتعارض كومونة باريس تعارضاً واضحاً مع الجمهورية السوفياتية » (ص ٥٥) . ان وحدة الارادة الحكومية لم يكن لها من وجود ، وكذلك الجرأة الثورية ، بل وجدت ثنائية السلطة وكانت النتيجة انهياراً مريعاً ومخيفاً . وبالمقابل - أليس هذا عزاء كافياً ؟ - لم يمس « مبدأ » الديموقراطية قط .

الكومونة الديمقراطية والدكتاتورية الثورية

لقد سبق الرفيق لينين ان بين لكاوتسكي ان محاولة تصوير

الكومونة على انها ديموقراطية شكلية ليست الا شعوذة نظرية . لقـــد كانت الكومونة ، سواء أبتقاليـــد أم بنيات من كانوا يقودونها ــ البلانكيون ــ التعبير عن الدكتاتورية الثورية لمدينة على البلاد قاطبة. وهكذا كانت الحال في الثورة الفرنسية الكبرى . وهـــكذا كانت ستكون الحال في ثورة ١٨٧١ لو لم تسقط الكومونة بسرعة . ان كون السلطة في باريس بالذات قد انتخبت على أساس الاقتراع العـــام ، لا يستبعد الواقعة الاخرى الاكثر أهمية ألا هي العمل العسكري للكومونة ، لمدينة ، ضد فرنسا الفلاحية ، اي ضد الامة قاطبة . ولقد كان لابد ، كي يكون الديموقراطي الكبـــير كاوتسكي واضياً عن حق ، ان يستشير ثوريو الكومونة مسبقاً ، عن طريق الانتخـاب العام ، كل سكان فرنسا ليعرفوا هل من الواجب ام لا ان يحاربوا عصابات تيير .

وأخـيراً ، في باريس بالذات ، تمت الانتخابات بعـــد هرب البورجوازية المؤيدة لتيير ، او على الاقل هرب اكثر عناصرها نشاطاً ، وبعد جلاء الجيوش النظامية . والبورجوازية التي بقيت في باريس ، رغم كل وقاحتها ، كانت تخشى المعارك الثورية ، وانما في جو الخوف هـذا ــ خوف ناتج عن الاحساس المسبق بحتمية الإرهاب الأحمر في المستقبل ــ تمت الانتخابات . اما ان يتعزى الانسان بأن اللجنة المركزية للحرس القومي التي تمت الانتخابات للكومونة في ظل دكتاتوريتها ــ وقد كانت مع الاسف دكتاتورية رخوة شوهاء ــ لم تمس مبـدأ الانتخاب العام ، فهذا لايعني في الواقع إلا تسديد ضربات السيف الى الماء .

ان كاوتسكي يستفيد ، وهو يضاعف من المقارنات العقيمة ، من جهل قرائه . ففي بتروسبرغ ، في تشرين الثاني ١٩١٧ ، انتخبنا نحن ايضاً

كومونة (الدوما البلدية) على اساس الانتخاب «الديموقراطي» نفسه دونما تضييقات بالنسبة الى البورجوازية. ولقد اعطتنا هذه الانتخابات، بعد مقاطعة الاحزاب البورجوازية، غالبية ساحقة [1]. ولقد خضعت الدوما، التي انتخبت انتخاباً ديموقراطياً، لسوفييت بترسبورغ بملء ارادتها، أي وضعت دكتاتورية البروليتاريا فوق «مبدأ» الانتخاب العام. وقد حلت نفسها فيما بعد من تلقاء ذاتها لصالح احدى شعب السوفييت البترسبورغي. وبهذا يكون سوفييت بترسبورغ - هذا الاب الحقيقي للسلطة السوفياتية - قد أحاطت به النعمة الالهية، هالة ديموقراطية شكلية تفوق بمرات هالة كومونة باريس.

لقد انتخب ٩٠ عضواً في الكومونة، في انتخابات ٢٦ آذار. وكان من بينهم ١٥ عضواً من الحزب الحكومي (تيير) و ٦ من الراديكاليين البورجوازيين الذين كانوا خصوم الحكومة في الوقت نفسه الذين كانوا يدينون فيه تمرد العمال البورجوازيين.

يقول لنا كاوتسكي: «ماكانت الجمهورية السوفياتية لتقبل قط

---

(٤) : ان من المفيد ان نلاحظ ان ٢٣٠٠٠٠ ناخب في باريس اشتركوا في الانتخابات البلدية عام ١٨٧١. اما في الانتخابات البلدية في تشرين الثاني ١٩١٧ في بترسبورغ، فقد اشترك فيها ٤٠٠٠٠٠ ناخب، رغم مقاطعة الانتخابات من قبل جميع الاحزاب باستثناء حزبنا وحزب الاشتراكيين الثوريين الذين لم يكن لهم اي نفوذ تقريبا في العاصمة ولقد كانت باريس في عام ١٨٧١ تعد ٢٠٠٠٠٠٠ ساكن. وكانت بترسبورغ تعد في عام ١٩١٧ ٢٠٠٠٠٠٠ ساكن ايضاً. ولا بد أن نأخذ بعين الاعتبار ان نظامنا الانتخابي كان اكثر ديموقراطية بما لا يقاس، باعتبار ان اللجنة المركزية للحرس القومي قد اجرت الانتخابات على اساس القانون الانتخابي الامبراطوري.

يمثل هذه العناصر المناهضة للثورة، ولو كمرشحين وكم بالأحرى كمنتخبين. أما الكومونة فلم تضع أي عقبة في وجه انتخاب خصومها، بدافع من احترامها للديموقراطية» (ص ٥٥ - ٥٦). ولقد رأينا آنفاً ان كاوتسكي يشن هجومه من جميع الجهات. ونحن نقول اولاً انه في المرحلة المماثلة من تطور الثورة الروسية جرت انتخابات ديموقراطية في كومونة بترسبورغ، انتخابات تركت فيها السلطة السوفياتية كل الحرية للأحزاب، واذا كان الكاديت والاشتراكيون ــ الثوريون والمنشفيك الذين كانت لهم صحافتهم والذين كانوا يدعون الى المكان علناً الى الاطاحة بالسلطة السوفياتية، قد قاطعوا الانتخابات، فهذا فقط لانهم كانوا يأملون آنذاك أن يتخلصوا منا بسرعة بقوة السلاح ثانياً، لم تكن هناك في كومونة باريس ديموقراطية تجمع كل الطبقات. اذ لم يكن فيها من مكان للنواب البورجوازيين ــ المحافظين والليبيراليين وأنصارغامبيتا.

كتب لافروف: «جميع هؤلاء الاشخاص تقريباً قد خرجوا من مجالس الكومونة اما حالاً واما بسرعة كبيرة. يقيناً لقد كان بإمكانهم ان يكونوا ممثلي باريس ــ المدينة الحرة تحت ادارة البورجوازية ــ لكن مكانهم لم يكن البتة في الكومونة التي كانت، شاءت أم أبت، عن وعي أو لا وعي، بصورة كاملة أوناقصة، تجسيداً لثورة البروليتاريا ومحاولة، وان ضعيفة، لخلق اشكال مجتمع منسجم مع هذه الثورة» (ص ١١١ - ١١٢)، ولولم تقاطع البورجوازيةالبترسبورغية الانتخابات البلدية، لكان ممثلوها قد دخلوا الى دوما بترسبورغ، ولكانوا بقوا فيها حتى التمرد الاول للاشتراكيين الثوريين والكاديت، ذلك التمرد الذي كانوا على الارجح سيعتقلون بعده ــ رضي كاوتسكي أم

سخط – لو لم يتركوا الدوما في الوقت المناسب كما فعل ذلك في حينه الاعضاء البورجوازيون في كومونة باريس . ولقد كان مجرى الامور سيظل كما هو باستثناء ان بعض مراحله كانت ستتم بصورة مغايرة .

ان كاوتسكي ، الذي يمجد ديموقراطية الكومونة ويتهمها في الوقت نفسه بأن الشجاعة قد خانتها تجاه انصار فرساي ، لايفهم ان الانتخابات البلدية التي تمت بمساهمة العمد والنواب « الشرعيين » المزدوجة المعنى ، كانت تعكس الامل بعقد اتفاقية سلمية مع فرساي . وانما هنا يكمن لب المسألة . لقد كان القادة يريدون تفاهماً لاصراعاً ولم تكن الجماهير قد استهلكت بعد اوهامها ، ولم تكن السلطات الثورية المزعومة قد اتيح لها وقت الانهيار بشكل يدعو الى الرثاء . وكان هذا كله يدعى « الديموقراطية » .

لقد تنبأ فيرموريل : « علينا ان نسيطر على اعدائنا بالقوة المعنوية . علينا ألا نمس حرية الفرد وحياته ... » . لقد كان فيرموريل ، الطامح الى اتقاء « الحرب الاهلية » ، يدعو البورجوازية الليبيرالية ، التي كان يدينها في الماضي بلا شفقة ، الى تشكيل « سلطة نظامية ، معترف بها ومحترمة من قبل جميع السكان الباريسيين » . ولقد كتبت « الجريدة الرسمية » التي كانت تصدر بادارة الاممي لونغيه : « ان سوء التفاهم المأسوف له الذي ادى في ايام حزيران (١٨٤٨) الى تسلح طبقتين اجتماعيتين الواحدة ضد الاخرى ، لايمكن ان يحدث بعد اليوم من جديد . ان تناحر الطبقات قد كف عن الوجود » (٣٠ آذار) ، وفيما بعد : « ان كل اختلاف قد اختفي من الآن فصاعداً ، لانه لم يكن هناك إلا القليل من الحقد والتناحر الاجتماعيين » (٣ نيسان) وفي جلسة

الكومونة في ٢٥ نيسان وقف جورن ، لسبب معين ، ليتباهي بأن « الكومونة لم تمس الملكية قط » . انما بهذه الصورة كان يتخيل انه سيكسب الرأي العام في الاوساط البورجوازية ويتوصل الى اتفاق .

يقول لا فروف بصواب كبير : « ان هذه التطمينات لم تجرد البتة من السلاح اعداء البروليتاريا الذين كانوا يفهمون تماماً أي تهديد يكمن لهم في حال انتصارها . وبالمقابل ، فانها قد جردت البروليتاريا من كل طاقة نضالية ، وجعلتها تعمى ، عن قصد تقريباً ، عن وجود الاعداء الذين لا يمكن لشيء ان يفت في عزائمهم » (ص ٣٧١) . لكن هذه التطمينات الرخوة كانت مرتبطة أوثق الارتباط بوهم الديموقراطية . ولقد كان شكل الشرعية المزعومة يدفع الى الاعتقاد بأن المسألة يمكن ان تنحل بدون صراع . كتب احد أعضاء الكومونة آرثر آرنو : « أما جماهير السكان ، فقد كانت تؤمن ، ليس بدون سبب ، بوجود تفاهم ضمني مع الحكومة » . ان دعاة المصالحة ، العاجزين عن كسب البورجوازية ، قادوا البروليتاريا ، كما هي الحال دوماً ، الى مهاوي الضلال .

اما ان البرلمانية لاتعبر ، في شروط الحرب الاهلية المحتمة التي كانت قد بدأت فعلا ، إلا عن العجز التوفيقي للفئات القيادية ، فهذا ماتدل عليه اوضح الدلالة الطريقة غير المعقولة التي تمت بها انتخابات الكومونة التكميلية (١٦ نيسان) . كتب آرثر آرنو : « لم نكن ندري ماذا نفعل بالانتخاب » آنذاك . كان الموقف قد اصبح مأساوياً حتى انه لم تعد هناك لا الفرصة ولا برودة الدم الضروريتان لتأتي الانتخابات العامة بثمارها .

« كان جميع الرجال المخلصين للكومونة موجودين في التحصينات والقلاع والمراكز المتقدمة ولم يكن الشعب يعلق اي أهمية على هذه الانتخابات التكميلية . ولم تكن المسألة في الواقع الا مسألة برلمانية . ولم تكن الساعة ساعة حساب الانتخابات ، بل ساعة تجميع الجنود . لم تكن ساعة معرفة هل ارتفعت أسهمنا أو انخفضت لدى الرأي العام في باريس ، بل ساعة الدفاع عن هذه الاخيرة ضد قوات فرساي » . لقد كان من الممكن لهذه الكلمات ان تفهم كاوتسكي ماوجه الصعوبة في التوفيق بين واقع الحرب الطبقية وبين ديموقراطية تجمع الطبقات كافة .

كتب ميلبير ، أحد كبار أدمغة الكومونة : « ليست الكومونة جمعية تأسيسية ، بل هي مجلس حربي . وينبغي الا يكون لها إلا هدف واحد : النصر . وإلا سلاح واحد : القوة . وإلا قانون واحد : قانون السلامة العامة » .

يهتف ليساغاراي متهماً القادة : « لم يستطيعوا قط ان يفهموا ان الكومونة متراس وليست بادارة » . ولم يبدؤوا بفهم ذلك الاحين فات الاوان . وكاوتسكي لم يفهم ذلك بعد ولاشيء يدل على انه سيفهم ذلك في يوم من الايام .

لقد كانت الكومونة النفي الحي للديموقراطية الشكلية ، ذلك انها رسخت ، اثناء تطورها ، دكتاتورية باريس العمالية على الامة الفلاحية . ان هذه الواقعة تسيطر على الوقائع الاخرى كافة . ومهما كانت جهود السياسيين الروتينيين في حضن الكومونة بالذات للتشبث بظاهر الشرعية الديموقراطية ، فان كل عمل من أعمال الكومونة ، غير الكافي من أجل

النصر ، كان كافياً لتثبيت طبيعتها غير الشرعية .

لقد عدلت الكومونة ، اي البلدية الباريسية ، قانون الخدمة العسكرية . وسمت جريدتهـا الرسمية : « الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية » . كما انها مست مصرف فرنسا ولو مساً خجلا . واعلنت انفصال الكنيسة والدولة وألغت ميزانية العبادات . ودخلت في اتصالات مع السفارات الاجنبية ، الخ ، الخ . ولقد فعلت هذا كله باسم الدكتاتورية الثورية . لكن الديموقراطي كليمانصو ، الذي كان مايزال بعد يافعاً آنذاك لم يشأ ان يعترف لها بهذا الحق .

فقد صرح كليمانصو في الجمعية مع اللجنة المركزية : « ان للتمرد دافعاً غير شرعي . وعما قريب ستصبح اللجنة مدعاة للهزء ومراسيمها مدعاة للاحتقار . ثم ان باريس ليس لها الحق في التمرد على فرنسا وعليها ان تقبل شكلياً بسلطة الجمعية » .

لقد كانت مهمة الكومونة حل الجمعية الوطنية . وان كاوتسكي يبحث الآن لهذه المآرب المجرمة عن ظروف مخففة .

انه يحتج بأن رجال الكومونة كانوا يواجهون في الجمعية الوطنية خصوماً ملكيين في حين اننا كنا نواجه في الجمعية التأسيسية ... اشتراكيين ـ ثوريين ومنشفيك . هذا مايمكننا ان نسميه افولاً فكرياً كاملاً ! ان كاوتسكي يتكلم عن المنشفيك والاشتراكيين ـ الثوريين ، لكنه ينسى العدو الوحيد الجدي : الكاديت . فقد كانوا يشكلون على وجه التحديد الحزب « الفرساوي » الروسي ، اي كتلة الملاك باسم الملكية ، وكان الاستاذ ميليوكوف يبذل جهده ليظهر بمظهر الشخصية العظيمة . لقد سعى

ميليوكوف مبكراً – قبل ثورة اوكتوبر بمدة طويلة – وراء شخصية غاليفه [1]، معتقداً انه وجدها بالتناوب في شخص الجنرالات كورنيلوف والكسييف وكاليدين وكراسنوف . وبعد ان ارغم كولتشاك الاحزاب السياسية على التراجع وحل الجمعية التأسيسية ، لم يكتف حزب الكاديت، الحزب البورجوازي الوحيد الجدي ذو النزعة الملكية ، بأن أيده ، بل احاطه ايضاً بمودة متعاظمة باستمرار .

ان المنشفيك والاشتراكيين الثوريين لم يلعبوا عندنا أي دور مستقل ، كما هو شأن حزب كاوتسكي في أحداث المانيا الثورية . لقد بنوا سياستهم كلها على التحالف مع الكاديت ، فضمنوا لهم بذلك هيمنة لا تتناسب وعلاقات القوى السياسية . إن حزبي الاشتراكيين – الثوريين والمنشفيك لم يكونا إلا اداة اتصال الغرض منها كسب الثقة السياسية للجماهير الثورية المستيقظة ، عن طريق المهرجانات الخطابية والانتخابية ، ليستفيد منها حزب الكاديت الامبريالي المناهض للثورة – وبغض النظر اصلاً عن نتيجة الانتخابات . إن تبعية الغالبية المنشفيكية والاشتراكية – الثورية للأقلية الكاديت لم تكن غير هزء شبه علني بالديموقراطية . لكن ليس هذا كل شيء . ففي كل جزء من البلاد يدوم فيه النظام « الديموقراطي » طويلاً ، ينتهي الامر حتماً بانقلاب مناهض للثورة . وهذا ماحدث في اوكرانيا التي وجدت فيها الرادا الديموقراطية التي باعت السلطة السوفياتية للامبريالية الالمانية، وجدت نفسها ملقياً بها في أحضان ملكية سكوروبادسكي . وهذا ماحدث ايضاً في كوبان حيث اختفت الرادا الديموقراطية تحت

---

(1) : الجنرال غاليفه : جنرال فرنسي ولد في باريس (١٨٣٠ – ١٩٠٩) . وقد اشتهر في معركة سيدان . واصبح وزيراً للحربية عام ١٨٩٩ . «المترجم».

أقدام دينيكين. وهذا ما حدث ايضاً ـ وهذه أهم تجربة لـ «ديموقراطيتنا» ـ في سيبيريا حيث أدت الجمعية التأسيسية المحكومة رسمياً من الاشتراكيين ـ الثوريين والمنشفيك. نظراً لغياب البلاشفة ـ والمحكومة واقعياً من الكاديت، الى دكتاتورية الاميرال القيصري كولتشاك وهذا ما حدث ايضاً في الشمال حيث لم يكن أعضاء الجمعية التأسيسية المتجسدون في حكومة الاشتراكي ـ الثوري تشايكوفسكي إلا دمى يعمل من ورائها الجنرالات الروسيون والانكليز المناوئون للثورة وفي جميع الحكومات الصغيرة المتاخمة للحدود حدثت الامور أو تحدث هكذا: في فنلندا، واستونيا، ولتوانيا، وليتونيا، وبولونيا، وجيورجيا، وأرمينيا، حيث توطد نظام الملاك والرأسماليين والعسكرية الاجنبية تحت راية الديموقراطية الشكلية.

العامل الباريسي عام ١٨٧١

والبروليتاري البترسبورغي عام ١٩١٧

ان واحداً من أغلظ التوازيات التي أقامها تروتسكي بين الكومونة وروسيا السوفياتية، توازياً لا يبرره شيء وهو بمثابة عار من وجهة النظر السياسية، هو التوازي المتعلق بصفة العامل الباريسي عام ١٨٧١ والبروليتاري الروسي بين عامي ١٩١٧ ـ ١٩١٩. ان كاوتسكي يصور لنا الاول على انه ثوري متحمس، قادر على أعظم نكران الذات، في حين انه يصورلنا الثاني انانياً، استغلالياً، فوضوياً أهوج.

ان العامل الباريسي يقف وراءه ماض محدد الى حد لا يحتاج معه الى التوصيات الثورية أو الى الدفاع عن نفسه من تقاريظ كاوتسكي الحالي.

الا ان بروليتاريا بترسبورغ ليست لها دوافع ولا تستطيع ان تستنكف عن مقارنة نفسها باختها الكبرى. ان السنوات الثلاث من النضال المتواصل الذي خاضه العمال البترسبورغيون من أجل الاستيلاء على السلطة اولاً، ومن أجل الحفاظ عليها وتوطيدها ثانياً وسط آلام لم يعرفها البشر قط، ورغم الجوع والبرد والاخطار المستمرة، تشكل حدثاً استثنائياً في سجلات تاريخ بطولة الجماهير ونكرانها للذات. ان كاوتسكي، كما سنبين ذلك فيما بعد، يأخذ اكثر عناصر البروليتاريا الروسية غموضاً ليقارنها بنخبة رجال الكومونة. انه لايتميز بشيء في هذه النقطة عن الوشاة البورجوازيين الذين يشعرون بمودة نحو أموات الكومونة أكبر بما لايقاس من مودتهم نحو احيائها. لقد استولت البروليتاريا البترسبورغية على السلطة بعد خمسة واربعين عاماً من البروليتاريا الباريسية. ان هذه الحقبة الفاصلة قد منحتنا تفوقاً كبيراً. ان الطابع البورجوازي الصغير والحرفي لباريس القديمة، والجديدة جزئياً، غريب تماماً عن بترسبورغ التي هي اكثف مركز للصناعة في العالم. ان هذا الظرف الاخير قد سهل علينا كثيراً مهام التحريض والتنظيم وتوطيد النظام السوفياتي. ان بروليتاريتنا بعيدة عن امتلاك التقاليد الغنية للبروليتاريا الفرنسية. لكن التجربة الكبيرة الناتجة عن فشل ١٩٠٥، كانت ماتزال حية بالمقابل، في بداية الثورة الراهنة، في ذاكرة الجيل الاكبر سناً الذي لم ينس واجب الانتقام الذي ترك له. ان العمال الروس لم يمروا، كالعمال الفرنسيين، بمدرسة الديموقراطية والبرلمانية الطويلة الأمد، المدرسة التي كانت في بعض الفترات عاملاً هاماً في ثقافة البروليتاريا السياسية. لكن مرارة الخيبة وسم الريبية اللذين يقيدان الارادة الثورية للبروليتاريا الفرنسية الى ساعة نرجو ان تكون قريبة، لم يتح لهما الوقت بالمقابل ليخيما على روح الطبقة العاملة الروسية.

لقد تعرضت كومونة باريس الى هزيمة عسكرية قبل ان تنتصب أمامها المسائل الاقتصادية بكل ارتفاعها . وبالرغم من الصفات الحربية العظيمة للعمال الباريسيين ، فقد أصبح موقف الكومونة العسكري ميئوساً منه في وقت مبكر ، اذ ان تردد الدوائر العليا وروح المصالحة الكامنة فيها سببا تفسخ الفئات الدنيا .

ان رصيد الحرس القومي كان ١٦٢٠٠٠ جندي عادي و ٦٥٠٠ ضابط ، لكن عدد الذين كانوا يذهبون فعلاً الى القتال ، وبخاصة بعد هجوم ٣ نيسان غير المثمر ، كان يتراوح بين عشرين وثلاثين ألفاً .

ان هذه الوقائع لا تسيء البتة الى سمعة العمال الباريسيين ولا تعطي لأحد الحق في ان ينفي بسالتهم أو ينعتهم بالهرب من المعركة ، رغم انه حدثت بعض حالات الهرب في صفوفهم . فالطاقة الحربية لجيش من الجيوش تستمد قبل كل شيء من جهاز قيادة نظامي ومركزي . والحال ان رجال الكومونة ما كانت لهم عن ذلك حتى الفكرة .

لقد كانت وزارة حرب الكومونة تقيم ، حسب تعبير أحد المؤلفين ، في غرفة مظلمة يتزاحم فيها جميع الناس بالمناكب . وكان مكتب الوزير يغص بالضباط والحرس القوميين الذين كانوا يطالبون إما بامدادات عسكرية وإما بمؤن ، أو يشكون من عدم استبدالهم . وكانوا يرسلون الى القيادة المحلية . « كانت بعض الكتائب تبقي في الخنادق من ٢٠ الى ٣٠ يوماً ، بينما كانت الكتائب الاخرى في حالة احتياط دوماً . ولقد قتل عدم الاهتمام كل انضباط بسرعة . وبات الاكثر شجاعة لا يريد ان يتعلق مصيره إلا بنفسه . أما الآخرون فراحوا يهربون . وكان الضباط يتصرفون

على النحو نفسه . كان البعض يتخلى عن مواقعه ليسعف جاراً تنهمر عليه نيران العدو ، والبعض الآخر يرحل الى المدينة ... » (كومونة باريس عام ١٨٧١ » – ب . لافروف – ١٩١٩ – ص ١٠٠) .

ان مثل هذا النظام ما كان يستطيع ان يظل بمنجي من العقاب. ولقد اغرقت الكومونة في الدم . لكننا نجدبهذا الصدد عزاءاً فريداً من نوعه لدى كاوتسكي ، فهو يقول هازاً رأسه : « ان تسيير الحرب ليس بصورة عامة الجانب القوي في البرولیتاریا » (ص ٧٦) .

ان هذه الحكمة الجديرة ببانغلوس [1] لهي بسمو حكمة أخرى لكاوتسكي تقول ان الاممية ليست سلاحاً لزمن الحرب،بل هي بطبيعتها « اداة سلام » .

ان كاوتسكي الحالي يتلخص في الحقيقة قاطبة في هاتين الحكمتين. وقيمته لاتكاد تتجاوز الصفر المطلق . « ان تسيير الحرب » ، كما ترون ، ليس الجانب القوي في البرولیتاریا . كما ان الاممية لم تخلق لأيام الحرب ». ان مركب كاوتسكي قد بني للمسافر فوق مياه المستنقعات الهادئة ، لا لمواجهة البحر الخضم واختراق العواصف . واذا كان قد بدأ الآن يتبلل ويأخذ بالغرق ، فاللوم في ذلك حتمـــاً على العاصفة والعناصر وضخامة الامواج وسلسلة كاملة من ظروف أخرى غير متوقعة لم يخلق كاوتسكي اداته العظيمة لها .

---

(١) : الدكتور بانغلوس : احدى شخصيات « كانديد » رواية فولتير . كان مربي كانديد ، وكان متفائل الفلسفة ، ويرى ان كل شيء عــلى مايرام حتى في أسوأ الكوارث . « المترجم » .

لقد أخذت البروليتاريا العالمية على عاتقها مهمة الاستيلاء على السلطة .
أما ان الحرب الاهلية « بصورة عامة » صفة لازمة للثورة « بصورة عامة » أو هي ليست كذلك ، فهذا لايغير البتة من كون حركة البروليتاريا المتقدمة في روسيا والمانيا وبعض اجزاء امبراطورية النمسا – المجر القديمة قد اتخذت شكل حرب أهلية ضارية ، وليس هذا على الجبهات الداخلية فحسب ، بل على الجبهات الخارجية ايضاً . واذا لم يكن تسيير الحرب الجانب القوي في البروليتاريا ، واذا لم تكن الاممية العمالية صالحة إلا للعصور السلمية ، فعلينا ان نرسم اشارة الصليب على الثورة والاشتراكية ، باعتبار ان تسيير الحرب هو احد الجوانب القوية بما فيه الكفاية لدى الحكومة الرأسمالية التي لن تسمح حتماً للعامل بالوصول الى السلطة بدون حرب . ولا يبقى علينا الا ان نعتبر مايسمى بـ « الديموقراطية الاشتراكية » من طفيليات المجتمع الرأسمالي والبرلمانية البورجوازية ، أي ان نوافق علناً على مايفعله في السياسة أمثال ايبرت وشايدمان ورونوديل ، وعلى مايبدو وأن كاوتسكي مازال يعارضه بعد .

ان تسيير الحرب لم يكن الجانب القوي في الكومونة . ولهذا السبب سحقت . وبأي قسوة سحقت !

كتب في حينه فيو المؤرخ الليبيرالي ، الليبيرالي المعتدل بالاحرى : « يجب ان نرجع الى مجازر سيلا وانطوان واوكتاف ، لنجد مثل هذه الاغتيالات في تاريخ الامم المتمدنة . إن الحروب الدينية في ظل أواخر الفالبين وليلة سان برتلمي وعصر الارهاب ، ليست بالمقارنة الالعب اطفال . ففي الاسبوع الاخير وحده من أيار ، رفعت من باريس ١٧٠٠٠ جثة من

جثث الاتحاديين المتمردين ... ولقد استمر التقتيل حتى ١٥ حزيران » .
« ... تسيير الحرب بصورة عامــة ليس الجانب القوي في البروليتاريا ... » .

لكن هذا غير صحيح ! فقد أثبت العمال الروس انهم قـادرون على ان يصبحوا ايضاً سادة « آلة الحرب » . واننا لنرى ههنا تقدماً ضخماً أحرزناه على الكومونة . وليس هذا انكاراً للكومونة ، بل متابعة لعملها، ذلك ان تقاليد الكومونة ليست في عجزها . لقد كانت الكومونة ضعيفة وكي ننجز عملها ، أصبحنا أقوياء . لقد سحقت الكومونة . ونحن نوجـه الضربة تلو الضربة الى جلاديها . اننا ننتقم للكومونة ونثأر لها .

من بين ١٦٧٠٠٠ حرس قومي كانوا يتقاضون الرواتب ، كان ٢٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ يذهبون الى القتال . وهذه الارقام ذات فائـدة للاستنتاجات التي يمكن استخلاصها عن دور الديموقراطية الشكلية في المرحلة الثورية . ان مصير كومونة باريس لم يتقرر في الانتخابات ، بل في المعارك ضد جيش تيير .

لكن في الحقيقة ، انما قرر مصائر الكومونة في القتال ٢٠٠٠٠ أو ٣٠٠٠٠ رجل هم الاقلية الاكثر اخلاصاً وشجاعة . ان هذه الاقلية لم تكن معزولة ، ولم تكن الا لتعبر بمزيد من الشجاعة ونكران الذات عن ارادة الغالبية . ولم يكن الآخرون ، الذين اختفوا في اللحظة الحرجة ، معادين للكومونة . بل على العكس كانوا يدعمونها ايجابيـاً أو سلبياً ، لكنهم كانوا أقل وعياً وتصميماً . ولقد اتاح تخلف حسهم الاجتماعي ، في حلبة الديموقراطية السياسية ، المجال لخداع المغامرين وفرسان الصناعة والبرلمانيين

البورجوازيين الصغار والثقلاء الشرفاء الذين كانوا يخدعون أنفسهم بأنفسهم. لكن عندما أصبحت المسألة مسألة حرب طبقية صريحة، تبعوا الاقلية المخلصة إن قليلا وإن كثيراً. ولقد وجد هـذا الموقف تعبيره في تنظيم الحرس القومي. ولو طال وجود الكومونة، لتدعمت أكثر فأكثر هذه العلاقات المتبادلة بين الطليعة وجماهير البروليتاريا. ولكان التنظيم الذي تأسس وترسخ في إطار حرب صريحة كتنظيم للجماهير الكادحة، قد أصبح تنظيم دكتاتوريتها، سوفييت نواب البروليتاريا المسلحة.

- ٦ -

ماركس و ... كاوتسكي

يرفض كاوتسكي باحتقار رأي ماركس عن الارهاب ، الرأي الذي عرضه في « جريدة الراين الجديدة » . ففي ذلك الوقت ، كان ماركس مايزال «شاباً» كما تعلمون (انه كاوتسكي الذي يلفت انتباهنا الى هذا) ، أي ان آراءه لم يكن قد اتيح الوقت لها بعـد لتلين ، ولم تكن تشكو بعد ، كما نرى ، من ذلك الارتخاء العام الذي هو ظـاهرة مميزة لعدد من النظريين عندما يصلون الى سن السبعين . وكاوتسكي يفضل ان يستشهد بماركس الناضج ، معاصر كومونة باريس ،ليقارنه ،مظهراً شيئاً من التناقض ، بماركس ١٨٤٨ — ١٨٤٩ الذي كان بعد في عنفوانه (عندما ألف « البيان الشيوعي ») . ان ماركس الناضج الطيب ذاك يبدو لنا تحت ريشة كاوتسكي ، وقد جرد بالاصل من لبدته البيضاء كأسد مسن ، مفكراً هادئاً ، يطأطىء رأسه بورع أمام مذبح الديموقراطية ، ويشنف آذاننا بخطبة عن عدم قابلية الحياة الانسانية المقدسة للانتهاك ، ويتكلم مع كل الاحترام المناسب عن السياسة الجذابة لشايدمـــان ، وفاندرفيلد ، وبخاصة حفيده بالدم جان لونغيه . وبكلمة واحدة ، يبدو

ماركس ، وقد أعادته التجربة الى الحكمـــة ، نصيراً شريفاً وشجاعاً لكاوتسكي .

ان كاوتسكي لم يستخلص من الكتاب الخالد « الحرب الاهلية في فرنسا » الذي تدب الحياة في صفحاته من جديد بحمية عجيبة في عصرنا ، الا عدداً صغيراً من السطور ، السطور التي يقيم فيها نظري الثورة الاجتماعية العبقري توازياً بـــين كرم رجال الكومونـة وضراوة الفرساويـين البورجوازية .

ولقد فتنت كاوتسكي هذه السطور ولم يترك لها الا معنى عاماً . ماركس ، داعية لاحسان المجرد ، ورسول المحبة العالمية ! فلكأننا امام بوذا أو تولستوي ... لقـــد اراد ماركس ان يرد على حملة الافتراءات الدولية التي كانت تعمل على تصوير رجال الكومونة بأنهم قوادون ، ونساء رجال الكومونة بأنهن مومسات . وانما ضد هذه الافتراءات الدنيئة التي كانت تصم المقهورين بصفات الوحشية ، والتي كانت من ثـار مخيلة المنتصرين البورجوازيين الفاسقة ، سلط ماركس الاضواء واشار الى بعض أعمال الرحمة وكبر النفس التي لم تكن في غالب الاحيان ، في الحقيقة ، الا النتائج المؤسفة لبعض التردد في سلوك رجال الكومونة . وأن يكون ماركس قد سلك هذا السلوك ، فهذا أمر مفهوم : فبذلك ظل ماركس مخلصاً لنفسه . انه لم يكن لا دعياً سوقياً ، ولا مدعي عام الثورة : بل كان يعرف ، من خلال تحليله العلمي الخالص لقيمة الكومونـة ، كيف يجعل منه ايضاً دفاعاً عن الثورة . لم يكن يكتفي بالشرح والنقـد ، بل كان يدافع ، ويقاتل ايضاً . لكنه عندما كان يبين تسامح الكومونة التي

خسرت المعركة ، لم يكن يخامره اي شك في التدابير التي يتوجب على كومونة مستقبلة ان تتخذها لكسب هذه المعركة نفسها .

ان مؤلف « الحرب الاهلية في فرنسا » يتهم اللجنة المركزية التي كانت آنذاك ما نسميه اليوم سوفييت نواب الحرس القومي ، بأنها تخلت قبل الأوان عن سلطانها للكومونة المنتخبة . وكاوتسكي « لا يفهم » أسباب هذا التوبيخ . ان هذا الاعتراف الموسوس بالعجز عن الفهم له دلالته الخاصة على الغباوة التي يصاب بها كاوتسكي حين يريد ان يحكم على قضايا الثورة . فلقد كان ماركس يرى ان المكانة الاولى يجب ان تكون لجهاز المعركة الذي ينبغي ان يكون مركز التمرد والعمليات العسكرية ضد الفرساويين ، لا لإدارة مستقلة من الديموقراطية العمالية . ولقد كان مفروضاً بهذه الاخيرة الا تعمل الا بدورها ، وفيما بعد .

يتهم ماركس الكومونة بانها لم تبدأ الهجوم فوراً على الفرساويين ، وبأنها اتخذت موقف الدفاع الذي يترك ، في الحقيقة ، « انطباعاً سعيداً » ويسمح بالاستشهاد بالقانون الاخلاقي والحقوق المقدسة للحياة الانسانية ، لكن الذي لا يقود بالمرة الى النصر في حالة الحرب الاهلية . والحال ان ماركس كان يريد قبل كل شيء انتصار الثورة . انه لا يقول كلمة واحدة ليضع مبدأ الديموقراطية فوق مصالح الطبقة المناضلة . بل على العكس ، ان ماركس يتكلم باحتقار مركز يميز فيه الثوري والشيوعي - ماركس الناضج الفكر مؤلف « الرأسمال » ، لا المحرر الشاب في « جريدة الراين » - اعني ماركسنا الحقيقي ذا اللبدة المصور التي لم يقصها بعد حلاقو مدرسة كاوتسكي - ان ماركس هذا يتكلم باحتقار مركز

عن « الجو المصطنع للبرلمانيـــة » الذي يبدو فيه الصغار من أمثال تيير (صغار الافكار والاجسام) وكأنهم مردة ! ان كتاب « الحرب الاهلية في فرنسا » يروي ظمأنا كالعاصفة بعد كتيب كاوتسكي القاحـــل ، الدعي ، الخيالي .

ان ماركس ، بالرغم من تحليل كاوتسكي المليء بالافتراءات ، لايؤيد البتة الرأي الذي يعطي الديموقراطية الكلمة الأخيرة ويجعل منها الحل الاسمى وغير المشروط للتاريخ . ان تطور المجتمع البورجوازي ، الذي خرجت منه الديموقراطية المعاصرة ، لايشكل البتـــة دمرقطة متدرجة ، تلك الدمرقطة التي كان يحلم بها ، قبل الحرب ، كبير طوباويي الديموقراطية الاشتراكية ، جان جوريس ، والتي يحلم بهـا اليوم اعلم الادعياء قاطبة ، كارل كاوتسكي لقد اعتبر ماركس امبراطورية نابليون الثالث « الشكل الوحيد المقبول لحكومة في عصر فقدت فيه البورجوازية القدرة على حكم الشعب ولم تتمكن فيه الطبقة العاملة بعد من تلك القدرة » . اذن ، ليست الديموقراطية بل هي البونابرتية التي تمثل ، من وجهـة نظر ماركس ، المرحلة النهائية لسلطة البورجوازية . ومن يتقيد بالحرفية ، دون ان يفهم الروح ، قد يقول ان ماركس كان مخطئاً ، باعتبار ان امبراطورية بونابرت افسحت المجال ، طوال نصف قرن من الزمن ، امام « الجمهورية الديموقراطية » . لكن ماركس لم يكن مخطئاً . فمن حيث الاساس ، كان على صواب . لقـد كانت الجمهورية الثالثة عصر تفسخ الديموقراطية الـكامل ، ولقد وجدت البونابرتية في جمهورية بوانكاريه وكليمانصو المالية تعبيراً أكمل من ذاك الذي وجدته في ظل الامبراطورية . والحق أن الجمهورية الثالثة لم تتوج رأسها بالتاج الامبراطوري ، لكن كان

يخيم فوقها بالمقابل ظل قيصر روسيا .

لقد تجنب ماركس بعناية ، وهو يقيّم الكومونة ، اللجوء الى اللفظية الديموقراطية التي هي كالنقود المهترئة من كثرة الاستعمال . لقد كتب : « كانت الكومونة مؤسسة غير برلمانية بل عمالية ، وقد مارست وظائف السلطتين التنفيذية والتشريعية معاً » . ان مايعطيه ماركس القيمة الاولى ليس هو الشكل الديموقراطي العزيز على كاوتسكي ، بل الطابع الطبقي الاساسي . لقد الغت الكومونة ، كما هو معروف ، الجيش النظامي والشرطة ، وأمرت بتحويل املاك الكهنوت الى الشعب . ولقد فعلت هذا باسم الحق الثوري الدكتاتوري لباريس ، دون ان تستشير قوة الديموقراطية المستقلة التي كانت تجسد في تلك الفترة ، اذا ما رجعنا الى الاشكال القائمة آنذاك ، تعبيراً اكثر « شرعية » بكثير في جمعية تيير الوطنية . لكن الثورة لاتتم بالتصويت . يقول ماركس : « لم تعد الجمعية الوطنية تلعب الا دوراً مرحلياً في هذه الثورة التي كان مايزال يمثلها الاصيل باريس المسلحة » . ألا ما ابعدنا عن الشكلية الديموقراطية !

يقول ماركس ايضاً : « كان يكفي نظام الكومونة ان يتوطد في باريس والمراكز الثانوية ، حتى يرغم الحكومة المركزية القديمة على اخلاء المكان ، حتى في الاقاليم ، لادارات المنتجين المستقلة ذاتياً » . ويرى ماركس ان مهمة باريس الثورية كانت تكمن لا في الحصول على التأييد المشكوك فيه للجمعية التأسيسية ، بل في تغطية فرنسا كلها بشبكة من الكومونات المتجمعة حول المركز والمشكلة لا على اساس مبادىء الديموقراطية الظاهرية ، بل على اساس استقلال اداري ذاتي حقيقي للمنتجين .

ان كاوتسكي يأخذ على الدستور السوفياتي تعدد درجات نظامه الانتخابي الذي يخالف وصفات الديموقراطية البورجوازية وان ماركس يميز بنية فرنسا العمالية ، كما اتضحت من خلال الكومونة ، على النحو التالي : «ان التسيير العام لشؤون سائر الكومونات الريفية في كل محافظة يجب ان يعهد به الى جمعية واسعة الصلاحيات تقيم في عاصمة المحافظة . وعلى جمعيات المحافظات ان ترسل بدورها ممثليها الواسعي الصلاحيات الى الجمعية الوطنية المقيمة في باريس »

ان ماركس ، كما نرى ، لايجد ما يأخذه على تعدددرجات النظام الانتخابي اذا كان الهدف منه تنظيم الدولة البروليتارية . وان تعدد الدرجات هذا يمحو ، في اطار الديموقراطية البورجوازية ، الخطوط المميزة للاحزاب والطبقات . لكن تعدد الدرجات في نظام «الاستقلال الاداري الذاتي للمنتجين » اي في الدولة البروليتارية الخالصة ، مسألة تتعلق لابالسياسة ، بل بآلية الادارة المستقلة ذاتياً ، ويمكن أن تمثل ، في بعض الحدود ، مزايا شبيهة بالمزايا التي نتجت عنها في ميدان التنظيم المهني .

ان الضيقي الافق من البورجوازيين يستنكرون اللامساواة القائمة بين العمال والفلاحين ، من وجهة نظر التمثيل ، وهي لامساواة تجعل الاختلاف في الادوار التي تلعبها المدينة والقرية في الثورة محسوساً في الدستور السوفياتي . كتب ماركس مايلي : « كانت الكومونة تريد أن تربط منتجي الريف بالقيادة الفكرية لمراكز المحافظات ، وان تضمن لهم ، في شخص عمال المدن ، التمثيل الطبيعي لمصالحهم » . وبالفعل ليست المسألة مسألة تقرير المساواة بين الفلاح والعامل على الورق ، بل

رفع الاول الى المستوى الفكري الثاني . ولقد درس ماركس جميع المسائل المتعلقة بالدولة البروليتارية من زاوية الديناميكية الثورية للقوى الحية ، لا كأنها لعبة ظلال صينية على شاشة معرض البرلمانية .

ان كاوتسكي ، حرصاً منه على بلوغ الحد الاقصى من انحطاطه الفكري ، ينكر السلطة المستقلة للسوفييتات العمالية بحجة أنه لا يوجد تمييز حقوقي بين البروليتاريا والبورجوازية . ويستنتج كاوتسكي تعسف الدكتاتورية السوفياتية من أن التمييزات الاجتماعية لا تتم بموجب قاعدة . والحال ان ماركس يقول عكس ذلك تماماً : « لقد كانت الكومونة شكلاً حكومياً كبير المرونة ، في حين أن كل أشكال الحكم التي سبقت تميزت بصلابتها . ان سر الكومونة يكمن في انها كانت ، بماهيتها ، حكومة الطبقة العاملة ونتيجة الصراع الذي احتدم بين المنتجين والمحتكرين ، والشكل السياسي الذي طال البحث عنه والذي يسمح بالتحرير الاقتصادي للعمل » . ان سر الكومونة كان يكمن في أنها كانت ، بماهيتها ، حكومة الطبقة العاملة . وان هذا السر الذي افاض في شرحه ماركس ، مازال بالنسبة الى كاوتسكي سراً خبيئاً تحت قمقم مختوم سبعة أختام .

ان فريسيي الديموقراطية يتحدثون باستنكار عن القمع الذي مارسته السلطة السوفياتية ، وعن اغلاق الصحف ، وعن الاعتقالات والاعدامات . ولقد رد ماركس على « التهويشات الدنيئة لـ أجوري الصحف » وعلى مآخذ « المتمذهبين البورجوازيين المغرضين » بصدد القمع الذي مارسته الكومونة ، رد بهذه العبارات : « ان الفرساويين الذين لم يكتفوا بشن حرب دامية صريحة ضد باريس ، كانوا يحاولون أن يتغلغلوا

سراً الى المدينة بالرشوة والمؤامرات . فهل كانت الكومونة تستطيع ، في مثل هذا الظرف ، **وبدون أن تخون رسالتها بأبشع صورة** ، أن تحافظ على الاشكال الوضعية لليبيرالية وكأن السلام حولها لم يعكره أحد؟ ولو كانت حكومة الكومونة تحركها الروح نفسها التي تحرك حكومة تيير ، لما كان هناك أي داع لمنع نشر صحف « النظام » في باريس ونشر صحف الكومونة في فرساي » . وهكذا فإن مـا يطالب به كاوتسكي باسم أقدس مبادىء الديموقراطية ، قد فضحه ماركس على أنه خيانة بشعة .

أما اعمال التخريب التي أخذت على الكومونة ، كما تؤخذ اليوم على السلطة السوفياتية ، فان ماركس يتكلم عنها باعتبارها«ضرورة محتمة، نتائجها بالاصل عديمة الدلالة نسبياً ، في الصراع الجبار المحتدم بين المجتمع الجديد الذي يرتفع وبين المجتمع القديم الذي سقط » . «ان اعمال التخريب والفظائع محتمة دوماً في الحرب . وليس غير الوشاة والشطار يعتبرونها جرائم « في حرب المضطهَدين ضد مضطهِديهم ، **الحرب العادلة الوحيدة التي شهدها التاريخ** » (انها تعابير ماركس) . الا ان متهمنا المأفون كاوتسكي لايفكر في كتابه لحظة واحدة بالتذكير بأننا مرغمون على الدفاع ، بلا كلل ، عن الثورة ، وبأننا نخوض حرباً شعواء ضد مضطهِدي العالم قاطبة ، « الحرب العادلة الوحيدة التي شهدها التاريخ » .

ومرة اخرى يقرع كاوتسكي صدره وهو يرى ان السلطة السوفياتية التي لم تتراجع امام أي وسيلة ، قد اخذت الرهائن اثناء الحرب الاهلية . وبما عهدنا فيه من سوء نية وعدم منطق ، يقيم من جديد توازياً بين السلطة السوفياتيـة الشديدة القسوة والكومونة الكبيرة

الانسانية . واليكم رأي ماركس الواضح الدقيق التعبير بهذا الصدد : « حين اشاع تيير ، منذ بداية الحرب الاهلية ، تلك العادة الفائقة الانسانية ، عادة اعدام الاسرى من رجال الكومونة ، لم يعد أمام الكومونة الا ان تأخذ الرهائن ، حفاظاً على حياة الاسرى ، حسب العادة التي ادخلها البروسيون . ولما كان الفرساويون لم يكفوا عن اعدام الاسرى ، فانهم كانوا بذلك يضحون بالرهائن . وكيف كان يمكن ألا يعدموا بعد المجزرة التي لاتصدق التي احتفل بها حرس ماك ماهون الامبراطوري عند دخوله باريس ؟ » . ونحن نتساءل مع ماركس . كيف كان يمكننا ان نتصرف بغير الصورة التي تصرفنا بها اثناء الحرب الاهلية ، حين كانت الثورة المضادة التي تحتل جزءاً كبيراً من الارض القومية تقبض ، اينما امكنها ، على العمال العزل من السلاح وعلى نسائهم وامهاتهم ، وتعدمهم وتشنقهم ؟ وهل هناك من عمل آخر غير القبض على الرهائن من بين الناس الذين تعطف عليهم البورجوازية وتضع فيهم ثقتها ، وغير تسليط سيف داموكليس فوق رؤوس البورجوازية المتضامنة فيما بينها ؟ وليس هناك اي صعوبة لإثبات ان كل الاعمال القاسية التي ارتكبتها السلطة السوفياتية قد اقتضتها حاجات الدفاع الثوري . ولانعتقد انه يتوجب علينا ههنا ان ندخل في تفاصيل هذا الاثبات . لكن لـكي نسهل تقييم شروط النضال بمعيار جزئي ، فاننا سنذكر فقط هذه الواقعة : بينما كان الحراس البيض وحلفاؤهم الانكلو ـ الفرنسيون يعدمون بلا استثناء كل شيوعي يقع بين أيديهم ، كان الجيش الاحمر يعفو عن حياة جميع الاسرى بلا استثناء بما فيهم الضباط الكبار

كتب ماركس : « إن الطبقة العاملة ، الواعية الى اقصى حدود الوعي رسالتها التاريخية ، والمصممة بقوة وبطولة على ان تظل بمستوى

رسالتها ، تستطيع ان ترد بابتسامة ازدراء هادئة على التهويشات الدنيئة لمأجوري الصحف وعلى الاقوال المتعالمة الجبيرة المتمذهبين البورجوازيين المغرضين الذين لاينتج جهلهم التام إلا الكليشهات والاقوال المعادة المكرورة والغباوات المألوفة من طبقتهم ، المغلفة بلهجة العرافين القدرية الذين يتحدثون باسم علم معصـــوم عن الخطأ » .

واذا كان المتمذهبون البورجوازيون المغرضون يلعبون احياناً دور النظريين المتقاعدين في الأهمية الثانية ، الا أن هذا لايجرد غباوات طبقتهم من حقها في أن تظل على ماهي عليه : غباوات .

- ٧ -

الطبقة العاملة وسياستها السوفياتية

البروليتاريا الروسية

لقد وجدت مبادهة الثورة الاشتراكية نفسها ، بدافع من قوة الأشياء ، لا بين يدي البروليتاريا الاوروبية الغربية المسنة مع تنظيماتها السياسية والمهنية القوية وتقاليدها الجليلة والثقيلة في البرلمانية والتريديونيونية ، بل بين يدي الطبقة العاملة الشابة لبلد متخلف . ولقد تبع التاريخ ، كما هي الحال دوماً ، خط المقاومة الأضعف . ولقد اندفع العصر الثوري من الباب الذي سد بأقل عناية ممكنة . وان المصاعب الفائقة التي نستطيع ان نقول بجرأة انها كانت فوق طاقة الانسان والتي اصطدمت بها البروليتاريا الروسية ، قد هيأت وعجلت وسهلت الى حد كبير العمل الثوري لبروليتاريا اوروبا الغربية الذي مازلنا بانتظاره .

وان كاوتسكي ، بدلاً من ان يعتبر الثورة الروسية نقطة انطلاق لعصر ثوري سيعم العالم أجمع ، مازال يناقش مسألة معرفة ما اذا كانت

البروليتاريا الروسية لم تتعجل قليلاً في الاستيلاء على السلطة .

واليكم تفسيره : « للوصول الى الاشتراكية ، لا بد ان يكون الشعب متمتعاً بثقافة عالية ، وان تكون الجماهير عالية المعنويات ، ولابد من ان يكون هناك تطور كبير للغرائز الاجتماعية، وشعور بالتضامن، الخ . . ولقد كانت هذه المعنويات (يضيف كاوتسكي ليعطينا درساً) موجودة على مستوى عال لدى بروليتاريي كومونة باريس . وهي معدومة تماماً لدى الجماهير التي تعطي في الوقت الراهن البروليتاريا البولشفية صبغتها » (ص ١٢٠) .

وباعتبار الهدف الذي ينشده كاوتسكي ، فانه لا يكتفي بالسعي الى الاساءة الى سمعة البلاشفة كحزب سياسي في نظر قرائه . فكاوتسكي يبذل جهده ، لعلمه ان البولشفية قد اصبحت من الآن فصاعداً شيئاً واحداً والبروليتاريا الروسية ، اقول يبذل جهده ليسيء الى سمعة البروليتاريا الروسية في مجموعها ، وليصورها على انها جماهير جاهلة ، بلا مثل اعلى ، شرهة الى اشباع حاجاتها المباشرة ، لا توجهها الا غرائزها وايحاءات اللحظة الحاضـرة . ويشكك كاوتسكي في كتابه اكثر من مرة بالمستوى الفكري والاخلاقي للعمال الروس ، وذلك ليزيد من قتامة الالوان وليثبت جهلهم وغباوتهم وهمجيتهم . وليزيد كاوتسكي من حدة المفارقة يستشهد بمثال مأخوذ من عهد الكومونة ، عن مصنع حربي اقام فيه الممثلون العماليون خدمة ليلية حتى يكون في المصنع دوماً عامل يقوم بتسليم الاسلحة التي اصلحت لمن يأتي طالباً لها . « ولما كان من الضروري ، كما ينص القانون ، مراعاة التقشف الشديد في نفقات الكومونة في الظروف

الراهنة، فان الخدمة الليلية لن تكون مأجورة ..» ويستنتج كاوتسكي: « في الحقيقة لم يكن أولئك العمال يعتبرون زمن دكتاتوريتهم ظرفاً ملائماً يسمح لهم باشباع الحاجات الشخصية » (ص٦٥) . أما الطبقة العاملة الروسية فهي شيء آخر تماماً فهي لاتعي مطلقاً واجباتها ، ولا تعرف أفكارها استقراراً ، وتفتقر الى القدرة على الاحتمال والى نكران الذات الخ.. كما انها أصبحت عاجزة عن ان تضع على رأسها قادة جديرين بهذا الاسم (انه مزاح كاوتسكي اللذيذ) تماماً كما ان بارون مونشاوزن [1] كان عاجزاً عن الخروج من المستنقع بشده لشعره . ان هذه المقارنة بين البروليتاريا الروسية والسيد كراك [2] الالماني لمثال بليغ عن الوقاحة التي يعامل بها كاوتسكي الطبقة العاملة في روسيا .

انه يستخرج من خطاباتنا ومقالاتنا مقاطع نفضح فيها بعض الجوانب السيئة وبعض رذائل عالمنا العمالي ، ويحاول ان يثبت ان السلبية والجهل والانانية تكفي لتمييز صفات وسلوك البروليتاريا الروسية ، من ١٩١٧ الى ١٩٢٠ ، في عصر هو من أعظم العصور ثورية .

لكأن كاوتسكي يجهل ، لم يسمع قط ، ولا يستطيع ان يخمن أو يفترض ان البروليتاريا الروسية قد أتيحت لها الفرصة اكثر من مرة ، أثناء الحرب الاهلية ، لتقوم بعمل متجرد وتقيم « بصفة مجانية خالصة » خدمة ليلية ، لاخدمة عامل واحد في ليلة واحـــدة ، بل خدمة آلاف

---

(١) : ضابط الماني (١٧٢٠ - ١٧٩٧) اشتهر بالمنجهيات التي تنسب اليه .

(٢) : بارون كراك : مثال المتبجح الذي لايتراجع امام غرابة المغامرات التي ينسبها الى نفسه ، وقد خلقت هذه الشخصية على مثال شخصية بارون مانشاوزن .

وآلاف من العمال طوال ليال كاملة في حالة انذار مستمر فطوال أيام وأسابيع ، حين كان يودينتش يزحف على بترسبورغ ، كانت تكفي برقية هاتفية واحدة من مجلس السوفييت لدفع آلاف العمال الى السهر في مراكزهم في جميع معامل وأحياء المدينة . ولم تكن حماسة الايام الاولى لكومونة بترسبورغ هي التي تدفعهم الى هذا العمل ، بل كان هذا يحدث بعد عامين من الحرب : ولقد كانوا يشعرون بالبرد ويشعرون بالجوع .

ان حزبنا يجند ، مرتين أو ثلاثاً في العام ، عدداً لابأس به من أعضائه ليرسلهم الى الجبهة . وعلى طول خطوط تبلغ ٨٠٠٠ فرسخ، يذهب هؤلاء الرجال ليضحوا بحياتهم ويعلموا الآخرين ان يضحوا بحياتهم . وعندما أعلن في موسكو ، موسكو التي تشكو البرد والجوع والتي سبق لها أن قدمت نخبة عمالها لحاجات الجبهة ، عندما أعلن « اسبوع الحزب » ، أرسلت الجماهير البروليتارية الى صفوفنا في مدى سبعة أيام كتائب مؤلفة من ١٥٠٠٠ رجل وفي أي وقت ؟ في الوقت الذي كان فيه أكبر الاخطار يهدد وجود السلطة السوفياتية ، حين أخذت أوريل منا وحين كان دينيكين يقترب من تولا وموسكو . وعندما كان يودينتش يهدد بترسبورغ في فترة هي من أحلك الفترات ، قدمت بروليتاريا موسكو لحزبنا ، في أسبوع واحد ، ١٥٠٠٠ رجل كانوا يستعدون ليرسلوا الى الجبهة بين ليلة وضحاها . ونستطيع ان نقول بثقة ان بروليتاريا موسكو لم تكن مجمعة ، اللهم الا ربما في أسبوع التمرد الكبير في تشرين الثاني ١٩١٧ ، في حماستها الثورية ونكرانها للذات في القتال ، كما كانت مجمعة على ذلك في أيام الخطر والتضحية تلك .

وحين طرح حزبنا مشروع العمل الاضافي أيام السبت والاحد ،

وجدت المثالية الثورية للبروليتاريا أسمى تعبير عنها في المتطوعين للعمل . فقد كانوا في البداية عشرات ومئات ،فأصبحوا فيما بعد آلافاً، ثم عشرات ومئات الآلاف من العمال الذين تخلوا عن كل أجرة وكرسوا بضع ساعات عمل من كل أسبوع لمصالح انعاش البلد اقتصادياً . ولقد كان هؤلاء رجالاً ناقصي التغذية ، يرتدون أحذية ممزقة ويلبسون اسمالاً وسخة ، لأن البلاد كانت تفتقر الى الاحذية والصابون . هذه هي ، في الواقـع ، البروليتاريا البولشفية التي ينصحها كاوتسكي بأن تأخذ دروساً في نكران الذات .لكن من أجل المزيد من ايضاح الوقائع وتسلسلها ، يكفينا ان نذكر بأن كل العناصر الانانية ، البورجوازية ، المنتهزة على حساب البروليتاريا – جميع الذين سعوا الى الهرب من الجبهـة ومن عمل يوم السبت ، والذين اهتموا بالتهريب ، والذين حرضوا العمال على الاضراب طوال أسابيـع المجـاعة ، جميع هؤلاء صوتوا أثناء انتخابات السوفييتات للمنشفيك ، أي لأنصـار كاوتسكي الروس .

ان كاوتسكي يستشهد بعباراتنا الخاصة ليثبت اننا كنا ندرك ، حتى قبل ثورة تشرين الثاني ، النقص في ثقافـة البروليتاريا الروسية ، لكننا كنا نعتقد ، باعتبار اننا نؤمن بحتمية انتقال السلطة الى أيـــدي الطبقة العاملة، بأن لنا الحق في ان نأمل بأن نتوصل الى التغلب على المصاعب والى ضمان التوطد النهائي للنظام الاشتراكي في روسيا ،أثناء النضال بالذات وبفضل التجربة الـــتي ستأتي وبالمساعدة المتعاظمة باستمرار والمقدمة من بروليتاريا البلدان الاخرى . وبهذا الصـدد يطرح كاوتسكي الاستفهام التالي : « هل كان تروتسكي ليقرر ان يمتطي قاطرة ويسيرها ، معتمداً فقط على امكانية دراسة آليتها وتدبير كل شيء أثناء السير ؟انه لمن المناسب

أولاً الحصول على المعارف الضرورية لتسيير القاطرة ، قبل ان يقرر المرء تسييرها ولقد كان على البروليتاريا اولاً ان تحصل على المعارف والصفات الضرورية لتكون قادرة على توجيه الصناعة مادامت تدعي انها تتعهد بهذا التوجيه » (ص ١١٧) .

ان هذه المقارنة البليغة يمكن ان تشرف راعياً قروياً . لكن هذا لا يقلل من غبائها . ولعله يحق لنا أكثر ان نقول : هل كان كاوتسكي ليقرر ان يمتطي حصاناً قبل أن يكون قد تعلم كيف يحفظ توازنه ويقود الدابة مشياً أو خبباً أو جرياً ، أو بأي سرعة ؟ ان لدينا من الاسباب مايدفعنا الى الاعتقاد بأن كاوتسكي لن يقرر المجازفة بمثل هذه المغامرة الخطرة للغاية والبولشفية مئة بالمئة . لكننا نخشى ، من جهة أخرى ، أن يشعر كاوتسكي ، لعدم جرأته على امتطاء الحصان ، ببعض الصعوبة في حل جميع ألغاز المعادلة ذلك ان نقطة الانطلاق البولشفية الاساسية هي الاعتقاد بأن الانسان ، كي يتعلم امتطاء الخيل ، لابد أن يقوم بالمحاولة الاولى دون تهيئة مسبقة .

أما فيما يتعلق بقيادة قاطرة فان نقطة انطلاقنا ليست مقنعة أولاً الى هذا الحد ، الا انها تظل صحيحة . فما من انسان تعلم قيادة القاطرة وهو جالس في مكتبه . فلا بد للمرء من تسلق الآلة ، وحماية نفسه منها ، ووضع يده على الجهاز المنظم ، وادارته . وصحيح ان دراسة سير القاطرة تتم بواسطة المناورات بارشاد ميكانيكي محنك ، وأن تعلم ركوب الخيل يتم في ميدان للسباق باشراف فرسان لكن من أجل حكم الشعب ، يستحيل اللجوء الى هذه الطرائق المصطنعة في الدراسة . ان البورجوازية لم تخلق للبروليتاريا مدارس للادارة العامة ، ولا تعهد اليها بآلة الدولة لتجري

عليها تجارب مؤقتة . وعلى كل ، وحتى فيما يتعلق بتعلم ركوب الخيل ، فان العمال والفلاحين لايحتاجون الى ميادين السبق ولا الى مساعدة المدربين من الفرسان .

وينبغي أن نضيف الى هذه الاعتبارات اعتباراً آخر هو على الأرجح أهمها : ان ما من أحد يترك للبروليتاريا حرية امتطاء الحصان أو عدم امتطائه ، والاستيلاء على السلطة حالاً أوارجاءالأمر الى مابعد. فهناك ظروف تضطر فيها الطبقة العاملة الى الاستيلاء على السلطة ، والا فانها تتعرض الى تهديد القضاء عليها ، من وجهة النظر السياسية ، لحقبة تاريخية طويلة . وعندما تستولي على السلطة ، يستحيل عليها ان تقبل بارادتها ببعض نتائج هذا العمل وان ترفض غيرها .واذا كانت البورجوازية الرأسمالية تستفيد عن وعي وخبث من فوضى الانتاج كوسيلة في الصراع السياسي لاستعادة السلطة المطلقة ، فان البروليتاريا مرغمة على تشريك المصانع ، دون ان تتساءل هل في هذا التشريك ربح لها أو خسارة ، لحظة التشريك بالذات . وحين تأخذ البروليتاريا الانتاج على عاتقها ، فانها تكون مرغمة ، تحت ضغط ضرورة حديدية ،على ان تتعلم من نفسها، من التجربة ، كيف تؤدي هذه المهمة البالغة الصعوبة ، وكيف تنظم النظام الاقتصادي الاشتراكي فالفارس ،حين يكون على ظهر الحصان، مرغم على قيادة حصانه وإلا دق عنقه .

ان كاوتسكي يستشهد ، ليعطي أنصاره المخلصين والمخلصات فكرة مناسبة عن المستوى الاخلاقي للبروليتاريا الروسية ، يستشهد في الصفحة ١١٦ من كتيبه بالتفويض التالي الصادر على حد زعمه عن مجلس السوفييت العمالي

في مورزيلوفكا : « ان مجلس السوفييت يعطي جميع السلطات ، عن طريق التفويض التالي ، الى الرفيق غريغوار سارييف ليصادر حسب اختياره وارادته وليقود الى الثكنات لحاجات فرقة المدفعية الموجودة في حامية مورزيلوفكا ، قضاء بريانسك ، ٦٠ امرأة وفتاة يتم اختيارهن من طبقة البورجوازيين والمحتكرين . في١٦ ايلول ١٩١٨ » (نشره الدكتور ناث وينتش ـ ماليبيف في كتابه « ماذا يفعل البلاشفة » لوزان ١٩١٩ – ص ١٠)

ودون أن أضيع لحظة واحدة في الشك في زيف هـذه الوثيقة وكذب هذا التفويض ، أصدرت الامر بالقيام بتحقيق دقيق ، كي أطلع على الوقائع أو الاحـداث التي قد يمكن استخدامها في تزوير مثل هذه الوثيقة . واليكم ماقرره التحقيق الذي تم بعناية بالغة :

أ ـ في قضاءبريانسك لاتوجد البتة ناحيةمعروفة باسم مورزيلوفكا كما أن هذا الاسم لاوجود له في الاقضية المجاورة . وأقرب اسم الى الاسم المذكور هو مورافيوفكا وهي احدى قرى قضاء بريانسك . لكن مـا من فرقة مدفعية دخلت أحياءها قط ولم يحـدث فيها أي شيء يمكن ان تكون له صلة بـ « الوثيقة » المذكورة آنفاً .

٢ ـ شمل التحقيق كل خط قوات المدفعية .ولم نقع في أي مكان على أي أثر بذكر ، ولو من بعيد ، بالواقعة التي يستشهد بها كاوتسكي حسب تعابير ملهمه .

٣ ـ واخيراً سعى التحقيق الى معرفة ما اذا كان أحد في الناحية قد سمع عن مدينة تحمل اسم مورزيلوفكا . فلم نكتشف شيئاً . وليس

هذا مدهشاً ! فمضمون الوثيقة المزورة متناقض الى أقصى الحدود مـــع تقاليد ورأي عام العمال والفلاحين المتقدمين الذين يوجهون مجالس السوفييت حتى في أكثر المناطق تأخراً .

وعلى هذا ينبغي ان نصف هذه الوثيقة بأنها مزورة تزويراً سيئاً يعجز الدساسون المفترون في أكثر الصحف الصفراء صفراوية عن الاتيان بما هو أحسن منه .

وفي اللحظة التي كان يجري فيها التحقيق الذي تكلمت عنه ،سلمني الرفيق زينوفييف نسخة من الجريدة السويدية سفنسكا داغبلاديت ،الصادرة في ٩ تشرين الثاني ١٩١٩ ، وفيهـا صورة طبق الأصل من التفويض ذي المضمون التالي :

تفويض

« حامل هذا ، الرفيق كارازيييف ، مفوض بحق تشريك فتـاة بين ١٦ و ٣٦ سنة يختارهـا الرفيق كارازيييف من مدينة ايكاتيران أود (هذا المكان محذوف) » .

الغلافكوم[1] ايفاتشيف

ان هذه الوثيقة لهي ايضاً أسخف وأوقح من الوثيقة التي يستشهد بها كاوتسكي . فمدينة ايـكاتيرينودار ،مركز منطقة كوبان ، لم تعش الا

---

(١) : غلافكوم تعني « لجنة رئيسية » أكثر مما تعني « قوميسير رئيسي » ، وبذلك تعني اما « اللجنة الرئيسية » او « القوميسير الرئيسي » .

« المترجم الفرنسي »

فترة قصيرة للغاية ، كما هو معروف ، في ظل سلطة السوفييتات . ومزور هذه الوثيقة ، القليل الاطلاع كما هو بديهي على التاريخ الثوري ، قد محا من وثيقته التاريخ ، خوفاً من ان يقول ، خطأ ، ان الغلافكوم ايفاتشيف قد شرك نساء ايكاتيرينودار في الوقت الذي كانت محتلة فيه من قبل جنود دينيكين . وأما ان هذه الوثيقة قد علت بالاوهام بعض المحدودي النظر من البورجوازيين السويديين ، فليس في هذا مايدهش . لكن القارىء الروسي سيتبين فوراً ان هذه الوثيقة ليست مزورة فحسب ، بل مزيفة ايضاً من قبل اجنبي يحمل المعجم في يده . فمن المثير ان نلاحظ ان اسمي « مشركي » النساء ، « غريغوار ساريبيف » و « الرفيق كارازيبيف » لهما جرس غريب تماماً عن اللغة الروسية . فأسماء الأسر الروسية نادراً ماتنتهي بـ « بييف » ، ولانجد هذه الحروف الا في بعض الاسماء المركبة . لكن متهم البلاشفة ، مؤلف الكتاب باللغة الانكليزية الذي يستشهد به كاوتسكي ، يحمل هو نفسه اسماً منتهياً بـ « بييف » (وينتش -ماليبيف) . وواضح ان هذا الشخص ، هذا الدساس الانكلو - بلغاري ، المحبوس في مكتبه بلوزان ، يخلق « مشركي » نساء - نستطيع ان نقول ذلك بكل ثقة - على صورته

وعلى كل الاحوال ، انهم لغريبون حقاً ملهمي كاوتسكي ورفاقه !

السوفييتات والنقابات والحزب

لاتمثل السوفييتات باعتبارها شكل تنظيم الطبقة العاملة ، في نظر كاوتسكي ، وبالنسبة الى الاحزاب والمنظمات المهنية في بلدان أكثر تقدماً ، لاتمثل شكلاً تنظيمياً أسمى ، بل تقليداً مصطنعاً رديئاً يفرض نفسه نظر

لعدم وجود منظمات سياسية (ص ٥١) . لنفترض انهذا صحيحبالنسبة الى روسيا . لكن أشرحوا لنا في مثل هذه الحال لم ظهرت السوفييتات في المانيا ! أما كان من الواجب التخلي عنها كلياً في جمهورية ايبرت ؟لكننا نعرف ان هيلفردينغ الذي تتقارب آراؤه الى أقصى الحدود من آراء كاوتسكي ، كان يقترح في الماضي ادخال السوفييتات في الدستور . إلا ان كاوتسكي لايتفوه عن هذا بكلمة واحدة .

واذا اعتبرنا السوفييتات مؤسسة « بدائية » للغاية ، ينبغي ايضاً ان نعترف ، حتى نكون عادلين ، بـأن النضال المكشوف ، النضال الثوري ، طريقة أكثر « بدائية » من العمل البرلماني لكن العمل البرلماني مصطنع ومعقد ،ولا يمكن ان يهم بالتالي إلا طبقة علياقليلة العدد .والثورة غير ممكنة إلا عندما تكون الجماهير معنية . ولقدحركت ثورة تشرين الثاني جماهير لم يفكر قط الحزب الاشتراكي - الديموقراطي بتجميعها . ومهما كانت منظمات الحزب والنقابات واسعة في المانيا ، فان الثورة تجاوزتها كلها اتساعاً ولقد وجدت الجماهير الثورية ممثلها المباشر في منظمة بالغة البساطة ويتناول الجميع ، في سوفييت مندوبيها . ومن الممكن ان نعترف بأن سوفييت المندوبين لايرتفع الى علو الحزب أو النقابة فيمايتعلق بوضوح البرنامج أو مستوى التنظيم . لكنه يقف عالياً فوق الحزب والنقابات من حيث عدد البشر القادر على جرهم الى النضال الثوري،وهذا التفوق في العدد يعطي السوفييت مزايا لانقاش فيها في زمن الثورة . ان السوفييت يضم شغيلة جميع المصانع وجميع المهن قاطبة ، مهما كانت درجة تطورهم الفكري ، ومهما كان مستوى ثقافتهم السياسية ، وهو بالتالي مرغم موضوعياً على التعبير عن المصالح التاريخية العامة للبروليتاريا .

لقد كان « بيان الحزب الشيوعي » يعتبر ان مهمة الشيوعيين هي على وجه التحديد التعبير عن المصالح العامة ، المصالح التاريخية للطبقة العاملة قاطبة .

« يتميز الشيوعيون عن غيرهم من الاحزاب البروليتارية - حسب تعبير البيان - في انهم يضعون من جهة اولى مصالح كل الجماهير البروليتارية بغض النظر عن الجنسيات ، فوق كل اعتبار آخر ويدافعون عنها في نضال بروليتاري مختلف الامم ، وفي انهم الممثلون الدائمون ، من الجهة الثانية ، في جميع مراحل الصراع القائم بين البروليتاريا والبورجوازية ، لمصلحة الحركة ، منظوراً اليها في مجموعها » . وان تنظيم السوفييتات الطبقي يجسد هذه الحركة « منظوراً اليها في مجموعها » . ومن هنا نتبين لماذا وكيف استطاع الشيوعيون ولماذا وكيف توجب عليهم ان يكونوا الحزب القائد للسوفييتات .

لكن من هنا ايضاً نتبين كم هو خاطىء حكم كاوتسكي على السوفييتات بأنها « تقليد مصطنع » للحزب . ومن هنا ايضاً نرى غباء محاولة هيلفردينغ لإدخال السوفييتات ، بصفة رافعة ثانوية ، في آلية الديموقراطية البورجوازية . ان السوفييتات هي تنظيم الثورة البروليتارية ، ولها قيمتها إما باعتبارها جهازاً نضالياً من أجل السلطة ، وإما باعتبارها جهاز سلطة في يد الطبقة العاملة .

ان كاوتسكي الذي لم يفهم الدور الثوري للسوفييتات ، يرى العيب الاساسي في مايشكل على العكس جدارتها الاساسية ، فهو يقول : « من المستحيل ان نقيم تمييزاً ، ان نرسم حداً فاصلاً واضحاً بين البورجوازيين والعمال وإن لفي هذا التمييز شيئاً تعسفياً يحول فكرة السوفييتات الى

مبدأ يناسب تماماً الاستبداد الدكتاتوري ،لكنه يعجز تماماً ايضاً عن خلق نظام للحكم محدد ومبني بناء منهجياً » .

اذا ماصدقنا كاوتسكي اذن، فان الدكتاتورية الطبقية لاتستطيع ان تخلق مؤسسات تلائم طبيعتها ، باعتبار انه لاوجود لحد فاصل دقيق بين الطبقات . لكن ماذا نفعل في مثل هذه الحال ، لو نظرنا الى المسألة من زاوية أوسع ، بالصراع الطبقي ؟ ذلك ان ايديولوجيات البورجوازية الصغيرة قد وجدت دوماً في تعدد درجات السلم الاجتماعي التي تفصل البورجوازية عن البروليتاريا ، أقوى حجة لها ضد « مبـــدأ » الصراع الطبقي بالذات . وان كاوتسكي يتوقف وقد سيطر عليه الشك ، في اللحظة التي تنظم فيها البروليتاريا دكتاتوريتها فعلياً في نظام حكم السوفييتات ، بعد أن تكون قد تغلبت على سديمية الطبقات المتوسطة وعدم استقرارها وجرت وراءها جزءاً من هذه الطبقـات ودفعت بالاجزاء الأخرى الى معسكر البورجوازية . ان السوفييتات هي جهاز سيطرة بروليتارية لا يمكن لأي جهاز آخر أن يحل محله ، لأن اطرها مرنة ولينة بحيث أن جميع التبدلات ، لا الاجتماعية فحسب بل السياسية أيضاً ، التي تطرأ على وضع الطبقات النسبي ، تستطيع أن تجد فوراً تعبيرها في الجهاز السوفياتي. والسوفييتات التي تبدأ بالمصانع والمعامل الكبيرة ، تدخل فيما بعـــد في تنظيمها عمال الورشات ومستخدمي التجارة . ومن ثم تنتقـل الى القرى وتنظم نضال الفلاحين ضد الملاكين العقاريين ، وتثير فيمابعد الفئات الدنيا والمتوسطة من العالم الفلاحي ضد الفلاحين الاغنياء (« أعيان القرية ») . وتستخدم الدولة العمالية العديد من المستخدمين الذين ينتمون ، الى حد كبير ، الى البورجوازية والعالم الفكري البورجوازي . وكلما اظهروا

انضباطهم تجاه النظام السوفياتي ،اتيحت لهم امكانية تمثيلهم في السوفييتات . ان النظام السوفياتي الذي يتسع ، أو يضيق أحياناً ، حسبما تتسع أو تضيق المراكز الاجتماعية التي تحتلها البروليتاريا ، يظل الجهاز الحكومي للثورة الاجتماعية في ديناميكيته الداخلية ، في مده وجزره ، في أخطائه ونجاحاته . وحين تنتصر الثورة الاجتماعية نهائياً ، يمتد النظام السوفياتي ليشمل جميع السكان ، ويفقد بالتالي طابعه الحكومي وينحل في تعاونية جبارة للمنتجين والمستهلكين .

واذا كان الحزب والاتحادات المهنية منظمات مهمتها تهيئة الثورة، فان السوفييتات هي سلاح هذه الثورة . وبعد انتصارها ، تصبح السوفييتات اجهزة السلطة . ويطرأ تعديل جوهري على دور الحزب والنقابات دون أن تتضاءل أهميته .

ان التسيير العام للأمور يظل متمركزاً بين يدي الحزب وليس ذلك لأن الحزب يحكم بصورة مباشرة ، فجهازه لايتلاءم مع هذا النوع من الوظائف . لكن له صوته الحاسم في كل مايطرأ من قضايا مبدئية . بل أكثر من ذلك ، فقد جعلتنا التجربة نقرر أن الكلمة الاخيرة تعود الى لجنة الحزب المركزية ، في جميع المسائل التي يثور حولها النزاع ،وفي جميع النزاعات التي يمكن أن تنشب بين الادارات وفي النزاعات الشخصية داخل الادارات . ان هذا يوفر الكثير من الوقت والطاقة ، ويضمن وحدة العمل الضرورية في أصعب الظروف وأحرج المواقف ان مثل هذا النظام غير ممكن الا اذا ظلت سلطة الحزب فوق كل جدال ، والا اذا كانت الكلمة الحاسمة لانضباط الحزب . ومن حسن

حظ الثورة ان هذين الشرطين متوفران تماماً في حزبنـا . ومن الصعب أن نقول مسبقاً ما اذا كان من الممكن ان يوجد في البلدان الاخرى التي لم يخلف لها ماضيها تنظيماً ثورياً قوياً حزب شيوعي يتمتع بنفس الهيبة التي يتمتع بها حزبنا حين تدق ساعة الثورة البروليتارية . لكن من البديهي أن حل هذه المسألة سيكون له تأثير بالغ على سير الثورة الاشتراكية في كل بلد من بلاد العالم .

ان الدور الاستثنائي الذي لعبه الحزب الشيوعي ، حين حققت الثورة البروليتارية النصر ، مفهوم تماماً . فالمسألة هي مسألة دكتاتورية طبقة . والطبقة تتألف من عدة فئات آراؤها وعواطفها ليست واحـدة ومستوياتها الفكرية متباينة . والحال ان الدكتاتورية تفترض وحـــدة الارادة ، وحدة الاتجاه ، وحدة العمـــل . فمن أي طريق يمكن أن تتحقق ؟ ان الهيمنة الثورية للبروليتاريا تفترض هيمنة حزب ذي برنامج للعمل محدد وانضباط داخلي حديدي في قلب البروليتاريا بالذات .

ان سياسة التكتل متناقضة أشد التناقض مع نظام الدكتاتورية البروليتارية . ولا نتحدث ههنا عن التكتل مع الاحزاب البورجوازية ، فهذه مسألة غير مطروحة البتة ، بل عن تكتل الشيوعيين مع المنظمات « الاشتراكية » الأخرى التي تمثل على درجات متباينة الافكار المتخلفة للجماهير الكادحة وآراءها المسبقة .

ان الثورة تهدم بسرعة كل ماهو غير مستقر ، وتبلي كل مـاهو مصطنع ان التناقضات التي يسعى التكتل الى تقنيعهـا تتكشف تحت ضغط الاحداث الثورية . ولقد لاحظناذلك في مثال المجر ، حيث اتخذت

دكتاتورية البروليتاريا كشكل سياسي لها التحالف بين الشيوعيين والاشتراكيين الذين لم يكونوا الا انصار المقنعين للتفاهم مع البورجوازية. وسرعان ماتفكك التحالف . لقد دفع الحزب الشيوعي غالياً ثمن العجز الثوري والخيانة السياسية لرفاقه في المغامرة . ومن البدهي كل البداهة انه كان من الخير للشيوعيين المجريين ان يصلوا الى السلطة متأخرين، تاركين للاشتراكيين اليساريين (اشتراكيي التحالف مع البورجوازية) امكانية التورط نهائياً وصحيح أن بمقدور المرء أن يتساءل عم اذا كان مثل هذا السلوك يتعلق بارادتهم . ان التكتل مع هؤلاء الاشتراكيين الذي لم يكن له من فائدة ، في جميع الحالات ، الا التقنيع المؤقت لضعف الشيوعيين المجريين النسبي ، قد منعهم في الوقت نفسه من تقوية أنفسهم على حساب حلفائهم المتقلبين وقادهم الى كارثة .

ويقدم مثال الثورة الروسية تفسيراً كافياً لهذه الفكرة نفسها فتكتل البلاشفة مع الاشتراكيين – الثوريين اليساريين قد انتهى بقطيعة مفاجئة بعد ان دام عدة أشهر . وصحيح اننا لسنا ، نحن الشيوعيين ، الذين دفعنا القسم الاكبر من تكاليف هذه القضية ، بل هم رفاقنا غير الاوفياء ومن البدهي ان تكتلاً لنا القوة فيه ولانجازف بالتالي كثيراً بأن نستخدم ، لمرحلة فقط ، اليسار المتطرف من الديموقراطية (يسار البورجوازيين الصغار) – اقول من البدهي ان هذا التكتل لايسمح بتوجيه أي لوم لنا من وجهة النظر التكتيكية . الا ان هذه المرحلة من التحالف مع الاشتراكيين – الثوريين اليساريين تدل بوضوح على ان نظاماً يقوم على المصالحات والتوفيقات والتنازلات المتبادلة – وهذا مايقوم عليه نظام التكتل – لايمكن ان يصمد طويلاً في عصر تتغير فيه

المواقف بسرعة بالغة ، في عصر يضع فوق كل شيء وحدة وجهات النظر الضرورية لإمكانية وحدة العمل .

لقد اتهمنا اكثر من مرة بأننا استبدلنا دكتاتورية السوفييتات بدكتاتورية الحزب : الا انه يمكننا ان نؤكد ، دون أن نجازف بأن نخطىء ، بأن دكتاتورية السوفييتات لم تكن ممكنة الا بفضل دكتاتورية الحزب : فالحزب بفضل وضوح افكاره النظرية ، وبفضل قوة تنظيمه الثوري ، ضمن للسوفييتات امكانية التحول من برلمانات عمالية شوهاء ، الى جهاز لسيطرة العمل . وليس في هذا الاستبدال لسلطة الطبقة العاملة بسلطة الحزب اي شيء عرضي ، بل ليس هناك في الحقيقة اي استبدال . فالشيوعيون يعبرون عن المصالح الاساسية للطبقة العاملة . ومن الطبيعي تماماً ان يصبح الشيوعيون الممثلين المعترف بهم للطبقة العاملة في مجموعها في هذا العصر الذي يطرح فيه التاريخ على بساط البحث هذه المصالح بكل اتساعها .

ويسألنا بعض الخبثاء :

ــ لكن من يضمن لنا انه حزبكم فعلاً الذي يعبر عن مصالح التطور التاريخي ؟ فأنتم بقضائكم على باقي الاحزاب او بتجريدكم لها من قوتها ، قد تخلصتم من مزاحمتها السياسية التي هي مصدر التنافس ، وحرمتم انفسكم بالتالي من امكانية التحقق من صحة او خطأ خطكم في العمل .

ان هذا الاعتبار تمليه فكرة ليبيرالية خالصة عن سير الثورة . ففي عصر تعلن فيه كل التناحرات عن نفسها صراحة ويتحول فيه الصراع السياسي بسرعة الى حرب اهلية ، يجد الحزب القيادي بين يديه ،

للتحقق من صحة خطه ، مافيه الكفاية من المواد والمعايير ، بغض النظر عن مقدار الكمية التي تطبعها الصحف المنشفيكية . ان نوسك يصب على الشيوعيين صواعقه ، بيد ان عددهم لايكف عن الازدياد . ولقد سحقنا المنشفيك والاشتراكيين الثوريين ولم يبق منهم شيء . وعلى كل الاحوال ، ليست مهمتنا ان نقوم في كل دقيقة بتقدير اهمية الفئات التي يمثلها كل اتجاه احصائياً ، بل ان نضمن انتصار اتجاهنا ، نحن ، الذي هو اتجاه الدكتاتورية البروليتارية ، وان نجد في سير هذه الدكتاتورية وفي مختلف الاحتكاكات التي تعيق عمل آليتها مقياساً كافياً للتحقق من قيمة افعالنا .

ان الحفاظ على « استقلال » الحركة المهنية لمدة طويلة من الزمن في عصر الثورة البروليتارية امر لايقل استحالة عن سياسة التكتل . فالنقابات تصبح ، في هـــذا العصر ، اهم الاجهزة الاقتصادية في يد البروليتاريا الحاكمة . ومن هنا بالذات ، تسقط تحت قيادة الحزب الشيوعي . واللجنة المركزية لحزبنا لاتتكفل بالمسائل المبدئية للحركة المهنية فحسب ، بل ايضاً بالنزاعات الجدية التي يمكن ان تنشب داخل هذه المنظمات .

ان انصار كاوتسكي يتهمون السلطة السوفياتية بأنها دكتاتورية « جزء » واحد فقط من الطبقة العاملة . وهم يهتفون : « لو ان الدكتاتورية كانت على الاقل دكتاتورية طبقة **بكاملها** ! » . وليس من السهل ان نفهم ما يقصدونه بهذا . ان دكتاتورية البروليتاريا تعني ، في جوهرها ، السيطرة المباشرة لطليعة ثورية تعتمد على الجماهير الثقيلة وترغم المتخلفين ، عند اللزوم ، على اللحاق بالركب . وهذا امر يتعلق ايضاً بالنقابات فبعد

استيلاء البروليتاريا على السلطة ، تتخذ هذه النقابات طابعاً الزامياً إن علم ان تضم جميع العمال الصناعيين. لكن الحزب يستمر في سياسته القائمة على تمثل اوعى العناصر واكثرها اخلاصاً انه شديد التحفظ فيما يتعلق بتوسيع صفوفه . ومن هنا كان الدور القيادي الذي تلعبه الاقليـــة الشيوعية في النقابات ، الدور الذي يتناسب مـع السيطرة التي يمارسها الحزب الشيوعي في السوفييتات ، والذي هو التعبير السياسي عن دكتاتورية البروليتاريا .

وتأخذ عندئذ الاتحادات المهنية على عاتقها مهمة الانتاج المباشرة فهي لا تعبر عن مصالح العمال الصناعيين فحسب ، بل أيضاً عن مصالح الصناعة نفسها . وفي البداية تطل الاتجاهات التريديونيونية برأسها اكثر من مرة في النقابات ، وتحثها على المساومة مع الدولة السوفياتية وعلى وضع الشروط وطلب الضمانات . لكن كلما مضى الوقت ، فهمت النقابات انها الاجهزة المنتجة للدولة السوفياتية . فتتعهد عندئذ بالتجاوب مع قدرها ، ولا تعارضه بل تندمج فيه . وتتكفل الاتحادات بتوطيد انضباط العمل . وتطالب العمال بعمل كثير في اصعب الشروط ، منتظرة ان تتوفر للدولة العمالية المواد الضرورية لتبديل هذه الشروط . وتتعهد النقابات بممارسة القمع الثوري تجـاه اللا انضباطيين والعناصر المشاغبة والطفيلية من الطبقة العاملة . ان النقابات ، بتخليها عن السياسة التريديونيونية التي هي ملازمة ، الى حد ما ، للحركة المهنية في بلد رأسمالي ، تنضم نهائياً وكلياً الى سياسة الشيوعيين الثورية .

السياسة المتبعة تجاه الفلاحين

يشكونا كاوتسكي قائلًا ان البلاشفة « كانوا يريـدون ان يقهروا

الفلاحين الميسورين في الارياف بعدم منحهم الحقوق السياسية الا لأفقر الفلاحين . ومع ذلك منحوها للاوائل بعد فترة قصيرة ».

ويعدد كاوتسكي « التناقضات » الخارجية في سياستنا تجاه الفلاحين دون ان يطرح مسألة اتجاهها الداخلي و مسألة التناقضات الملازمة لوضع البلد الاقتصادي والسياسي .

كانت الطبقة الفلاحية الروسية ، عند دخولها في المجتمع السوفياتي، تضم ثلاث فئات : الفقراء الذين يعيش معظمهم من بيع قدرته على العمل والمضطرين الى شراء ما يسدون به رمقهم ، والمتوسطين الذين يكفون انفسهم بأنفسهم بفضل نتاج اراضيهم الذي يبيعون منه ما زاد على حاجتهم ، والاغنياء ، الموسرين (الكولاك بالروسية) الذين يشترون اليد العاملة ويبيعون على أوسع نطاق نتاج استثماراتهم الزراعية . ولا حاجة بنا البتة الى القول ان هذه الفئات لا تتميز لا بعلامات خاصة ولا بتجانسها في كل ارجاء البلاد . الا أن الفلاحين الفقراء كانوا بمجموعهم ، وبصورة لا تقبل النقاش ، الحليف الطبيعي لبروليتاريا المدن ، في حين ان الفلاحين الموسرين كانوا ايضاً بصورة لا تقبل النقاش او التوفيق اعداءها . وكانت اكبر الفئات الفلاحية ،الفئات المتوسطة ،تتردد .

ولو لم تنهك البلاد كما انهكت ، ولو كانت لدى البروليتاريا امكانية تقديم السلع ذات الاهمية الاولى الى الجماهير الفلاحية ، واشباع حاجاتها الفكرية ، لكان اندماج الجماهير الفلاحية الكبرى بالنظام الجديد اكثر سهولة . لكن تخريب البلاد اقتصادياً ، هذا التخريب الذي لم يكن نتيجة سياستنا الزراعية والتموينية بل الناشيء عن اسباب سابقة ، حرم المدن من كل امكانية لتموين الريف بمنتجات الصناعة

النسيجية او التعدينية وبخلال المستعمرات ، الخ . ولم تكن الصناعة بالمقابل تستطيع الاستغناء عن اخذ بعض المؤمن من الريف ولو بكمية ضئيلة للغاية . وقد طلبت البروليتاريا من الفلاحين سلفاً غذائية ، قروضاً تضمنها الثروات التي في طريقها لأن تخلق . وكانت العملة الورقية ، التي انخفضت قيمتها ، تمثل هذه الثروات المستقبلة . لكن الجماهير الفلاحية عاجزة تقريباً عن الارتفاع الى مستوى وجهة النظر التاريخية . ولم يكن من النادر أن ترفض الجماهير الفلاحية ، المرتبطة بسلطة السوفييتات نتيجة تصفية الملاك الكبار ، والواجدة فيها ضمانة ضد عودة القيصرية ، لم يكن من النادر أن ترفض مد هذه السلطة بالحبوب ، طالما ان السوق غير مربحة وطالما انها لا تتلقى بالمقابل لا انسجة ولا مسامير ولا بترولاً .

وكانت سلطة السوفييتات تميل بالطبع الى فرض كل ثقل ضريبة التموين على اغنياء الارياف . لكن الفلاحين الموسرين وذوي النفوذ ، المعتادين على قيادة الفلاحين المتوسطين كان بمقدورهم بسهولة ، من خلال العلاقات الاجتماعية غير المحددة الاشكال في الريف ، ان يتحايلوا ليلقوا بأعباء الضريبة على كاهل الجماهير الفلاحية الواسعة دافعين بها بالتالي الى معاداة سلطة السوفييتات . وكان لا بد من تنبيه الجماهير الفلاحية وايقاظ عدائها للموسرين . وقد قامت لجان الفقر الفلاحي بهذا الدور . وانتشرت في أوساط الذين سحقوا في الماضي ، واهملوا ، ودفع بهم الى المؤخرة ، وحرموا من كل حق . ولقد كانت بينهم بلاشك عناصر نصف طفيلية ، وهذا ما اتاح فرصة ممتازة للدعاية الديماغوجية وللاشتراكيين - نارودنيكي[1]،

(١) : نارودنيكي : معناها الحرفي الشعبيون ، والشائع الاشتراكيون - الثوريون .

الذين كانت خطاباتهم تجد صدى كله عرفان بالجميل في قلوب الموسرين . وان مجرد اعادة السلطة في الارياف الى طبقة الفلاحين الفقراء كان ذا دلالة ثورية عميقة . وكما يوجه الحزب انصاف البروليتاريين في الريف، ارسل اليهم عمالاً متقدمين انجزوا عملاً لا يقدر بثمن واصبحت لجان الفقر الفلاحية كتائب هجوم حقيقية ضد الفلاحين الموسرين . وقد ارغمت هذه اللجان ، المدعومة بالسلطة الحكومية ، ارغمت الفئات المتوسطة من الطبقة الفلاحية على الاختيار لا بين سلطة السوفييتات وسلطة الملاك فحسب ، بل ايضاً بين دكتاتورية البروليتاريا والعناصر نصف البروليتارية في الريف وبين استبداد الاغنياء . وعن طريق سلسلة من الدروس كان بعضها شديد القسوة ، اقتنع الفلاحون المتوسطون بأن نظام السوفييتات الذي طرد الملاك والشرطة ، يفرض على الفلاحين بدورهم التزامات جديدة ويتطلب حصتهم من التضحيات . ان هذه التجربة التربوية السياسية التي شملت عشرات الملايين من الفلاحين المتوسطين ، لم تكن لا محبة ولا مريحة ، ولم تعط نتائج فورية قاطعة . فقد حدثت ترددات من جانب الفلاحين الميسورين (المتوسطين) المتحالفين مع الاغنياء ، كانت تسقط دوماً تحت قيادة الملاك البيض الكبار . ولقد ارتكب مفوضو السلطة المحلية وبخاصة لجان الفقر الفلاحي ، ارتكبوا شيئاً من سوء استعمال السلطة . لكن الهدف السياسي الاساسي تم الوصول اليه . واذا لم يكن الفلاحون الموسرون قد بيدوا ، الا ان نفوذهم قد زعزع بقوة وفقدوا ثقتهم بأنفسهم . واعتادت فئة الفلاحين المتوسطين ، رغم انها ظلت عديمة الشكل سياسياً كما هو شأنها اقتصادياً ، اعتادت على اعتبار ممثلها عامل المدن المتقدم لا موسر القرية الكثير الصياح وحين تحققت هذه النتيجة الرئيسية ،

توجب على لجان الفقر ، بصفتها مؤسسة مؤقتة ، ان تخلي المكان للسوفييتات التي فيها تمثيل للفلاحين المتوسطين والفقراء في آن واحد . وهكذا تكون هذه اللجان قد لعبت دور ازميل حاد في قلب الكتلة الفلاحية .

لقد عاشت لجان الفقر الفلاحي قرابة ستة اشهر ، من حزيران الى كانون الاول ١٩١٨ . ولا يرى كاوتسكي سواء أفي انشائها ام في الغائها إلا « ترددات » من جانب سياسة السوفييتات. لكنه يعزف عن أي اشارة لأي وسيلة عملية . وعلى كل ، من أين سيأتي بها ؟ ان التجربة التي نقوم بها في هذا المجال لا سابق لها ، والمشكلات التي تحلها عملياً سلطة السوفييتات ليس لها من حل في الكتب . وحيثما يعتقد كاوتسكي انه يفضح تناقضات سياسية ، لا تكون المسألة في الواقع الا مسألة **مناورات نشيطة** تقوم بها البروليتاريا في صفوف الجماهير الفلاحية غير المتبلورة والتي ماتزال قابلة للتأثر . فقائد المركب الشراعي مضطر الى مناورة الريح ولا يفكر أحد في ان يرى تناقضات في المناورات التي تقوده الى الهدف .

ونستطيع ان نسجل ، في مسألة الكومونات الزراعية والمزارع السوفياتية ، عدداً لا بأس به من « التناقضات » التي تدل على اخطاء معزولة وعلى مراحل الثورة في آن واحد . فما هي مساحة الاراضي التي ستحتفظ بها الدولة السوفياتية في اوكرانيا وماهي المساحات التي ستسلمها الى الفلاحين؟ وما التوجيه الذي ستعطيه للكومونات الزراعية ؟ والى أي مدى ستدعمها حتى لا تشجع الطفيلية ؟ وكيف ستؤمن الرقابة عليها ؟ هذه هي بعض الاسئلة الجديدة التي طرحها البناء الاقتصادي الاشتراكي ، والتي ليس لها من حل مسبق لا في النظرية ولا في التطبيق ، والتي يتوجب على خط السير النظري ، المرسوم من قبل المنهاج ، ان يجد في حلها تطبيقه العملي وتحقيقه

التجريبي على حساب انحرافات محتمة ومؤقتة إما الى اليمين وإما الى اليسار.

أما كون البروليتاريا الروسية قد وجدت تأييداً من الطبقـــة الفلاحية، فهذا مأخذ يأخذه كاوتسكي علينا لأنه «يدخل على النظام السوفياتي عنصراً رجعياً نجت منه (!) كومونة باريس باعتبـار ان دكتاتوريتها لم تكن تقوم على السوفييتات الفلاحية ...».

فلكأن بمقدورنا ان نربح ارث النظام الاقطاعـي البورجوازي باستبعادنا بارادتنا « العنصر الاقتصادي الرجعي » ! والحال ان هذا ليس كل شيء فالطبقة الفلاحية ، بعد ان سممت سلطة السوفييتات بعنصر رجعي ، حرمتنا من تأييدها انها « تتقزز » اليوم من البلاشفـــة . وكاوتسكي يعلم ذلك من مصدر موثوق ، من اذاعات كليمانصو وثرثرات المنشفيك .

والواقع ان الجماهير الفلاحية الواسعة تشكو من نقص المنتجات المصنوعة ذات الاهمية الحيوية لكن من المؤكد أيضاً ان سائر الانظمة الاخرى بلا استثناء ــ ولقد شهدت روسيا أو بعض أجزائها عدداً كبيراً منها خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة أثقلت كاهل الفلاحين أكـــثر من نظامنا بما لا يقاس . فلا الحكومـــة الملكية ولا الحكومة الديموقراطية استطاعتا ان تزيدا من مخزون البضائع وكانت كلتاهما بحاجة الى القمح والخيول التي يملكها الفلاحون . وكانت الحكومات البورجوازية ،بما فيها حكومات الكاوتسكيين - المنشفيك ، تستخدم جهازاً بيروقراطيـاً خالصاً أقل انسجاماً من النظام السوفياتي ـ المؤلف من العمال والفلاحين ـ بما لا يقاس مع حاجات الاقتصاد الريفي . وبالنتيجة تبين للفلاح المتوسط ،

رغم تردده واستيائه وحتى تمرده ، انه مهما تكن الصعوبات في ظل النظام البولشفي ، فان الحيـاة ستكون أقسى بكثير في ظل أي نظام آخر . وصحيح ان كومونة باريس « تجنبت » معونة الارياف . لكن جيش تيير الفلاحي لم يوفر بالمقابل الكومونة ! في حين أن جيشنا ، المكون في أربعة أخماسه من الفلاحين ، يقاتل بحماسة ــ ويحقق الانتصارات من أجل جمهورية السوفييتات . وهذه الواقعة التي تكذب وحدها كاوتسكي وملهميه ، تعطي أفضل تقييم للسياســة التي تتبعها سلطة السوفييتات تجاه الفلاحين .

سلطة السوفييتات والاختصاصيون

يروي كاوتسكي : « لقد اعتقد البلاشفة في البداية ان بمقدورهم الاستغناء عن المثقفين والاختصاصيين » (ص ١٢٨) . ولما اقتنعوا فيمابعد بضرورة مساهمــة المثقفين ، كفوا عن انتقامهم القاسي وبدؤوا بدعوة المثقفين الى العمل بكل الوسائل ، وبخاصة عن طريق الاجور العاليـة . ويقول كاوتسكي ساخراً : « وهكذا فان خير طريقة لدعوة المثقفين الى العمل هي اساءة معاملتهم اولاً بفظاظة » (ص ١٢٩) . تماماً . وبالاذن من جميع المحدودي الفكر ، فان دكتاتورية البروليتاريا تبدأ على وجه التحديد « باساءة معاملة » الطبقات السائدة في الماضي لترغمها على الاعتراف بالنظام الجديد والاذعان له . ولما كان المثقفون المهنيون قد ترعرعوا على فكرة البورجوازية الفائقة القوة ، فقد ظلوا مدة طويلة لايؤمنون ، ولا يستطيعون ان يؤمنوا ، ولا يريدون أن يؤمنوا بأن الطبقة العاملة قادرة ومصممة على ادارة البلاد ، وبأنها لم تضع يدها على السلطة عرضاً ، وبأن

دكتاتورية البروليتاريا حقيقة واقعة . لقد كان المثقفون البورجوازيون ينظرون باستخفاف كبير الى التزاماتهم تجاه الدولة العمالية حتى عندما يدخلون في خدمتها ، ويعتقدون أن من البساطة بمكان في ظل النظام البروليتاري ان يسلموا الامبرياليين الاجانب أو الحرس الابيض الاسرار العسكرية والموارد المادية ، أو ان يتلقوا مساعدات مالية من ولسون أو كليمانصو أو ميرباخ لتمويل الدعاية المناوئة للسوفييتات . وكان لابد للبروليتاريا ان تبين لهم بالوقائع – وبجزم – انها لم تستول على السلطة لتسمح بمثل هذا المزاح المشكوك في هدفه على حسابها .

ان صاحبنا المثالي البورجوازي الصغير يرى في تدابيرنا المتخذة تجاه المثقفين « نتائج سياسة تهدف الى ارغام المثقفين على الانتماء لا بالاقناع بل بالكلام اللاذع . . . » (ص ١٢٩). ان كاوتسكي يتصور اذن بصورة جدية انه من الممكن دفع المثقفين الى المساهمة في البناء الاشتراكي عن طريق الاقناع وحده ، وهذا بينما ماتزال تسيطر على كل البلدان الاخرى بورجوازية لاتتراجع أمام استخدام أي وسيلة لتخيف أو ترشو أو تغري المثقفين الروس كي تجعل منهم أدوات استعباد روسيا واستعمارها .

وبدلاً من أن يحلل كاوتسكي مراحل الصراع ، يقدم وصفات مدرسية بصدد المثقفين . انه لمن الخطأ كلياً الاعتقاد بأن حزبنا قد حاول الاستغناء عن المثقفين لأنه لم يدرك دورهم في عملية اعادة التنظيم الاقتصادي والثقافي التي علينا ان نقوم بها . على العكس فبينما كان النضال من أجل الاستيلاء على السلطة وتوطيدها يبلغ أقصى درجات الحدة ، وبينما كانت غالبية المثقفين تلعب دور كتيبة هجوم تحت قيادة البورجوازية ، وتجاربنا

علناً أو تخرب مؤسساتنا ، كانت سلطة السوفييتات تحارب بلا شفقة « الاختصاصيين » لأنها كانت تدرك قيمتهم التنظيمية الكبيرة ماداموا يكتفون بتأدية المهام التي تعهد بها اليهم احدى الطبقات الاساسية ولا يومون الى ان تكون لهم سياستهم « الديموقراطية » الشخصية . ولم تتح لنا امكانية دعوة الاختصاصيين الى العمل إلا بعد ان تحطمت مقاومة المثقفين على اثر صراع ضار . وسرعان ماقمنا بهذه الدعوة . ولم يكن ذلك سهلاً . إذ كانت العلاقات القائمة في المجتمع الرأسمالي بين العامل ومدير المصنع ، بين المستخدم والمدير ، بين الجندي والضابط ، قد خلفت ريبة طبقية عميقة تجاه الاختصاصيين ، وهي ريبة قد ازدادت خلال المرحلة الاولى من الحرب الاهلية . وكان هؤلاء المثقفون قد استماتوا في محاولة قتل الثورة العمالية بالجوع والبرد ، ومهما كلفهم الثمن . وكان لابد من تهدئة حقد الشغيلة ، والانتقال من الصراع المحموم الى التعاون السلمي ، ولم يكن ذلك سهلاً فقد كان على الجماهير العمالية ان تتعود على ان ترى في المهندس المدني والزراعي والضابط ، لا مستغل الامس ، بل متعاون اليوم النافع ، الاختصاصي الضروري الموضوع تحت تصرف سلطة السوفييتات . ولقد بينا سابقاً كم يخطىء كاوتسكي حين ينسب الى سلطة السوفييتات نية متمذهبة في استبدال الاختصاصيين بالبروليتاريين . لكن مثل هذا الميل كان لابد حتماً ان يتجلى لدى جماهير البروليتاريا الواسعة . ان طبقة فتية أثبتت لنفسها قدرتها على التغلب على اكبر العقبات ، وقضت على هالة السحر الصوفي التي كانت تحمي سيادة الذين يملكون ، واقتنعت بأن « الفنون الانسانية ليست من صنع الآلهة » ، إن طبقة ثورية كهذه الطبقة تميل بالضرورة - او على الاقل عناصرها الاقل تطوراً - الى المبالغة في تقدير

قدرتها على حل جميع المسائل بدون اللجوء الى مساعدة الاختصاصيين البورجوازيين المثقفين .

وفي كل مرة تجلت فيها هذه الميول وإن بصورة غامضة ، حاربناها منذ اليوم الاول .

لقد قلنا في مؤتمر موسكو المديني فى ٢٨ آذار ١٩١٨ : « الآن وقد توطدت سلطة السوفييتات ، فان النضال ضد التخريب يجب ان يتجه الى تحويل مخربي الامس الى خدام ، الى وكلاء ، الى مديرين تكنيكيين اينما كان النظام الجديد بحاجة الى ذلك . واذا لم ننجح في ذلك ، واذا لم نجذب الينا كل القوى الضرورية لنا ، واذا لم نضعها في خدمة السوفييتات فان نضالنا بالامس ضد التخريب العسكري والثوري سيكون قد فشل وثبت عقمه ولا جدواه » .

« إن هؤلاء التكنيكيين ، هؤلاء المهندسين ، هؤلاء الاطباء ، هؤلاء المدرسين ، وضباط الامس اولئك ، يشتملون ، كالآلات الجامدة على جزء من رأسمالنا القومي ، علينا ان نستثمره ونستفيد منه اذا كنا نريد ان نحل بصورة عامة المشكلات الاساسية المطروحة علينا .

«ان الدمرقطة — وهي الف باء الابجدية بالنسبة الى كل ماركسي لا تقوم على نفي قيمة الكفاءات وقيمة الاشخاص المالكين لمعارف خاصة ، وعلى استبدالهم دوماً بمعاهد (مكاتب) منتخبة .

« ان المكاتب المنتخبة ، المكونة من خير عناصر الطبقة العاملة لكن التي لا تملك معارف تكنيكية ، لا تستطيع ان تحل محل التكنيكي

المتخرج من المدارس الخاصة والقادر على القيام بعمل خاص . ان نشر نظام المكاتب المنتخبة الذي نطبقه في كل الميادين ، هو ردالفعل الطبيعي لطبقة فتية ، ثورية ، كانت بالامس مضطهَدة ، ترفض السلطة الشخصية لسادتها بالامس ، ولأرباب العمل والمدراء ، وتستبدلهم في كل مكان بممثليها المنتخبين . اقول ان هذا رد فعل ثوري وطبيعي تماماً وسليم في منشأه . لكنه ليس الكلمة الاخيرةفي البناءالاقتصادي للدولةالبروليتارية .

« إن سيرنا اللاحق يتطلب من المكاتب المنتخبة ان تحد نفسها بنفسها . يتطلب من الطبقة العاملة ان تقوم بعملية تضييقذاتيسليم ومفيد لسلطاتها ، تمكنها من تقرير الحالات التي يجب ان تعودفيها الكلمةالاخيرة الى ممثل العمال المنتخب ، والحالات التي ينبغي فيهـا ان يفسح المجال للاختصاصي ، للتكنيكي المسلح بمعارف خاصة ، والقابل لأن يتحمل مسؤولية كبيرة ، لكن الذي لابد في الوقت نفسه ان يخضع ، على الصعيد السياسي ، لرقابة مشددة . إلا أنه لابد ان تترك للاختصاصيين حرية العمل والنشاط الخلاق ، ذلك انه مامن تكنيكي مهما كان قليل الموهبة ، يستطيع ان يعمل في مجال اختصاصه إذا كان تابعاً لمكتب مكون من اشخاص معدومي الكفاءة .

« ان الذين يخشون هذه الضرورة يدللون على ريبة لاشعورية عميقة تجاه النظام السوفياتي . والذين يتصورون اننا ، بعهدنا بالمناصب الفنية الى مخربي الامس ، نعرض للخطر مقومات النظام بالذات ، ينسون ان مامن مهندس ومامن جنرال يستطيع ان يطوح بالنظام السوفياتي- غير القابل للزعزعةاقتصادياً وسياسياً- هذا النظام الذي لايمكن ان يتعثر الا اذا عجز من نفسه عن حل مشكلات التنظيم الخلاق

« ان من الضروري لنظامنا ان يستخلص من المؤسسات القديمة كل ماهو حي وثمين فيها ، وان يستخدم كل شيء من اجل البناء الجديد .

« واذا لم نفعل ذلك . ايها الرفاق ، فاننا لن نكون قد قمنا بمهامنا الاساسية ، لأنه يستحيل علينا ان نرفض كل القوى المتراكمة في الماضي وان نجد في وسطنا جميع الاختصاصيين الضروريين .

« وبكلمة واحدة ، هذا يعني اننا نستنكف عن الاستفادة من جميع الآلات التي ساهمت حتى الآن في استغلال الشغيلة ، وان هـــذا لجنون . ان تشغيل الاختصاصيين الاكفاء لايقل ضرورة بالنسبة لنا عن استملاك جميع وسائل الانتاج والنقل ، وبصورة عامةجميعثروات البلاد. ان علينا ـ وبدون تأخير ـ ان نجند التكنيكيين الاختصاصيين وان نخضعهم عملياً لالتزام العمل ، مقدمين لهم في الوقت نفسه مجالاً واسعاً للنشاط وفارضين عليهم الرقابة السياسية [1] » .

لقد انطرحت مسألة الاختصاصيين ،منذ البداية بصورةبالغةالحدة في الميدان العسكري . وانما في هذا الميدان حلت في البداية تحت ضغط ضرورة آمرة .

ان اشكال التنظيم الضرورية لإدارة الصناعة ووسائط النقل ، لم تكتمل بعد نهائياً الى يومنا هذا . والسبب في ذلك يرجع الى اننا ارغمنا في العامين الاولين ، على التضحية بمصالح الصناعة والنقل لحساب الدفاع

---

(١) : « العمل والانضباط والنظام ستنقذ جمهورية السوفييتات الاشتراكية » . موسكو ١٩١٨ . ان كاوتسكي يعرف هذا المنشور الذي يستشهد به مراراً عديدة الا ان هذا لايمنعه من اغفال المقاطع التي ذكرناها والتي توضح موقف سلطة السوفييتات تجاه المثقفين .

العسكري. وان مجرى الحرب الاهلية المتقلب كان من جهة اخرى ، عقبة امام علاقات طبيعية بين الاختصاصيين والسلطة السوفياتية . فلقد انضم التكنيكيون الاختصاصيون في الصناعة والنقل والاطباء والمدرسون والاساتذة الى جيوش دينيكين وكولتشاك المتقهقرة ،او اقتيدوا بالقوة. ولم يتصالح المثقفون بمجموعهم مع السلطة السوفياتية او لم يخضعوا امامها الا اليوم والحرب الاهلية تقارب نهايتها . وتأتي المشكلات الاقتصادية في الطليعة . والتنظيم العلمي للانتاج من اهم هذه المشكلات . وان مجالا واسعاً للنشاط ينفتح امام الاختصاصيين . والادارة العامة للصناعة تتركز بين يدي الحزب البروليتاري .

السياسة الدولية للسلطة السوفياتية

يرى كاوتسكي ان « البلاشفة قد امكنهم جمع القوى الضرورية للاستيلاء على السلطة السياسية ، لأنهم يشكلون الحزب الروسي الوحيد الذي طالب باصرار أشد من سائر الاحزاب الاخرى بعقد معاهدة للصلح ، بأي ثمن ، صلح منفرد ، دون ان يهتم بآثار مثل هذا العمل على الموقف السياسي الدولي ، ودون ان يفكر بالمساعدة التي يقدمها عن هذا الطريق لمشاريع الحكم الملكي الالماني في السيطرة العالمية ، هـذا الحكم الذي سيستفيدون من حمايته مـدة لا بأس بها من الزمن كما استفاد المتمردون الهنود او الارلنديون او الفوضويون الايطاليون » (ص ٤٢) .

ان كاوتسكي لا يعرف اذن من اسباب انتصارنا الا شيئاً واحداً: طموحنا الى السلم . انه لا يشرح البتة صلابة النظام السوفياتي عندما اعاد تجنيد جزء كبير من الجيش الامبراطوري ليدفع به بانتصار ، طوال

عامين ، اعداءه السياسيين .

ولاريب في ان شعار « السلام » لعب دوراً كبيراً في نضالنـا ، لكن على وجه التحديد لأنه رفع ضد الحرب **الامبريالية** . لم يكن الجنود المتعبون هم أشد الناس حماسة له بل العمال المتقدمون الذي لم يكن السلم يعني في نظرهم الراحة بل نضالاً لا هوادة فيه ضد المستغلين . وان هؤلاء العمال هم الذين وهبوا حياتهم فيما بعد على الجبهات السوفياتية باسم السلام.

ان القول باننا كنا نطلب السلام دون ان نهتم بمـا سيكون له من تأثير على الموقف الدولي ، انما هي فرية كان يرددها الكاديت والمنشفيك منذ زمن طويل . ان التوازي الذي يقام بيننا وبين القوميين الايرلنديين والهنود المناصرين لألمانيا يستند الى كون **الامبريالية** الالمــانية قد **حاولت** بالفعل ان تستخدمنا كما استخدمت الهنود والايرلنديين . لكن الشوفينيين الفرنسيين قد عملوا هم ايضاً على استخدام ليبكنيشت وروزا لوكسمبورغ وحتى كاوتسكي وبرنشتاين لمصلحتهم الخاصة . والمهم قبـل كل شيء ان نعرف اذا كنا قد سمحنا لهم باستخدامنا . فهل وجد العمال الاوروبيون في خط سلوكنا اي سبب ليربطونا بقضية الامبريالية الالمانية؟ يكفي أن نذكر سير مفاوضات بريست — ليتوفسك ، وانقطاعهــا المفاجىء ، والهجوم الالماني في ١٨ شباط ١٩١٨ ، لنكشف عن وقاحـة اتهام كاوتسكي والحق انه لم يقم الصلح بيننا وبين الامبرياليين الالمان ، لم يقم ولا يوماً واحداً . فلقد تابعنا الحرب في جبهات اوكرانيا والقفقاس ، بقدر ما كانت تسمح لنا قواتنا الضئيلة ، دون ان نعلنها صريحة . لقد كنا اضعف من ان نستطيع القيام بها على طول الجبهة الروسية — الالمانية ، ولقد حافظنا على وهم السلام لفترة من الزمن ، مستفيدين من رحيل معظم

القوات الالمانية الى الجبهة الغربية. واذا كانت الامبريالية الالمانية قد وجدت نفسها قوية بما فيه الكفاية عام ١٩١٧ و ١٩١٨، لتفرض علينا صلح بريست - ليتوفسك، بالرغم من كل الجهود التي بذلناها لنتحرر من هذه الانشوطة، فاننا ندين بذلك بشكل رئيسي للموقف المخزي الذي وقفه الاشتراكيون الديموقراطيون الالمان الذين كان كاوتسكي اجمل ديكتهم. لقد سويت مسألة صلح بريست - ليتوفسك في ٤ آب ١٩١٤. وفي ذلك الوقت، وبدلاً من ان يعلن كاوتسكي على الامبريالية الالمان الحرب التي طلبها فيما بعد من السلطة السوفياتية التي كانت ماتزال عاجزة من وجهة النظر العسكرية عام ١٩١٨، اقترح كاوتسكي التصويت على اعتمادات الحرب «في شروط معينة»، وسلك سلوكاً اقتضى شهوراً حتى يتضح ويتبين ما اذا كان مع الحرب او ضدها. وان هذا السياسي الرعديد الذي تخلى في اللحظة الحاسمة عن كل مواقف الاشتراكية الاساسية، يجرؤ على اتهامنا بأننا ارغمنا، في فترة معينة، على التراجع - تراجع مادي خالص - ولماذا؟ لأن الاشتراكيين - الديموقراطيين الالمان، الذين أفسدتهم الكاوتسكية التي تمثل الخور السياسي المستتر نظرياً، قد خانونا.

لم نكن اذن لنبالي بالموقف الدولي! لكن فيما يتعلق بهذا الموقف، فاننا نملك معياراً اعمق من معايير الآخرين، معياراً لايخوننا أبداً. ان الجيش الروسي لم يعد له وجود، كقوة عسكرية فعالة، منذ أيام ما قبل ثورة آذار. وكان تفسخه النهائي أمراً محتماً. ولو لم تندلع ثورة شباط، لكان النظام القيصري ساوم الحكم الملكي الالماني. لكن ثورة شباط، التي اجهضت هذه المساومة، على وجه التحديد لأنها كانت ثورة حقيقية، أطاحت نهائياً بالجيش القائم على المبدأ الملكي. كان هذا الجيش سيتفتت

كالتراب ، ان قبل شهر وان بعد شهر . ولقد كانت سيـــاسة كاوتسكي سياسة النعامة كان يغمض عينيه عن تفسخ الجيش ، ويطلق عبـــارات رنانة ، ويهدد بفصاحته وحلمها الامبريالية الالمانية .

وفي مثل هذه الشروط ، لم يكن أمامنا الا مخرج واحد :اعلان ضرورة السلم الذي اصبح نتيجةحتمية لعجز الثورة العسكري ، وتحويل هذا الشعار الى وسيلة للتأثير الثوري على شعوب أوروبا قاطبة ، بدلاً من أن ننتظر سلبياً مع كيرنسكي الكارثة العسكريه النهائية التي لو وقعت لدفنت تحت انقاضها ثورتنا ، والتسلحبشعور السلم ، واجتذابالبروليتاريا الاوروبية ، وبالدرجة الاولى العمال النمساويين - الالمان . وانمـــا بهذه الروح تابعنا مفاوضات السلام وحررنا مذكراتنا الى حكومات «التفاهم». ولقد تباطأنا ما أمكننا في مفاوضاتالصلح حتى نتيح لجماهير اوروباالعمالية الوقت لتفهم بدقة ووضوح ماهي السلطة السوفياتية وما هي سياستهـا . ولقد أثبت لنا اضراب كانون الثاني١٩١٨ في المانيا والنمسا ، اننا لم نضيع تعبنا . فلقد كان هذا الاضراب أول تمهيد جدي للثورة الالمانية . ولقد فهم الامبرياليون الالمان أننا خطر عليهم مميت . وكتاب لودندورف شاهد على أمور كثيرة . وصحيح ان الامبرياليين الالمان مـــاعادوا يغامرون بحملات صليبية مكشوفة ضدنا ، لكنهم كانوا لايحجمون ، حيثما يمكن لهم أن يشنوا علينا حرباً سرية بخداعهم عمالهم بمساعدة الاشتراكيـــين - الديموقراطيين الالمان ،عن فعلذلك : في اوكرانيا ، وعلى ضفاف الدون، وفي القفقاس . وفي روسيا الوسطي ، في موسكو، اتخذ الكونت ميرباخ مكانه ، منذ وصوله الى العاصمة الروسية ، على رأس كل المؤامرات المناوئة للثورة الموجهة ضد السلطة السوفياتية ، تماماً كما كان الرفيق ايوفي يعقد في

برلين اواصر صلة وثيقة بالثورة الالمانية وكان اليسار الاقصى في الثورة الالمانية ، حزب كارل ليبكنيشت وروزا لوكسمبوغ ، يسير جنباً الى جنب معنا . ولقد اتخذت الثورة الالمانية، منذ البداية ، الشكل السوفياتي، ولم تشك البروليتاريا الالمانية ، رغم صلح بريست – ليتوفسك ، لحظـة واحدة في أننا مع ليبشكنيشت لا مع لودندورف . ولقد ذكر هـذا الأخير ، وهو يدلي بشهادته في تشرين الثاني ١٩١٩ أمام لجنة الرايخستاغ، كيف أن « القيادة العليـا طلبت انشاء مؤسسة هدفهـا كشف الروابط القائمة بين الميول الثورية الروسية والالمانية . وبعد وصول ايوفي الى برلين، انشئت قنصليات روسية في العديد من المدن الالمانية . ولقد كانت لهـذه الواقعة نتائج مؤسفة بالنسبة الى الجيش والاسطول » . اما كاوتسكي فانه يجد الشجاعة الحزينة ليكتب : « اذا كانت الامور قد وصلت الى حدود الثورة في المانيا ، فهذه في الحقيقة ليست غلطتهم (البلاشفة) » (ص ١١٠ – ١١١) .

وحتى لو اتيحت لنا الامكانية في عام ١٩١٧ و ١٩١٨ لنبقي ، بواسطة استنكاف ثوري ، على الجيش القيصري القديم ، بـــدلاً من أن نعجل بتدميره ، لكنا بكل بساطة قد أدينا خدمة « للتفاهم » بمساعدته على تخريب ونهب المانيا والنمسا وسائر بلدان العالم . ولو اتبعنا مثل هـــذه السياسة ، لكنا وجدنا أنفسنا ، في اللحظة الحاسمة، مجردين تماماً من السلاح شأن المانيا في الساعة الراهنة ، في حين ان بلدنا هو في هذا الوقت ، وبفضل ثورة تشرين الاول وصلح بريست – ليتوفسك ، البلد الوحيد الذي يقف في وجه الحلفاء والبندقية في يده . ان سياستنا الدولية لم تمنع هوهنزولرن من احتلال مركز عالمي مهيمن فحسب ، بل لقد ساهمنا أيضاً على العكس

مساهمة كبيرة في سقوطه بفضل انقلابنا في تشرين الاول ولقد كفلنا لأنفسنا في الوقت نفسه فترة من الراحة العسكرية مكنتنا من انشاء جيش قوي كبير العدد ، الجيش البروليتاري الاول في تاريخ العالم ، جيش لاتستطيع أن تتغلب عليه كلاب « التفاهم » الأليفة .

لقد اجتزنا احرج فترة من فترات موقفنا الدولي في خريف ١٩١٨ ، بعد تقهقر الجيوش الالمانية . فبدلاً من ان نواجه معسكرين قويين يجمد كل منهما الآخر الى حد ما ، واجهنا « التفاهم » المنتصر ، في اوج قوته العالمية ، والمانيا المحروقة التي كان رعاع العسكريين فيها سيرحبون أعظم الترحاب بالقفز على رقبة البروليتاريا الروسية مقابل عظمة يلقي بها اليهم مطبخ كليمانصو . ولقد اقترحنا الصلح على « التفاهم » وكنا مستعدين (مادمنا مرغمين) للتوقيع على اقسى الشروط . لكن كليمانصو ، الذي حافظ جشعه الامبريالي على كل ملامح غبائه البورجوازي ، رفض ان يمنح الجنكر الالمان العظمة التي كانوا يطمعون فيها ، وقرر في الوقت نفسه ان يزين فندق الانفاليد بجلود قادة روسيا السوفياتية المسلوخة . ولقد ادت لنا سياسته خدمة عظيمة . فدافعنا عن انفسنا بنجاح وصمدنا بقوة حتى هذا اليوم .

ما كانت اذن الفكرة الموجهة لسياستنا الخارجية ، بعد ان كشفت الشهور الاولى من ممارسة السلطة السوفياتية عن الاستقرار المتين الذي ترتع فيه حكومات اوروبا الرأسمالية ؟ هذا على وجه التحديد ما يريد كاوتسكي ، بارتباك عظيم ، ان يفسره الآن على انه ابن الصدفة :**ارادتنا في الصمود** . لقد فهمنا بوضوح تام ان وجود السلطة السوفياتية بالذات

هو حدث بالغ الأهمية الثورية ولقد أملت علينا هـذه الفكرة المضيئة تنازلات وتراجعات مؤقتة ، لا في مجال المبادىء ، بل في مجال التنازلات العملية الناجمة عن التقدير الصحيح والدقيق لقوتنا الذاتية . كنا ننسحب ، عند الحاجة ، مثل الجيش الذي يسلم العدو مدينة بل حصناً ، كيما يجمع من جديد ، بعد حركة التقهقر هذه ، قواه لا من أجل الدفاع فحسب بل من أجل الهجوم ايضاً . كنا ننسحب كالمضربين الذين لم تعـد لديهم لا القوى ولا الموارد في اليوم الراهن ، لكن الذين يستعدون ، وهم يشدون على اسنانهم ، لاستئناف النضال في الغد ولو لم نكن مؤمنين ايمانـاً لا يتزعزع بالاهمية العالمية للدكتاتورية السوفياتية ، لما قبلنا بكل تضحيات بريست ـ ليتوفسك البالغة القسوة . ولو كان ايماننا يتناقض مـع حالة الامور الواقعية ، لكان التاريخ حكم على معاهـدة بريست ـ ليتوفسك بأنها استسلام غير مجد لنظام مقدر عليه الهلاك . وبالفعل هكذا كان يقدر الموقف لا أمثال كولمان فحسب ، بل ايضاً امثال كارتسكي في جميـع البلدان . اما نحن فلقد قدرنا تقديراً صحيحاً ضعفنا آنذاك وقوتنـا في المستقبل . وان وجود جمهورية ايبرت بانتخاباتها العامة وشعوذتها البرلمانية و « حرية » صحافتها واغتيالاتها للقادة العمال ، لا يضيف الا حلقة واحدة الى سلسلة العبودية والنذالة التاريخية اما وجود جمهوريـة السوفييتات فحدث ذو أهمية ثورية عظيمة . وكان لا بد من الحفاظ عليها بالاستفادة من نزاع الأمم الرأسمالية ، ومن استمرار الحرب الامبرياليـة ، ومن كبرياء آل هو هنزولرن ، ومن غباء البورجوازية العالمية في جميـع المسائل الأساسية المتعلقة بالثورة ، ومن تناحر اميركا واوروبا ، ومن العلاقات المعقدة المستغلقة بين البلدان المتحالفة . كان لا بد من قيـادة السفينة

السوفياتية ، التي لم يكتمل بناؤها بعد ، عبر بحر هائج ، بين الصخور والمهالك ، وإكمال تجهيزها وتسليحها اثناء الابحار .

ان كاوتسكي يقرر ان يتهمنا مرة اخرى بأننا لم نسر ، في مطلع ١٩١٨ ، ونحن ضعفـــاء وعزل من السلاح ، ضد عـــدو قوي . ولو فعلنا ذلك ، لكنا غلبنا على امرنا .[1] ولكانت اول محاولة جدية من قبل البروليتاريا للاستيلاء على السلطة قد باءت بالفشل التام . ولكان اليسار الثوري من البروليتاريا الاوروبيـة قد تلقى ضربة هي من اشد الضربات ايلاماً . ولكان « التفاهم » قد وقع الصلح مع هوهنزولرن فوق جثة الثورة الروسية ، ولكانت الرجعية الرأسمالية العالمية قد حصلت على الراحة لعدة سنوات . ان كاوتسكي يفتري علينا بلا حياء حين يقول اننا لم نفكر ، عند توقيع صلح بريست ، بالأثر الذي سيخلفه على مصائر الثورة الالمانية . لقد ناقشنا المسألة في حينـه من كل وجهات النظر ولم ننطلق إلا من معيار واحد ، معيار مصالح الثورة العالمية ، وتوصلنا الى

---

(١) تعارض الجريدة الفييناوية « آربايتر زايتونغ » كما هي العادة بين الشيوعيين الروس ، الحكماء العقلاء ، وبين الشيوعيين النمساويين . وقد كتبت الجريدة : « ألم يوقع تروتسكي ، بنظرته الثاقبة وتفهمه لما هو ممكن ، معاهدة بريست ليتوفسك الاجبارية ، رغم أنها ساعدت في تدعيم الامبريالية الالمانية ؟ لقد كان صلح بريست – ليتوفسك لا يقـل قسوة وخزيا عن صلح فرساي . فهل معنى هذا انه كان على تروتسكي ان يتابع الحرب ضد المانيا ؟ أما كانت الثورة الروسية ستقضي نحبها منذ زمن بعيد لو فعلت ذلك ؟ لقـد انحنى تروتسكي امام الضرورة المحتمة ووقع المعاهدة المخزية متنبئا بالثورة الالمانية » . ان الفضل في التنبؤ بجميع نتائج صلح بريست - ليتوفسك يعود الى لينين . لكن هذا لا يغير شيئا ، بالطبع ، في طريقة تفكير الجريدة الفييناوية « التروتسكية » .

الاستنتاج بأن هذه المصالح تقتضي بصورة ملحـــة الحفاظ على السلطة السوفياتية ، الواحدة الوحيدة في العالم . ولقد كنا على حق لكن كاوتسكي كان ينتظر سقوطنا ، بلا نفاد صبر من الجائز ، لكن بثقة لاتتزعزع ، وانما على هذا السقوط المأمول بنى كل سياسته الدولية .

ان ضبط محضر جلسة حكومة التحالف في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٨ ، الذي نشرتة وزارة بوير ، يتناول : ١ - استئناف النقاش حول المسأله المتعلقة بموقف المانيا من الجمهورية السوفياتية . ويوصي هآز بسياسة الإرجاء ، ويؤيـــد كاوتسكي رأي هآز ، فيقول : « يجب ان نرجيء القرار الحاسم في المسألة لأن الحكومة السوفياتية لن تستطيع ان تحافظ على نفسها وستسقط حتماً خلال اسابيع معدودة ... » اذن ، في اللحظة التي كان فيها وضع السلطة السوفياتية بالفعل غير ثابت وضعيفاً للغاية ، ولأن تقهقر العسكرية الالمانية بدا وكأنه يتيح « للتفاهم » امكانية ابادتنـا « في اسابيع معددوة » ، لايبدي كاوتسكي اي رغبة في نجدتنا ، وهو لايكتفي بغسل يديه ، بل يساهم مساهمة ايجابية في خيانة روسيا الثورية . ان كاوتسكي كي يسهل دور شايدمان الذي اصبح المحامي الامين عن البورجوازية ، وبدلاً من ان يكون حافر قبرها حسب الدور الذي ينسبه اليه برنامجـــه الخاص ، يهرع ليصبح هو نفسه حافر قبر الـسلطة السوفياتية . لكن السلطة السوفياتة حية وستظل على قيد الحياة بعد ان يفنى حفارو قبرها قاطبة .

- ٨ -

مسائل تنظيم العمل

سلطة السوفييتات والصناعة

اذا كانت اخطر مآخذ العالم البورجوازي قد وجهت ، في المرحلة الاولى من الثورة السوفياتية ، الى قسوتنا وروحنا الدموية ، فقد اخذوا مؤخراً ، بعد ان بليت هذه الحجة ووهنت من كثرة الاستعمال، يحملوننا مسؤولية الفوضى الاقتصادية في البلاد . وان كاوتسكي يعبر بصورة منهجية ، تناسباً مع مهمته الراهنة ، وبلغة تدعي الماركسية ، عن جميع اتهامات البورجوازية التي تنسب الى السلطة السوفياتية مسؤولية خراب الصناعة الروسية . لقد شرع البلاشفة في التشريك بدون خطة مدروسة وشركوا مالم يكن ناضجاً للتشريك ، والطبقة العاملة الروسية غير مستعدة بعد لتسيير الانتاج ، الخ ...

ان كاوتسكي يعاند ، وهو يكرر هذه الاتهامات الرئيسية المتنوعة ويؤلف بينها ، في المرور مرور الكرام بالاسباب الجوهرية

لفوضانا الاقتصادية : الجزرة الامبريالية والحرب الاهلية والحصار .

لقد وجدت حكومة السوفييتات نفسها ، منذ الاشهر الاولى لوجودها ، محرومة من الفحم والبترول والمعدن والقطن . ثم فصلت الامبريالية النمساوية - الالمانية ، وامبريالية « التفاهم » فيما بعد ، فصلت روسيـــا السوفييتات عن حوض دونتز الفحمي والمعدني ، وعن مناطق القفقاس البترولـيـــة ، وعن تركستان التي كانت تزودنا بالقطن ، وعن الاورال ومناجمها الغنية ، وعن سيبيريا الغنية بالماشية والحبوب . لقد كان حوض الدونتز يزود صناعتنا عادة بـ ٩٤ ٪ من الفحم الحجري وبـ ٧٤ ٪ مما تستهلكه من الفلزات . وكانت لاورال تقدم البقية ، ٢٠ ٪ من الفلزات و ٤ ٪ من الفحم الحجري . وخلال الحرب الاهلية ، فقدنا هاتين المنطقتين . وفقدنا في الوقت نفسه الثمانية ملايين طن من الفحم الذي كنا نتلقاه من الخارج . وبقينا في الوقت نفسه بدون بترول ، بعد أن وضع العدو يده على جميع الآبار . ولابد ان يكون عقل الانسان من قصديرحتى يتكلم ، في مثل هذه الشروط ، عن الأثر السلبي للتشريكات والسابقة لأوانها ، و « البربرية » الخ ، على صناعة محرومة كلياً من الوقود والمواد الأولية ان المصنع ، سواء أكان ملكاً لتروست رأسمالي ام لدولة عمالية ، وسواء أكان مؤمماً أم لا ، فان مداخنــه لاتستطيع ان تدخن بدون فحم وبدون بترول . ونستطيع ان نأخذ درساً من النمسا - وحتى من المانيــــا . ان مامن مصنع للنسيج يدار حسب طرائق كاوتسكي الحكيمة - هذا اذا ارتضينا ولو للحظة انه يمكن ان يدار شيء مابطرائق كاوتسكي اللهم الا المجبرة يمكن ان ينتج نسيجاً قطنيـاً اذا لم يزود

بالقطن الخام . والحال اننا قد حرمنا في آن واحد من قطن تركستان وقطن أميركا . وعلاوة على ذلك ، ولنكرر هذه الحقيقة ، فقد كنا نفتقر الى الوقود .

يقيناً لقد كان الحصار والحرب الاهلية نتيجة الثورة البروليتارية في روسيا ، لكن لاينتج عن ذلك البتة ان ظاهرات الخراب العديدة التي أدى اليها الحصار الانكلو - فرنسي وحملات النهب التي قام بها دينيكين وكولتشاك،يمكن ان تنسب الى عدم فعالية الطرائق الاقتصادية السوفياتية .

ان الحرب الامبريالية التي سبقت الثورة كانت ، بمتطلباتها المادية والتكنيكية التي لاتشبع ، أثقل بكثير على صناعتنا الفتية منها على صناعة أقوى البلدان الرأسمالية . ولقد تأثرت بذلك ، بصورة خاصة ، وسائط نقلنا . فلقد ازداد استثمار سكك الحديد بشكل ملحوظ ،مما أدى بالطبع الى اهترائها ، دون ان تجدد بالمقابل بنسبة الاهتراء نفسها . ومما عجل بتسوية الحساب المحتمة أزمة الوقود . ان خسارة فحم الدونتز وبترول القفقاس في آن واحد تقريباً قد أرغمتنا على اللجوء الى استعمال الحطب من أجل سكك الحديد . ولم يكن احتياطي الحطب قد أعد لهذا الغرض فكان لابد من استعمال الحطب الحديث القطع ، الندي ، وهذا ما كان له أثر سيء على القاطرات المتعبة بالأصل . اننا نرى اذن أن الاسباب الرئيسية لخراب المواصلات الروسية قد أثرت قبل تشرين الثاني ١٩١٧ . لكن الاسباب المرتبطة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بثورة تشرين الاول لاتمس مطلقاً طرائق الاقتصاد السوفياتي ، وان كان ينبغي ان نذكرها بين النتائج السياسية للثورة .

وبديهي ان أثر الهزات السياسية لم يتجل فقط في أزمة المواصلات والوقود . واذا كانت الصناعة العالمية تميل أكثر فأكثر، في العقود الاخيرة الى ان تشكل جهازاً عضوياً واحداً ، فان هذا الميل كان ملحوظاً بصورة خاصة في الصناعة الوطنية . الا ان الحرب والثورة مزقتا وقطعتا أوصال الصناعة الروسية . ان الدمار الصناعي في بولونيـــا ومناطق البلطيق وبترسبورغ ، قد بدأ في عهد القيصرية ، واستمر في عهد كيرنسكي ممتداً بلا انقطاع الى أقاليم جديدة .

ولقد عملت عمليات الاجلاء اللامتناهية ، بالاضافة الى دمار الصناعة ، على دمار المواصلات ايضاً . فأثناء الحرب الاهليـــة حيث كانت تتبدل الجبهات ، اتخذت عمليات الاجلاء طابعاً محموماً وأشد تدميراً . وكان الطرفان ، كلما هجرا مؤقتاً أحد المراكز الصناعية ، يتخذان كل التدابير المعقولة حتى يستحيل على الخصم استخدام المصانع : فكانت أثمن الآلات وأدق قطع الغيار تنقل ويؤخذ معها خير التكنيكيين وخير العمال . وكان الاجلاء يتبعه اجلاء ثان يجهز في غالب الاحيان على تدمير الكثير من الآلات المنقولة والكثير من سكك الحديد . وهكذا انتقلت عدة أقاليم صناعية هي من خير الاقاليم – وبخاصة في اوكرانيا ومنطقة الاورال – من يد الى يد مراراً وتكراراً .

ولنضف الى هذا انه في الوقت الذي كان فيه تدمير الآلات الصناعية يأخذ نسباً لامثيل لها ، توقف تماماً استيراد الآلات من البـلاد الاجنبية ، هذا الاستيراد الذي لعب في الماضي دوراً حاسماً في صناعتنا .

ولم تكن عناصر الصناعة المادية – المبـاني والآلات والسكك

والوقود – هي وحدها التي عانت من نتائج الحرب والثورة الرهيبة هذه. بل عانت من ذلك ايضاً القوة الحية ، خلاقة الصناعة ، البروليتاريا ، بالقدر نفسه ان لم نقل اكثر . لقد صنعت البروليتاريا ثورة تشرين الاول ، وبنت وحمت نظام السوفييتات ، وخاضت نضالا متواصلا ضد البيض . والحال ان العمال المختصين هم بصورة عامة اكثر العمال تقدماً . لقد انتزعت الحرب الاهلية طوال حقبة طويلة عشرات الآلاف من العمال من العمل الصناعي . وقد فقدنا الآلاف منهم بصورة لاتعوض . ان أثقل أعباء الثورة الاشتراكية تقع على كاهل الطليعة البروليتارية ، وبالتالي على الصناعة.

لقد تركز كل اهتمام حكومة السوفييتات ، طوال عامين ونصف عام ، على المقاومة بالسلاح . وكانت خير قواها وأهم مواردها ترسل الى الجبهة .

ان الصراع الطبقي يسيء بصورة عامة الى الصناعة . وان جميع الفلاسفة الذين جعلوا من أنفسهم رسل الانسجام الاجتماعي قد أخذوا عليه هذا المأخذ منذ زمن بعيد . ان العمال ، أثناء الاضرابات الاقتصادية العادية ، يستهلكون دون أن ينتجوا . وان الصراع الطبقي في أكثر أشكاله حدة – الصراع بالسلاح – يوجه ضربات أرهب . لكن من البديهي اننا لانستطيع البتة ان نعتبر الحرب الاهلية طريقة اقتصادية اشتراكية.

ان الاسباب التي عددناها هي أكثر من كافية لتفسير الوضع الاقتصادي غير الثابت والمؤقت لروسيا السوفييتات . لا وقود ، لا معادن لا قطن ، والمواصلات مهدمة ، والآلات معطوبة ، واليد العاملة مشتتة في البلاد بعد ان فني قسم كبير منها في الجبهات . فهل نبحث بعد هذا في

طوبائية البلاشفة الاقتصادية عن سبب اضافي لتدهور صناعتنا ؟ على العكس فكل سبب من الاسباب المشار اليها يكفي للايحاء بطرح السؤال التالي : كيف أمكن ، في مثل هذه الشروط ، الحفاظ على بعض النشاط في المصانع والمعامل ؟

والحال ان مثل هذا النشاط موجود، وبخاصة في الصناعة العسكرية التي تعيش اليوم على حساب كل صناعة أخرى . ولقد كان على سلطة السوفييتات ان تعيد خلقها ، كما أعادت خلق جيشها ، من الانقاض التي تركت لها . ان الصناعة العسكرية ،التي أعيد بناؤها في مثل هذه الشروط البالغة الصعوبة ، قد أدت ومازال تؤدي مهمتها : فالجيش الاحمر موفور اللباس والاحذية والسلاح . ولديه البنادق ، والرصاص ، والقنابل ، والطائرات ، وكل ماهو ضروري له .

وما ان لمحنا بارق السلام ،بمثل خاطف البرق ، بعد سحق كولتشاك وبودينيتش ودينيكين ، حتى طرحنا مسائل تنظيم الصناعة بكل اتساعها . ولقد كفت ثلاثة أو أربعة شهور من النشاط الكثيف في هذا المجال ، لتقطع الطريق على كل شك في ان سلطة السوفييتات ،بفضل صلتها الوثيقة بالجماهير الشعبية ، وبفضل مرونة جهاز دولتها ومبادهتها الثورية ، تتمتع من أجل بعث النهضة الاقتصادية بموارد وطرائق لاتملكها ولن تملكها أي دولة أخرى .

صحيح ان مسائل جديدة قد انطرحت أمامنا ، وانه كان علينا ان نواجه صعوبات جديدة . فالنظرية الاشتراكية لا تملك ولا تستطيع ان تملك أجوبة جاهزة على كل هذه الاسئلة . وانما عن طريق التجربة يجب

ان نجد الحلول ، وانما عن طريق التجربة يجب ان نتحقق من صلاحيتها . ان الكاوتسكية متخلفة عصراً كاملا عن المشكلات الضخمة التي حلتها سلطة السوفييتات انها تسير ، في اهاب المنشفيكية ، في خط متردد ، معارضة تدابير بنائنا الاقتصادي بالآراء المسبقة وليدة الريبية البورجوازية الصغيرة ، الفكرية ، والبيروقراطية .

وكي يطلع القارىء على ماهية هذه المسائل التي لها علاقة بتنظيم العمل ، كما تنطرح علينا اليوم ، فان مؤلف هذا الكتاب يعتقد انه يحسن العمل اذا نسخ ههنا التقرير الذي قدمه الى المؤتمر الروسي الموحد الثالث للنقابات . ومن أجل المزيد من الوضوح ، فان القارىء سيجد التقرير مكملا بمقاطع عديدة مأخوذة من التقارير التي قدمها المؤلف الى المؤتمر الروسي الموحد لسوفييتات الاقتصاد الشعبي والى المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الروسي .

تقرير عن تنظيم العمل

ايها الرفاق ! ان الحرب الاهلية تقارب على الانتهاء . والموقف مايزال غامضاً في الجبهة الغربية . وما تزال هناك امكانية لأن توجه البورجوازية البولونية تحدياً الى مصيرها الخاص .. لكن اذا ماحدث هذا ــ ونحن لانفعل شيئاً بغرض حدوثه ــ فان الحرب لن تتطلب منا ذلك التوتر المفترس لقوانا الذي تطلبه القتال في أربع جبهات في آن واحد . ان ضغط الحرب الرهيب يتراخى . وان الضرورات والمهام الاقتصادية تجذب اهتمامنا أكثر فأكثر . وان التاريخ يعيدنا مباشرة الى مهمتنا الاساسية : تنظيم العمل على أسس اجتماعية جديدة . والحق ان تنظيم العمل

يعني تنظيم المجتمع الجديد ، باعتبار ان كل مجتمع يقوم على تنظيم العمل . واذا كان كل مجتمع قديم يقوم على تنظيم العمل لصالح الاقلية التي تتمتع بجهاز القمع الحكومي ضد غالبية الشغيلة الساحقة ، فاننا نقوم في التاريخ العالمي بأول محاولة لتنظيم العمل لصالح الغالبية الكادحة . الا ان هذا لايستبعد عنصر الاكراه بكل أشكاله ، من ألطفها الى أقساها . ان عنصر الاكراه والقمع لايبقى على المسرح التاريخي فحسب ، بل سيلعب على العكس دوراً بالغ الأهمية خلال حقبة لابأس بها من الزمن .

ان الانسان سيحاول دوماً ، حسب القاعدة العامة ، ان يتجنب العمل ان المثابرة ليست فطرية فيه . بل تلد نتيجة الضغط الاقتصادي وتربية الوسط الاجتماعي . ويمكن القول : ان الانسان حيوان كسول بما فيه الكفاية . والواقع ان التقدم البشري يقوم الى حد كبير على هذه الصفة . ولو لم يسع الانسان الى توفير قواه ، ولولم يبذل ما بوسعه ليحصل على اقصى حد من المنتجات بأدنى حد من الجهد ، لما كان هناك تطور في التكنيك أو في الثقافة الاجتماعية . ومن هنا ، من هذه الزاوية ، فان كسل الانسان قوة تقدمية . ان انطونيو لابريولا الهرم ، الماركسي الايطالي ، قد صور انسان المستقبل بأنه « مكسال سعيد وعبقري » . الا انه لاحاجة البتة الى الاستنتاج من هذا بأن على الحزب والنقابات ان تجعل من هذه الصفة واجباً اخلاقياً . بالتأكيد لا . فنحن في روسيا لا نشكو الا من كثرتها . ان مهمة التنظيم الاجتماعي تكمن على وجه الدقة في سجن « الكسل » في أطر محددة ، حتى يمكن ضبطه ، وحث الانسان بمساعدة الوسائل والتدابير التي تخيلها بنفسه .

الزامية العمل

ان مفتاح الاقتصاد هو اليد العاملة ، سواء أكانت مختصة ، أم ضعيفة التخصص ، أم نصف مختصة ، أم بدائية ، الى آخره . وان ايجاد الوسائل لاحصائها بدقة ، وتجنيدها ، وتوزيعها ، واستخدامها بصورة منتجة ، يعني عملياً حل مشكلة بنائنا الاقتصادي . انها مهمة عصر كامل ، مهمة عظيمة . وصعوبتها تتعقد من واقع انه يتوجب علينا ان نعيد تنظيم العمل على أسس اشتراكية في شروط من الفقر والفاقة المريعة لم يشهد أحد قط مثيلها .

وكلما اهترأت آلاتنا ، وكلما تخربت وسائط نقلنا وسككنا الحديدية ، وكلما تضاءل حظنا في ان نتلقى من الخارج في مدى قريب كمية ما من الآلات مهما تكن ضئيلة ، ازدادت أهمية مسألة اليد العاملة . اننا نملك ، على مايبدو ، بدأً عاملة كبيرة الاهمية . لكن ما الطريق المؤدية اليها ؟ كيف نقودها الى البناء ؟ كيف ننظمها صناعياً ؟ لقد سبق ان اصطدمنا ، إثناء عمليات ازاحة الثلوج التي سدت هذا الشتاء سككنا الحديدية ، بصعوبات كبيرة . اننا لانملك أي امكانية للتغلب على هذه الصعوبات بشراء اليد العاملة ، نتيجة لتدهور قيمة النقد وعدم وجود بضائع مصنوعة . وان حاجاتنا من الوقود لايمكن ان تشبع ، ولوجزئياً بدون استخدام كثيف ، لم تشهد البلاد مثله قط ، للقوة العاملة من أجل قطع الحطب واستخراج التراب النفطي والفحم الحجري . لقد دمرت الحرب الاهلية السكك الحديدية والجسور والمحطات . ولابد من عشرات ومئات الآلاف من الشغيلة لاعادة كل شيء الى وضعه الطبيعي . ولابد

من منازل للشغيلة ، ولو كانت اكواخا مؤقتة ، من أجل انتاج واسع المدى لحطب التدفئة والتراب النفطي ومن أجل الاعمال الاخرى . ومن هنا كانت ، من جديد ، ضرورة يد عاملة هامة لأعمال البناء . كما ان كمية كبيرة من اليد العاملة ضرورية لتنظيم الاسطول وهكذا ودواليك .

لقد كانت الصناعة الرأسمالية تتمون الى حد كبير باليد العاملة المساعدة من بين عناصر الريف المهاجرة . ان نقص الاراضي القابلة للزراعة الذي كان يضغط بقسوة، كان يقذف باستمرار الى السوق بكمية احتياطية من اليد العاملة . وكانت الدولة ترغمها على بيع نفسها بزيادة الضرائب . وكانت السوق تقدم بضائع للفلاح . وفي الساعة الراهنة لم يعد لهذا الوضع وجود . ان لدى الفلاح الآن اراضي اكثر، لكن لما كان يفتقر الى أدوات الحراثة ، فانه بحاجة الى المزيد من القوة العاملة . ثم ان الصناعة قد أصبحت عاجزة تقريباً عن ان تقدم أي شيء للريف ، ولم تعد السوق تمارس أي جذب لليد العاملة .

الا اننا بحاجة الى هذه اليد العاملة اكثر من أي وقت مضى . وليس العامل هو الوحيد الذي يتوجب عليه ان يعطي السلطة السوفياتية قوته حتى لا تسحق روسيا الكادحة ومعها الشغيلة أنفسهم ، بل نحن بحاجة ايضاً الى قوة الفلاحين . والطريقة الوحيدة للحصول على اليد العاملة اللازمة للمهام الاقتصادية الراهنة هي تطبيق **الزامية العمل**

ان مبدأ الزامية العمل بالذات هو مبدأ غير قابل للنقاش بالنسبة الى الشيوعيين : « من لا يعمل لا يأكل » . ولما كان على الجميع ان يأكلوا، فالجميع مرغمون بالتالي على العمل . لقد نص دستورنا وقانون العمل على

إلزامية العمل . لكنها لم تكن حتى الان الا مجرد مبدأ . ولم يأخذ تطبيقه الا طابعاً عرضياً وجزئياً ومؤقتاً . وان ضرورة الزامية العمل لم تنطرح علينا بكل حدتها الا اليوم ونحن نواجه المسائل التي يطرحها واجب النهوض بالبلاد . ان الحل النظامي الوحيد ، مبدئياً وعملياً ، للمصاعب الاقتصادية يقوم على اعتبار جميع سكان البلاد مستودعاً ضرورياً للقوة العاملة — منبعاً لاينفد تقريباً — وعلى تنظيمهم تنظيماً متيناً بواسطة الاحصاء والتجنيد والاستخدام .

فكيف نجند عملياً اليد العاملة على أساس إلزامية العمل ؟

حتى اليوم ، كانت وزارة الحربية هي الوحيدة التي تملك تجربة في مجال الاحصاء والتجنيد والتدريب وتوزيع الجماهير الواسعة . ولقد ورثت وزارة الحربية طرائقها وأساليبها الفنية من الماضي الى حد بعيد . ولم يقدر لنا ان نتلقى مثل هذا الارث في المجال الاقتصادي لأنه كان يسيطر عليه مبدأ الملكية الخاصة ولأن اليد العاملة كانت تتدفق الى مختلف المشاريع من سوق العمل مباشرة . لقد كان من الطبيعي اذن يوم كنا مرغمين ، وبخاصة في الاونة الاولى ، ان نستخدم على نطاق واسع جهاز وزارة الحربية لتعبئة القوى العاملة .

لقد أنشأنا في المركز والاقاليم أجهزة خاصة لوضع الزامية العمل موضع التنفيذ . وتعمل اليوم لهذا الغرض لجان خاصة في الحكومات والمحافظات والكانتونات . وهي تعتمد بصورة رئيسية على الاجهزة المركزية والمحلية التابعة لوزارة الحربية . ومراكزنا الاقتصادية: «المجلس الاعلى للاقتصاد الشعبي» ، و «قوميسارية الزراعة» ، و «قوميسارية

الطرق والمواصلات » ، و « قوميسارية التموين » ،تحدد بنفسها مايلزمها من اليد العاملة . وتتلقى « اللجنة المركزية لالزامية العمل » كل هذه الطلبات ، وتنسقها ، وتلائم بينها وبين مصادر اليد العاملة المحلية ،وتصدر التعليمات المناسبة لأجهزتها المحلية ،وتحقق بواسطتها تعبئة القوى العاملة . أما على نطاق الاقاليم والحكومات والمحافظات ، فان الاجهزة المحلية تنفذ بصورة مستقلة ذاتياً هذا العمل بهدف تلبية الحاجات الاقتصادية المحلية .

ان هذا التنظيم كله لم ترسم معالمه إلا بصورة عامة للغاية . ولابد له ليكتمل من عمل الشيء الكثير . لكن الطريق التي نسير فيها هي بدون ادنى ريب الطريق الصالحة .

اذا كان تنظيم المجتمع الجديد يعتمد كأساس على تنظيم جديد للعمل ، فان هذا التنظيم يقتضي بدوره التطبيق النظامي لالزامية العمل . ان التدابير الادارية والتنظيمية غير كافية لانجاز هذه المهمة . ان هذه المهمة تشمل أسس الاقتصاد العام وأسس الوجود بالذات . انها تصطدم بالاراء المسبقة وبالعادات البسيكولوجية . وان وضع الزامية العمل موضع التنفيذ يفترض ، من جهة اولى ، عملاً تربوياً جباراً ، ويفترض من الجهة الثانية اكبر الحذر في الطريقة العملية لتطبيقها .

ان استخدام اليد العاملة يجب ان يتم بأكبر قدر من التوفير . ولابد عند تعبئة القوة العاملة من ان نأخذ بعين الاعتبار شروط الوجود الاقتصادي لكل منطقة ، وحاجات الصناعة الزراعية لدى السكان القرويين . وينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار الى اقصى حد ممكن الموارد الموجودة مسبقاً والعناصر المهاجرة المحلية ، الخ . وينبغي ان يتم توزيع اليد العاملة المعبأة

على مسافات صغيرة ، أي ان تؤخذ من أقرب القطاعات الى جبهة العمل . وينبغي ان يتناسب عدد الشغيلة المعبئين مع أهمية المهمة الاقتصاديـــة . وينبغي أن يزود الشغيلة المجندون في الوقت المناسب بالمؤن وأدوات العمل وينبغي ان يكون فوق رؤوسهم معلمون مجربون يتمتعون بروح المبادهة وينبغي ان يقتنع الشغيلة فعلياً بأن يدهم العاملة تستخدم بتبصر واقتصاد وأنها لاتبذر عبثاً . ويتوجب علينا ، اينما أمكننا ، أن نستبدل التعبئة المباشرة بالمهمة ، أي أن نفرض على كانتون معين الالتزام بأن يقدم ، في مدة معينة ، كذا متراً مكعباً من الخشب ، او ان ينقل الى هذه المحطة او تلك كذا قنطاراً من الفلزات ، الخ . ومن الضروري في هذا المجال ان نستفيد من الخبرة المكتسبة ، وان نعطي النظام الاقتصادي أكبر قدر من المرونة ، وان نبرهن عـــلى مزيد من الاهتمام بالمصالح المحلية والعادات المحلية . وبكلمة واحدة ، علينا ان نحسن ونعدل الى حد الكمال الطرائق والمناهج والاجهزة المخصصة لتعبئة اليد العاملة . لكن لابد أيضاً من ان نقتنع مرة واحدة ونهائية بفكرة ان مبدأ الزامية العمل بالذات قد حل بصورة جذرية ودونما رجعة محل مبدأ التطوع الاختياري ، تماماً كما ان تشريك وسائل الانتاج قد حل محل الملكية الرأسمالية .

تطبيق النظام العسكري على العمل

ان الزامية العمل ستكون مستحيلة بدون تطبيق مناهج النظام العسكري على العمل في حدود معينة . وان هـــذا التعبير يقودنا دفعة واحدة الى ميدان تتطير منه المعارضة وتقيم حوله الضجة أكثر من أي ميدان آخر .

وكي نفهم مانعنيه بتطبيق النظام العسكري على العمل في الدولة العمالية ، وماهي مناهجه ، فلابد ان نكون فكرة واضحة عن الطريقة التي يتم بها تطبيق النظام العسكري على الجيش نفسه ، هذا الجيش الذي كان بعيداً في البداية ، كما يذكر الجميع ، عن التمتع بالصفات والعسكرية، المكتسبة . ان عدد الجنود الذين عبأناهم في العامين الماضيين لم يبلغ تماماً عدد المنتسبين الى النقابات في روسيا لكن المنتسبين الى النقابات هم من العمال ، وهؤلاء لا يدخلون الى الجيش الاحمر إلا بنسبة ١٥٪ ، اما الباقي فمؤلف من جماهير الفلاحين. إلا اننا نعرف عن حق ان المنظم والباني الحقيقي للجيش الاحمر انما هو العامل المتقدم ، المتخرج من المنظمات النقابية أو من الحزب . فحين كان الموقف في الجبهات يصبح صعباً ، وحين لا تبرهن الجماهير الفلاحية المجندة حديثاً على مافيه الكفاية من الحزم ، كنا نتوجه من جهة اولى الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، ومن الجهة الثانية الى سوفييت النقابات . وانما من هذين المصدرين كان يخرج العمال المتقدمون ليذهبوا لتنظيم الجيش الاحمر على صورتهم ، وليثقفوا ويدربوا ويجندوا الجماهير الفلاحية .

وانه لمن الضرورة بمكان ان نذكر بدقة بهذه الواقعة لأنها تسلط الضوء على فكرة التنظيم العسكري بالذات كما هي مفهومة في الدولة العمالية والفلاحية . لقد نودي بمبدأ التنظيم العسكري للعمل كشعار اكثر من مرة ، ولقــد طبق في فروع اقتصادية متعددة في عدد من البلدان البورجوازية ، سواء أفي الغرب ام في روسيا في ظل القيصرية . لكن تنظيمنا العسكري للعمل يتميز عن التنظيم العسكري في تلك البلدان بأهدافه ومناهجه ، تماماً كما تتميز البروليتاريا الواعية والمنظمة ، بهدف تحررها ، عن البورجوازية الواعية والمنظمة بهدف الاستغلال .

ومن هذا الخلط ، اللاواعي او المغرض ، بين الاشكال التاريخية للتنظيم العسكري البروليتاري والاشتراكي والتنظيم العسكري البورجوازي ، ينبع القسم الاكبر من الآراء المسبقة والاخطاء والاحتجاجات وصرخات الاستنكار التي تثيرها هذه المسألة وانما على هذا التفسير للاشياء يقوم موقف المنشفيك ، الكاوتسكيين الروس ، كما يتضح في قرارهم المبدئي المقدم الى مؤتمر النقابات الحالي .

ان المنشفيك لا يفعلون شيئاً إلا استنكار تطبيق النظام العسكري على العمل . وهم يستنكرون ايضاً الزامية العمل . انهم يرفضون هذه الطرائق باعتبارها « إكراهية » انهم يشيعون ان الزامية العمل ستؤدي الى انخفاض الانتاجية . اما عن تطبيق النظام العسكري على العمل فلن يكون له من نتيجة إلا تبذير اليد العاملة هباء .

« ان العمل الإلزامي لم يكن دوماً إلا منخفض الانتاجيـة » ، هذا هو التعبير الدقيق الوارد في قرار المنشفيك . ان هذا التأكيد يقودنا الى لب المشكلة بالذات . ذلك ان المسألة ، كما نرى ، ليست هي ان نعرف ما اذا كان من المعقول او اللامعقول ان نعلن أن هذا المصنع او ذاك هو في حالة حرب ، وما اذا كان من المصلحة ان نعطي المحكمة الثورية العسكرية حق معاقبة العمال المرتشين الذين يسرقون المواد الاولية والادوات الثمينة جداً بالنسبة الينا ، او الذين يخربون . كلا ، ان المنشفيك يطرحون المسألة بصورة اعمق بكثير . انهم يحاولون ، بتأكيدهم ان العمل الإلزامي هو **دوماً** منخفض الانتاج ، ان يزعزعوا كل بنائنـا الاقتصادي في مرحلة الانتقال الراهنة . ذلك انه لامجال للانتقال من الفوضى البورجوازية الى الاقتصاد الاشتراكي دون اللجوء الى الدكتاتورية الثورية والى طرائق

التنظيم الاقتصادي القائمة على الاكراه .

ان النقطة الاولى من قرار المنشفيك تقول اننا نعيش في عصر الانتقال من اشكال الانتاج الرأسمالي الى اشكال الانتاج الاشتراكي . فما معنى هذا ؟ وقبل كل شيء ، من انى اتت هذه الحكم ؟ ومنذ متى اعترف بها كاوتسكيونا ؟ لقد اتهمونا (وهذا ما كان اساس مذهبهم) انه لامجال في عصرنا للانتقال الى الاشتراكية ، وان ثورتنا ليست إلا ثورة بورجوازية ، واننا ، نحن الشيوعيين ، لانفعل شيئاً سوى تدمير النظام الاقتصادي الرأسمالي ، واننا لانتقدم بالأمة خطوة الى الأمام ، بل على العكس نسير بها الى الخلف . انما حول هذه النقاط كان يكمن الخلاف الاساسي ، والاختلاف العميق ، والتنافر الذي تنبع منه كل الاختلافات الأخرى . لكن المنشفيك يلفتون انتباهنا الآن بصورة عابرة ، في مقدمات قرارهم ، وكأن القضية بديهية لاتحتاج الى دليل ، الى اننا نمر بمرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . وهذا اعتراف غير متوقع على الاطلاق اشبه مايكون باستسلام فكري كامل . ثم انه مصاغ بسهولة وخفة لاتفرضان اي التزام ثوري على المنشفيك ، كما يدل على ذلك القرار كله . انهم سجناء العقيدة البورجوازية بشكل عام . ان المنشفيك ، بعد ان اعترفوا بأننا نسير نحو الاشتراكية ، يهجمون بحنق على هذه الطرائق التي يستحيل بدونها ، في الشروط الصعبة الخطيرة الراهنة ، الانتقال الى الاشتراكية .

انهم يقولون لنا : ان العمل الالزامي منخفض الانتاجية دوماً ! ونحن نسألهم : ماذا تقصدون هنا بالعمل الالزامي ؟ وبتعبير آخر ، انه نقيض أي عمل ؟ نقيض العمل الحر في الظاهر . فماذا ينبغي في هذه الحال

ان نفهم من العمل الحر ؟ ان واضعي عقيدة البورجوازية التقدميين هم الذين صاغوا هذه الفكرة في نضالهم ضد إكراه العمل ، اي ضد عبودية الفلاحين ، وضد عمل الصناع المقنن المقعد . وكانوا يفهمون العمل الحر على انه العمل الذي يمكن شراؤه « بحرية » في سوق العمـل . وهكذا فان الحرية ترتد الى وهم حقوقي حول أساس الشراء للعاملين بالأجرة . ونحن لا نعرف في التاريخ غير هذا الشكل للعمل الحر . وليشرح لنـا بعض ممثلي المنشفيك الحاضرون في هـذا المؤتمر ما يقصدونه بالعمل الحر ، غير الاكراهي ، ان لم يكونوا يقصدون به البيع الحر لليد العاملة ؟

لقد عرف التاريخ العبودية والرق وعمـل الحرف المقنن في القرون الوسطى . أما اليوم فيسود العالم كله العمل المأجور الذي يعارض به الكويتبون الصفر في جميع البلدان ، على اعتبار انه حريـة اسمي ، « العبودية » السوفياتية . أما نحن فنعارض ، على العكس ، العبودية الرأسمالية بالعمل الاجتماعي النظامي المستند الى خطة اقتصادية ، والالزامي للجميع ، والالزامي بالتالي لكل عامل في البلاد . وبدونه يستحيل حتى التفكير بالانتقال الى الاشتراكية . ان عنصر الاكراه المادي «الفيزيائي» يمكن أن يكون كبيراً أو صغيراً : فهذا أمر يتعلق بالكثير من الشروط وبدرجة غنى البلاد او فقرها ، وبإرث الماضي ، وبمستوى الثقافة ، وبحالة المواصلات ونظام الادارة ، الخ ، الخ ، لكن الالزام وبالتالي الاكراه هو الشرط الضروري اضبط الفوضى البورجوازية ، ولتشريك وسائل الانتاج والعمل ، ولاعادة بناء النظام الاقتصادي حسب خطة موحدة.

ان الحرية تعني في النهاية ، في نظر الليبرالي ، البيع الحر لليـد العاملة . هل يستطيع رأسمالي من الرأسماليـين أن يشتري بسعر مقبول

القوة العاملة ام لا ؟ هذه هي الوسيلة الوحيدة في نظر الليبيرالي لقياس حرية العمل . وهذا المقياس خاطىء لا بالنسبة الى المستقبل فحسب ، بل بالنسبة الى الماضي أيضاً .

انه لمن غير المعقول ان نتصور ان العمل في ايام الرق كان يتم كله تحت تهديد الاكراه المادي ، وأن المراقب يقف خلف الفلاح المسكين والسوط في يده . ان الاشكال الاقتصادية في القرون الوسطى كانت تنبع من بعض الشروط الاقتصادية ، وتحيي تقاليد كان الفلاح يتلاءم معها ، ويراها في بعض العهود عادلة أو يعترف على الاقل بطابعها الدائم . وحين اتخذ تجاهها ، تحت تأثير تغير الشروط المادية ، موقفاً معادياً ، حطمته الحكومة بالقوة المادية ، مثبتة بذلك الطابع الاكراهي لتنظيم العمل .

ان استبدال الاقتصاد الرأسمالي بالاقتصاد الاشتراكي لن يكون الا كلمة جوفاء بدون أشكال الاكراه الحكومي التي هي أساس تنظيم العمل على أساس عسكري . فلم نتكلم عن التنظيم العسكري للعمل ؟ بديهي ان هذا من قبيل التشابه ، لكنه تشابه عميق الدلالة . ان ما من تنظيم اجتماعي آخر ، باستثناء الجيش ، قد تصور ان له الحق في ان يلحق به المواطنين إلحاقاً تاماً ، وفي أن يسيطر عليهم سيطرة كاملة بارادته ، كما تفعل ذلك حكومة الدكتاتورية البروليتارية . ان الجيش وحده (على وجه التحديد لأنه حسم بطريقته الخاصة مسائل حياة وموت الامم والدول والطبقات الحاكمة) قد اكتسب الحق بأن يتطلب من كل فرد خضوعاً تاماً للمهام والاهداف والتعليمات والاوامر . ولقد توصل الى ذلك لأن مهام التنظيم العسكري ، بوجه خاص ، كانت تتفق اكثر من غيرها مع ضرورات التطور الاجتماعي .

ان مسألة حياة أو موت روسيا السوفياتية مطروحة ، في الساعة الراهنة، على صعيد العمل . ان منظماتنا الاقتصادية مع منظماتنا المهنية والصناعية لهـا الحق في أن تتطلب من أعضائها كل نكران الذات وكل الانضباط وكل الدقة في مواعيـد العمل ، اي كل ما كان الجيش وحده يتطلبه حتى اليوم .

وموقف الرأسمالي من العامل ، من الجهة الاخرى ، لايقوم على عقد « حر » فحسب ، بل يشتمل ايضاً على عناصر قوية من التنظيم الحكومي والاكراه المادي .

ان منافسة الرأسمالي للرأسمالي قـد أضفت على وهم حرية العمل ظاهراً من الواقعية . لكننا هدمنا نهائياً ، بالغائنا الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، هذه المنافسة التي قلصتها النقابات والتروستات الى أقصى الحدود. وان الانتقال الى الاشتراكية ، المعترف بـه لفظياً من المنشفيك ، يعني الانتقال من التوزيع الفوضوي لليد العاملة ، ومن قانون الشراء والبيع ، ومن تحولات أسعار السوق والاجور ، الى توزيع عقلاني للشغيلة بواسطة أجهزة المحافظة والاقليم والبلاد كلها .

ان هذا النوع من التوزيع يفترض تبعيـة العمال الموزعين لخطة الحكومة الاقتصادية . وهذا هو كل أساس الزامية العمل التي تدخل بصورة محتمة ، وباعتبارها عنصراً جوهرياً ، في برنامج التنظيم الاشتراكي للعمل .

واذا كان يستحيل تنظيم الاقتصاد العام تنظيماً منهجياً بدون الزامية العمل ، فان هـذه الالزامية بالمقابل مستحيلة دون الغاء وهم حريـة العمل ، وبدون استبدال هذا الوهم بمبدأ الالزام الذي يكمله

واقع الاكراه .

أما ان العمل الحر أكثر انتاجية من العمل الالزامي ، فهذه حقيقة لايمارى فيها بصدد الانتقال من المجتمع الاقطاعي الى المجتمع البورجوازي. لكن لابد ان يكون الانسان ليبيرالياً ، أو كاوتسكياً في عصرنا ، حتى يخلد هذه الحقيقة ويفرضها على عصرنا الانتقالي من النظام البورجوازي الى النظام الاشتراكي . واذا كان صحيحاً ، كما يقول قرار المنشفيك ، ان العمل الالزامي هو دوماً وفي كل الظروف أقل انتاجية ، فان بناءنا الاقتصادي يكون بالتالي مقدراً عليه الانهيار . ذلك انه لايمكن ان توجد لدينا وسيلة اخرى للانتقال الى الاشتراكية غير القيادة الحازمة للقوى والموارد الاقتصادية في البلاد، وغير التوزيع المركزي للقوة العاملة حسب الخطة الحكومية العامة . ان الدولة العمالية تعتبر ان لها الحق في ان ترسل كل شغيل الى المكان الذي بحاجة الى عمله . وان ما من اشتراكي جــــاد سيفكر بأن ينكر على الحكومة العمالية حقها في وضع يدها على الشغيل الذي قد يرفض تنفيذ المهمة التي اوكلت اليه . لكن الطريق المنشفيكي للانتقال الى « الاشتراكية » ، وهذا هو لب المسألة ، هو أشبه بطريق المجرة ، بدون احتكار للقمح ، وبدون الغاء للاسواق ، وبدون دكتاتورية ثورية ، وبدون تنظيم عسكري للعمل .

فالنقابات ، بدون الزامية العمل وبدون الحق في اصدار الاوامر ، وطلب تنفيذها ، تفقد مقوماتها ، ذلك انها ضرورية للدولة الاشتراكية التي في طريق البناء ، لا لتناضل من أجل شروط أفضل للعمل ــ فهــذه مهمة مجموع التنظيم الاجتماعي الحكومي ــ بل من أجل تنظيم الطبقة العاملة بهدف الانتاج ، ومن أجل ضبطها وتوزيعها وتثقيفها وتعيين بعض الفئات

وبعض العمال في مراكزهم لمدة معينة من الزمن ، وبكلمة واحدة من أجل تنظيم الشغيلة بحزم ، وباتفاق تام مع السلطة ، في اطارات الخطة الاقتصادية الموحدة . ان الدفاع عن «حرية» العمل ، في مثل هذه الشروط ، يعني الدفاع عن البحث اللاجدي ، اللامفيد ، غير المؤكد ، عن الشروط الافضل ، وعن الانتقال الفوضوي غير المنظم من مصنع الى آخر ، في بلد جائع ، وسط الفوضى المخيفة في المواصلات والتموين . وماذا يمكن ان تكون نتيجة هذه المحاولة اللامعقولة للجمع بين حرية العمل البورجوازية وبين التشريك البروليتاري لوسائل الانتاج ، غير تفكك الطبقة العاملة والفوضى الاقتصادية الكاملة ؟

ليس التنظيم العسكري للعمل اذن ، ايها الرفاق ، بالمعنى الاساسي الذي ذكرته ، ليس هو من اختراع بعض الاشخاص السياسيين أو وزارة حربيتنا ، بل انه يبدو كطريقة حتمية في تنظيم اليد العاملة وضبطها في عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، واذا كان صحيحاً ، كما جاء في قرار المنشفيك ، ان كل هذه الاشكال (التوزيع الالزامي لليد العاملة ، والحاقها المؤقت او الدائم ببعض الفروع او المشاريع ، وتنظيمها المتجاوب مع الخطة الاقتصادية الحكومية) تؤدي الى انخفاض الانتاجية ، فلنرسم اذن اشارة الصليب على الاشتراكية . ذلك لأنه يستحيل بناء الاشتراكية على انخفاض الانتاج . ان كل تنظيم اجتماعي يستند الى تنظيم العمل واذا كان تنظيمنا الجديد للعمل يفضي الى نقص الانتاج ، فان المجتمع الاشتراكي الذي في طريق البناء سيسير حتماً الى الدمار ، مهما كانت مهارتنا ومهما كانت تدابير النجاة التي نتصورها .

انما لهذه الاسباب قلت ، من البداية ، ان الحجج المنشفيكية ضد التنظيم العسكري تقودنا الى لب مشكلة تنظيم العمل وتأثيره على الانتاج فهل صحيح حقاً ان العمل الالزامي كان دوماً غير منتج ؟ اننا مرغمون على الرد على هذه الحجة بأنها واحد من أفقر الاحكام المسبقة واكثرها ليبرالية . ان المسألة كلها تكمن في ان نعرف من يمارس الاكراه ، وضد من ولماذا ؟ أي دولة ، أي طبقة ، في أي الظروف ، بأي الطرائق ؟ لقد كان تنظيم الرق ، في بعض الشروط ، تقدماً وادى الى زيادة الانتاج . ولقد نما الانتاج نمواً كبيراً في ظل النظام الرأسمالي ، وبالتالي في عصر الشراء والبيع الحر لليد العاملة في سوق العمل . لكن العمل الحر والرأسمالية بكاملها قد قضت عليها الحرب نهائياً عندما دخلا في المرحلة الامبريالية . ان الاقتصاد العالمي كله دخل في مرحلة من الفوضى الدموية ، والهزات الرهيبة ، والتعري ، والاضمحلال ، ودمار الجماهير الشعبية . فهل يمكننا في مثل هذه الشروط ، ان نتكلم عن انتاجية العمل الحر ، بينما تختفي ثمار هذا العمل اكثر مما تبرز بعشرة أضعاف ؟ لقد اثبتت الحرب الامبريالية والنتائج التي نجمت عنها استحالة وجود مجتمع قائم على العمل الحر بعد اليوم. أم لعل أحدهم يملك السر الذي سيسمح بتحرير العمل الحر من نوبة جنون الامبريالية ، او بتعبير آخر ، الذي سيسمح بارجاع التطور الاجتماعي خمسين أو مئة عام الى الوراء ؟ واذا كان صحيحاً ان تنظيمنا للعمل ، الذي يجب ان يحل محل الرأسمالية ، والمرسوم حسب خطة معينة ، والالزامي بالتالي ، يؤدي الى ضعف الاقتصاد ، فهذا سيعني نهاية كل ثقافتنا وتراجع الانسانية نحو البربرية والهمجية .

لكن من حسن حظ الانسانية قاطبة لا روسيا السوفياتية وحدها

ان فلسفة الانتاجية الضعيفة للعمل الالزامي « دوماً وفي جميع الشروط » لاتعدو ان تردد لازمة ليبيرالية قديمة . ان انتاجية العمل كميـــة تعسفية تتعلق بمجموع الشروط الاجتماعية الاكثر تعقيداً ، ولايمكن في أي حال من الاحوال ان تقاس او تحدد مسبقاً بشكل حقوقي من اشكال العمل .

ان كل تاريخ الانسانية هو تاريخ تنظيم وتربية الانسان الاجتماعي بالعمل ، بهدف الحصول منه على انتاجية اكبر . ان الانسان لهو ، كما سمحت لنفسي آنفاً بـأن اعبر ، كسول ، أي يحاول بالغريزة ان يحصل بأقل جهد ممكن على اكبر حد ممكن من المنتجات . وبدون هذا الميل ، لن يكون ثمة وجود للتطور الاقتصادي . ان نمو الحضارة يقاس بانتاجية الانسان ، وكل شكل جديد من اشكال العلاقات الاجتماعيـة ينبغي ان يمتحن على حجر المحك هذا .

ان العمل « الحر » لم يظهر الى النور على حـــين غرة بكل قوة انتاجيته . انه لم يصل الى انتاجية عالية الا تدريجياً ، وعلى اثر تطبيق طويل الأمد لطرائق تنظيم وتثقيف العمل . ولقد استخدم هذا التثقيف مختلف الطرائق والوسائل التي كانت تتبدل ، علاوة على تنوعها ، حسب العصور . في البداية كانت البورجوازية تطرد بالعصا الغليظة الفلاح الموجيك خارج قريته وتلقي به على عارضة الطريق ، بعد ان تكون قد انتزعت منـه اراضيه . وحين كان لايريد ان يعمل في المصنع ، كانت تدمغه بالحـديد الاحمر ، وتشنقه ، وترسله الى العمل الاجباري في تجذيف السفن ، الى ان يعتاد البائس في النهاية على العمل في المصنع . وكما نرى ، فان هذه المرحلة من العمل « الحر » لاتختلف الا قليلاً للغاية عن الاشغال الشاقة ، سواء أمن زاوية الشروط المادية ام من وجهة النظر الشرعية .

ولقد لجأت البورجوازية ، في عصور مختلفة ، وبنسب متباينة ، الى الحديد الاحمر والقمع ووسائل الاقناع في آن واحد . ولقد قدم اليها الكهنة ، في هذا المجال ، مساعدة لاتقدر بثمن . فمنذ القرن السادس عشر ، كانت قد ادخلت الاصلاح على الدين "الكاثوليكي القديم الذي كان يدافع عنه النظام الاقطاعي ، وتبنت من أجل حاجاتها ديناً جديداً ، دين « الاصلاح » الذي يجمع بين حرية الروح وحرية التجارة والعمل . واتخذت من الكهنة الجدد حراســاً روحيين لها وخدماً مخلصين . ولقد طورت البورجوازية المدرسة والصحافة والمجالس البلدية والبرلمان بهدف تكوين افكار الطبقة العاملة لصالحها . ان مختلف اشكال الاجرة (المياومة ، وعلى القطعة ، والمقاولة ، والعقد الجماعي) لاتشكل بين يدي البورجوازية إلا وسائل متنوعة لترويض البروليتاريا على العمل . وتنضم اليها مختلف اشكال التشجيع على العمل والتحريض على الوصوليـــة . واخيراً ، لقد عرفت البورجوازية كيف تضع يدها على النقابات ومنظمات الطبقة العاملة ، وتستفيد منها الى ابعد الحدود في ضبط الشغيلة . لقد روضت القادة ، واقنعت العمال عن طريقهم بضرورة الاجتهاد والعمل الهادىء ، وانجاز مهمتهم بصورة مثالية ، والتنفيذ الدقيق لقوانين الدولة البورجوازية . ولقد وجد كل هذا العمل تتويجه في نظام تايلور الذي تتحد فيه عناصر التنظيم العلمي لعملية الانتاج بأمهر الطرق في استثمار جهد العامل الى اقصى حد ممكن .

ويتبين بوضوح مما قلناه ان انتاجية العمل الحر ليست شيئاً محدداً ، مقرراً ، مقدماً من التاريخ على صحن من الفضة . كلا ! انها نتيجة سياسة طويلة عنيدة ، رادعة ، تربوية ، تنظيمية ، منشطة ، تنتهجها البورجوازية ازاء الطبقة العاملة فلقد تعلمت شيئاً فشيئاً ان تعتصر كمية متعاظمة باستمرار

من المنتجات من جهد العمال ، وكان الاستثمار الاختياري ، الشكل الوحيد للعمل الحر ، الطبيعي ، السليم ، المنتج والمأمون ، واحداً من أقوى الاسلحة بين ايديها .

ان التاريخ لم ولن يعرف شكلا حقوقياً للعمل يضمن من تلقاء نفسه الانتاجية . ان الغلاف الحقوقي للعمل يتعلق بعلاقات العصر ومفاهيمه . ان انتاجية العمل تتطور على أساس تطور القوى التكنيكية ، وتثقيف العمل ، وتلاؤم الشغيلة التدريجي مع وسائل الانتاج التي تتبدل باستمرار ، والاشكال الجديدة للعلاقات الاجتماعية .

ان تشييد المجتمع الاشتراكي يعني تنظيم الشغيلة على أسس جديدة وتلاؤمهم مع هذه الأسس ، واعادة تثقيفهم بهدف زيادة الانتاجية باستمرار . وعلى الطبقة العاملة ان تقوم من تلقاء نفسها ، بقيادة طليعتها ، باعادة تثقيف نفسها اشتراكياً . ومن لم يفهم ذلك ، فهذا معناه انه لا يفهم شيئاً من الف باء البناء الاشتراكي .

ماهي اذن طرائقنا في اعادة تثقيف الشغيلة ؟ انها اوسع بما لا يقاس من طرائق البورجوازية ،وهي علاوة على ذلك مستقيمة ،شريفة، صريحة ، نقية من كل رياء ومن كل كذب . لقد كانت البورجوازية مرغمة على اللجوء الى الكذب لتصور عملها على انه حر ، في حين انه في الواقع لم يكن مفروضاً اجتماعياً فحسب ، بل كان ايضاً مستعبداً . ذلك انه كان عمل الغالبية لصالح الاقلية . وبالمقابل فاننا ننظم العمل لصالح الشغيلة أنفسهم ، ولهذا فان مامن شيء يمكن ان يدفعنا الى اخفاء أو تقنيع الطابع الالزامي اجتماعياً لتنظيم العمل . اننا لا ندري ماذا نفعل بحكايا

الكهنة والليبيراليين والكاوسكيين . اننا نقول علناً وصراحة للجماهير انها لاتستطيع ان تنقذ وترفع وتقود البلاد الاشتراكية الى مركز لامع إلا مقابل عمل حازم ، وانضباط صارم ، واكبر دقة في مواعيد العمل من جانب كل شغيل . ان اهم وسائلنا هي عمل الفكرة ، أي الدعاية لالفظياً فحسب بل فعلياً وعملياً ايضاً . ان الزامية العمل تتخذ طابعاً اكراهياً ، لكن هذا لايعني انها تشكل عنفاً تجاه الطبقة العاملة . ولو اصطدمت الزامية العمل بمعارضة القسم الاعظم من الشغيلة ، لكان حكم عليها بالموت ومعها النظام السوفياتي . ان التنظيم العسكري للعمل ، حين يصطدم بمعارضة الشغيلة ، يكون أشبه بطرائق آراكتشييف . ان تنظيم العمل عسكرياً بارادة الشغيلة انفسهم لهو طريقة من طرائق الدكتاتورية الاشتراكية . اما أن الزامية العمل وتنظيمه العسكري يغتصبان ارادة الشغيلة ، كما كان شأن العمل « الحر » ، فهذا مايدحضه بشكل قاطع إلهام الشغيلة المتطوعين الواسع في « أيام السبت الشيوعية » ، هذا الحدث الفريد من نوعه في تاريخ الانسانية . ان العالم لم يشهد شيئاً كهذا في أي زمن من الأزمان . ان الشغيلة يبرهنون بشكل رائع ، بعملهم الاختياري والمتجرد – مرة واحدة في الاسبوع واحياناً اكثر من مرة – على انهم مستعدون لا لتحمل عبء العمل « الاجباري » فحسب ، بل ليقدموا للحكومة عملا اضافياً . ان « أيام السبت الشيوعية » ليست إلا أمثلة رائعة على التضامن الشيوعي ، لكنها أوثق ضمانة ايضاً لنجاح تطبيق إلزامية العمل . ان علينا ، بواسطة الدعاية ، ان نوضح ونوسع ونعزز هذه الميول الشيوعية العميقة الجذور .

ان السلاح المعنوي الرئيسي في يد البورجوازية هو الدين . في حين ان سلاحنا ، نحن ، هو ان نشرح للجماهير شرحاً صادقاً حقيقة الامور ، وان ننشر المعلومات الطبيعية والتاريخية والتكنيكية ، وان ندرب الجماهير على الخطة العامة للاقتصاد الحكومي التي يجب ان يتم على أساسها استخدام اليد العاملة التي تملكها السلطة السوفياتية .

ان الاقتصاد السياسي قد قدم لنا ، في الماضي ، أهم مصادر عملنا ودعايتنا : فلقد كان النظام الرأسمالي الاجتماعي لغزاً ولقد كشفنا اللثام عن هذا اللغز للجماهير . والالغاز الاجتماعية تتكشف الآن للجماهير بواسطة آلية النظام السوفياتي بالذات ، هذا النظام الذي يسلم الشغيلة مختلف المناصب . وكلما تقدمنا ،أخذ الاقتصاد السياسي المزيد من الاهمية التاريخية. ان العلوم ، التي تفيد في تنقيب الطبيعة وفي ايجاد الوسائل الكفيلة باخضاعها لارادة الانسان ، تحتل اليوم مكانة الصدارة .

ان على النقابات ان تشرع ، على أوسع مدى ، في التثقيف العلمي والتكنيكي ، حتى يجد كل عامل في عمله الخاص دافعاً له على العمل الفكري النظري . والنظرية ، بارتدادها نحو العمل ، تزيده اتقاناً وانتاجية .

ان على الصحافة ان ترتفع الى مستوى مهام الوطن ، لا كما تفعل ذلك الآن فحسب ، أي باتجاه تحريض عام لإحياء الطاقة العاملة ، بل ايضاً باتجاه مناقشة ودراسة المهام والخطط والوسائل الاقتصادية العينية ، بهدف ايجاد الحل لها ، وبخاصة من أجل التحقق من النتائج المكتسبة وتقييمها . ان على الصحف ان تتبع يوماً فيوماً انتاج اهم المصانع ، لتسجل النجاح والاخفاق ، ولتشجع هؤلاء وتفضح اولئك ..

ان الرأسمالية الروسية ، نتيجة لطابعها المتخلف واستقلالها ومايتنتج عنها من ملامح طفيلية، قد نجحت ، بدرجة أدنى من درجة نجاح رأسمالية اوروبا ، في تعليم وتثقيف الجماهير العمالية تكنيكياً وضبطها صناعياً . وهذه المهمة تقع اليوم بكاملها على منظمات البروليتاريا النقابية . ان المهندس الممتاز والميكانيكي الممتاز والمصلح الممتاز يجب ان يلقوا في روسيا السوفياتية نفس الشهرة والمجد اللذين كان يلقاهما في الماضي اجرأ المحرضين والمناضلون الثوريون ، وفي زمننا هذا اجرأ الضباط والقوميساريين واقدرهم . ان كبار قادة التكنيك وصغارهم يجب ان يحتلوا مكانة الشرف في التفكير العام ، ولابد من ارغام العمال الرديئين على الشعور بالخجل من انهم ليسوا بمستوى مهمتهم .

ان الاجور العمالية في روسيا ماتزال تدفع نقداً ، ومن المتوقع ان تستمر الحال هكذا مدة طويلة . لكن كلما تقدمنا ، بات علينا من الواجب اكثر ان نكفل لجميع أعضاء المجتمع كل ماهو ضروري لهم . وعلى هذا فسوف تفقد الاجور كل سبب للوجود . نحن لسنا أغنياء بما فيه الكفاية في الساعة الراهنة لتحقيق مثل هذا الأمر . ان زيادة كمية السلع المصنوعة هي المهمة الرئيسية التي ترتبط بها سائر المهام الاخرى . ان الاجور ليست بالنسبة الينا ، في المرحلة الصعبة الراهنة ، وسيلة لتخفيف عبء الحياة على كل شغيل ، بل وسيلة لتقدير مايقدمه كل شغيل بعمله الى الجمهورية العمالية .

ولهذه الاسباب ، فان الاجور ، أسواء منها النقدية ام العينية ، يجب ان تتناسب الى اكبر حد ممكن مع انتاجية العمل الفردي . لقد كان هدف العمل بالقطعة والعمل على أساس التلزيم ، وهدف تطبيق نظام تايلور ،

الخ ، زيادة استغلال العمال واستلابهم فضل القيمة . وعلى إثر تشريك الانتاج ، يصبح هدف العمل بالقطعة والعمل على اساس التلازيم زيادة الانتاج الاشتراكي وبالتالي زيادة الرفاهية المشتركة . والشغيلة الذين يساهمون أكثر من غيرهم في الرفاهية العامة لهم الحق في ان يأخذوا حصة من النتاج الاجتماعي اكبر من حصة الكسالى والمتهاونين والفوضويين .

واخيراً فان الدولة العمالية ، بمكافأتها البعض ، لاتستطيع إلا ان تعاقب الآخرين ، أي الذين يعرقلون ، في كل الظروف والمناسبات ، التضامن العمالي ، ويخربون العمل المشترك ، ويسببون ضرراً كبيراً لقضية النهوض الاشتراكي بالبلاد . وان الردع الهادف الى تحقيق المهام الاقتصادية هو سلاح ضروري للدكتاتورية الاشتراكية .

ان جميع التدابير التي عددناها - بالاضافة الى بعض التدابير الاخرى . يجب ان تضمن تطور روح المنافسة في ميدان الانتاج . وبدون هذا يستحيل علينا ان نرتفع فوق مستوى منخفض جداً . ان المنافسة التي تقوم على غريزة حيوية ـ النضال من أجل الحياة - تتخذ طابع المزاحمة في ظل النظام البورجوازي . ان المنافسة لن تختفي من المجتمع الاشتراكي المتطور ، بل ستأخذ ، كلما توفرت فيه على نطاق أوسع الرفاهية الضرورية للجميع ، طابعاً متجرداً وعقائدياً محضاً اكثر فأكثر . انها ستعبر عن نفسها بالميل الى تأدية اكبر الخدمات الممكنة الى القرية والقضاء والمدينة والمجتمع كله ، لتجد مكافأتها في الشعبية ، والاعتراف العام بالجميل ، والمودة ، واخيراً ، وبكل بساطة ، في الرضى الداخلي الذي يشعر به من يعرف انه ادى مهمته على الوجه الاكمل . لكن المنافسة ، في مرحلة الانتقال الصعبة ، وفي شروط الفقر المادي المدقع والتطور الضعيف لعاطفة التضامن

الاجتماعي ، اقول ان المنافسة ، في مثل هذه الشروط ، ينبغي ان ترتبط حتماً ، والى حد ما ، بالرغبة في الحصول على سلع للاستعمال الشخصي . هذه هي ، ايها الرفاق ، الوسائل التي تملكها الحكومة العمالية لرفع انتاجية العمل . وكما نرى ، ليس ثمة ههنا من حل جاهز ان الحل غير موجود في أي كتاب . ولا يمكن بالاصل ان يوجد بعد كتـاب للحلول . ونحن لم نفعل شيئاً سوى اننا بدأنا في كتابته بدم الشغيلة وعرقهم . اننا نقول : ايها العمال والعاملات ، انكم تدخلون في طريق العمل المنظم . ولن تبنوا المجتمع الاشتراكي إلا بمثابرتكم عليه . انـكم تواجهون مهمة لن ينجزهـا احد لـكم : زيادة انتاجية العمل على أسس اجتماعية جديدة . واذا لم نحل المشكلة ، فقد هلكنا . أما اذا حللناها ، فسنكون قد تقدمنا بالانسانية خطوة كبيرة .

جيوش العمل

انما عن الطريق التجريبي ، لا بالاعتماد على الشـروط النظرية ، توصلنا الى طرح مسألة استخدام الجيش في مهام العمل (وهي مسألة اخذت عندنا أهمية نظرية كبيرة) . لقد شاءت الظروف ، في بعض المناطق النائية من روسيا السوفياتية ، ان تبقى قوى عسكرية هامة حقبة من الزمن دون ان تساهم في أي عملية عسكرية . ولقد كان من الصعوبة بمكان ان نقذف بها على الجبهات الاخرى التي يدور فيها القتال ، وبخاصة في الشتاء ، نظراً لدمار المواصلات . هذا ما كان عليه ، على سبيل المثال ، وضـع الجيش الثالث الموجود في منطقة الاورال . ان المناضلين الذين كانوا على رأس هذا الجيش ، والذين كانوا يعلمون انه ليس بمقدورنا بعد ان نسرحه

طرحوا من تلقاء انفسهم مسألة الانتقال الى العمل البناء . وهكذا ارسلوا الى « المركز » مشروعاً شبه كامل عن جيش العمل .

كانت المهمة جديـدة وغير سهلة . هل سيعمل الجنود الحمر ؟ هل سيكون عملهم منتجاً بما فيه الكفاية ؟ هل سيكون له من مبرر ؟ كانت الشكوك تنتابنا حتى نحن في هذا الموضوع ولا حاجة للقول ان معظم المثقفين كانوا معارضين ففي « مؤتمر سوفييتات الاقتصاد القومي » ، في كانون الثاني أو في مطلـــع شباط على مايخيل إلي ، أي حين لم تكن المسألة بعد إلا في مرحلة المشروع ، راح ابراموفيتش يتنبأ بأننا سنفشل حتماً ، وان هذا المشروع جنوني ، وانه طوبائية جديرة بآراكتشييف ، وهكذا ودواليـك . وكنا نرى الامور بغير هذا المنظار : يقيناً إن الصعوبات كبيرة ، لكنها لاتتميز مبدئياً عن سائر صعوبات البناء السوفياتي بصورة عامة .

ولننظر الى ما يمثله جهاز الجيش الثالث فعلياً ؟ لم تكن قد تبقت منه الاقوات قليلة: فرقةرماة وفرقة فرسان (المجموع خمس عشرة كتيبة) بالاضافة الى فيلقين خاصين . أما باقي القوات فقد وزع قبل مدة طويلة على الجيوش الاخرى وعلى الجبهات . لكن جهاز قيادةالجيش ظل سليماً، وكنا نرجح انه سيتوجب علينا في الربيـع ان نرسله ،عن طريق الفولغا، الى جبهة القفقاس ضد دينيكين الذي لم يكن قد سحق آنذاك نهائيـاً . كان الجيش الثالث هذا يضم حوالي ١٢٠٠٠٠ رجل موزعين على الاركان العامة والخدمات والاسلحة والاسعاف الخ . وكان العنصر الفلاحـي هو السائد فيه ، وكان يضم ١٦٠٠٠ شيوعي أو نصير معظمهم من عمـــال

الاورال وهكذا كان هذا الجيش يمثل ، بتركيبه ، كتلة فلاحية منظمة تنظيماً عسكرياً بقيادة العمال الطليعيين . وكان عدد لا بأس به من الاختصاصيين العسكريين يعملون فيه . كانوا يشغلون مناصب عسكرية هامة ، ويعملون تحت رقابة الشيوعيين العامة ولو القينا نظرة على مجموع الجيش الثالث لرأينا انه يعكس روسيا السوفياتية كلها . فلو أخذنا الجيش الاحمر بمجموعه ، أو تنظيم السلطة السوفياتية في محافظة من المحافظات أو في اقليم او في الجمهورية كلها ، بما فيه الاجهزة الاقتصادية ، لوجدنا في كل مكان هيكل التنظيم نفسه : ألوف من الفلاحين ، أطرتهم في اشكال جديدة من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية العمال المنظمون الذين يلعبون الدور القيادي في جميع ميادين البناء السوفياتي . وصحيح ان الاختصاصيين المتخرجين من المدرسة البورجوازية يشغلون المناصب التي تتطلب معارف خاصة ، وصحيح انهم يتمتعون بالاستقلال الذاتي الضروري ، لكن الرقابة على عملهم تظل بيد الطبقة العاملة ، المتجسدة في حزبها الشيوعي . وان تطبيق الزامية العمل ليس ممكناً ، في نظرنا ، إلا بشرط ان تتم التعبئة من بين صفوف بروليتاريا الأرياف تحت قيادة العمال المتقدمين . وهكذا لم نواجه ولم يكن من الممكن ان نواجه أي عقبة مبدئية في عمل الجيش لأغراض البناء وبتعبير آخر ، ان الاعتراضات المبدئية لأولئك المنشقين أنفسهم على جيوش العمل لم تكن في الواقع إلا اعتراضات على العمل « الالزامي » بصورة عامة ، وبالتالي على الزامية العمل وعلى الطرائق السوفياتية في البناء الاشتراكي في مجموعها . واننا لم نجد صعوبة في دحضها .

من المتفق عليه ان الجهاز العسكري ليس متلائماً من تلقاء نفسه مع قيادة عمليات العمل . ونحن لم نفعل شيئاً بالاصل في هذا الاتجاه . ان

القيادة يجب ان تظل في أيدي الاجهزة الاقتصادية المناسبة . والجيش يقدم اليد العاملة الضرورية تحت شكل وحدات متماسكة منظمة تستطيع في مجموعها ان تقوم بتنفيذ الاعمال المتجانسة البسيطة : تنظيف السكك الحديدية من الثلوج ، قطع الحطب ، أعمال البناء ، تنظيم الشحن ،الخ .

وقد اصبحت لدينا الآن خبرة لابأس بها في موضوع استخدام جيش العمل ، ونستطيع من الآن فصاعداً ان نتجاوز مرحلة التنبؤات . فما النتائج التي يجب ان نستخلصها من هذه التجربة ؟ لقد تعجل المنشفيك في استخلاصها . فلقد صرح آبراموفيتش ، خطيبهم ، نفسه في مؤتمر عمال المناجم بأننا فشلنا وبأن جيش العمل ليس الا منظمة طفيلية يقوم فيها مئة رجل بخدمة عشرة من الشغيلة . فهل هذا صحيح ؟ كلا !انه لنقد حاقد يقوم به بخفة اناس يعيشون على الهامش ، ويجهلون الوقائع ، ولا يفعلون شيئاً سوى ان يجمعوا من اينما كان النفايات والاقذار ، أسواء ليقرروا فشلنا أم ليتنبؤوا به . والواقع ان جيوش العمل لم تخفق ، بل حققت على العكس تقدماً هاماً ، وقد اثبتت حيويتها ، وهي تتطور الآن وترسخ أقدامها اكثر فأكثر . أما الذين أخفقوا فهم الانبياء أنفسهم الذين كانوا يتنبؤون لنا بأن هذا المشروع لن يثمر شيئاً ، وبأن مامن احد سيعمل، وبأن الجنود الحمر لن ينتقلوا الى جبهة العمل بل سينصرفون بكل بساطة الى بيوتهم .

لقد كانت هذه الاعتراضات تمليها الريبية البورجوازية الصغيرة ، ونقص الثقة بالجماهير وبالمبادهة التنظيمية الجريئة . لكن ألم يكن علينا ان نفند الاعتراضات نفسها ، في الحقيقة ، عندما كنا نقوم بالتعبئة الكبيرة للمهام العسكرية ؟ لقد حاولوا ، في تلك الحقبة ،ان يخيفونا بالتلويح بشبح

هرب الجنود الجماعي ، المحتم ، كما كانوا يقولون ، بعد الحرب الامبريالية . وبديهي ان حوادث الهرب وقعت . لكن التجربة بينت انه بعيد عن ان يأخذ طابعاً جماعياً بالصورة التي تنبؤوا لنا بها . انـه لم يخرب الجيش : فالرابطة الروحية والتنظيمية ، والتطوع الشيوعي والاكراه الحكومي في مجموعها ، اتاحت امكانية تعبئة الملايين من الرجال ، وتكوين العديد من التشكيلات ، وتنفيذ أعقد المهام العسكرية . ومختصر القول ان الجيش قد انتصر .

أما فيما يتعلق بالعمل ، فقد كنا نتوقع النتائج نفسها ولم يخب أملنا . فالجنود الحمر لم يهربوا حين انتقلنا من جبهة الحرب الى جبهة العمل، كما تنبأ لنا المتشككون . بل ان هذا الانتقال اثار حماسة كبيرة ، بفضل التحريض والدعاية الجيدة . واننا لا ننكر ان عدداً معيناً من الجنود قد حاول الفرار من الجيش ، لكن هذا ما يحدث دوماً حين تنقل وحدات عسكرية كبيرة من جبهة الى أخرى أو من المقدمة الى المؤخرة ، أو حين تتحرك بصورة عامة ، فيتحول الفرار الاحتمالي الى فرار فعلي. لكن ما إن تقع مثل هذه الحالات ، حتى تتدخل القطاعات السياسية والصحافة والاجهزة الخاصة بمقاومة الفرار ، والنسبة الحالية للفرار من جيوش العمل لا تتجاوز نسبة الفرار من الجيوش المحاربة .

لقد أكدوا ان جيوش العمل لن تستطيع ، بسبب بنيتها الداخلية ، ان تقدم إلا نسبة ضئيلة من الشغيلة . وهذا غير صحيح إلا جزئياً . أما فيما يتعلق بالجيش الثالث فلقد حافظ ، كما قلت ، على جهازه القيادي كاملاً بالاضافة الى عدد ضئيل للغاية من الوحدات العسكرية . وطوال الفترة التي احتفظنا فيها ، لاعتبارات عسكرية لا اقتصادية ، بأركان الجيش

وقيادته بكاملها ، كانت نسبة الشغيلة التي يقدمها منخفضة للغاية. فمن بين ١١٠٠٠٠ جندي أحمر يعملون في الاعمال الادارية والاقتصادية ، لايوجد بينهم من الشغيلة إلا ٢١٪. وخدمات الحراسة اليومية لاتأخذ منهم الا ١٦٪ ، بالرغم من العدد الكبير للمؤسسات والمستودعات العسكرية. وعدد المرضى ، وبخاصة المصابين بمرض التيفوس ، بالاضافة الى الجهاز الطبي والصحي ، لايتجاوز ١٣٪ . وعدد الغائبين لأسباب مختلفة (مهام ، اجازات ، غياب غير مشروع) كان يرتفع الى ٢٥٪ . وهكذا فان اليد العاملة المتفرغة لم تكن تتجاوز ٢٥٪ . وكانت هذه النسبة هي أقصى مايمكن ان يقدمه هذا الجيش لجبهة العمل . والواقع انه لم يقدم في البداية إلا ١٤٪ من الشغيلة المأخوذين بصورة خاصة من فرق الفرسان والرماة.

لكن ما إن اتضح ان جيش دينيكين قد سحق وانه يتوجب علينا في الربيع ان نرسل الجيش الثالث الى جبهة القفقاس عن طريق الفولغا ، حتى بدأنا فوراً بتصفية مختلف خدمات الجيش وملاءمة مؤسساته مع مهام العمل الجديدة بصورة اكثر عقلانية . وبالرغم من اننا لم ننجز بعد هذا التحويل ، الا ان النتائج التي أعطاها حتى الآن ليست بالقليلة . فالجيش الثالث القديم يقدم ، في الساعة الراهنة [1] ، ٣٨٪ من الشغيلة بالنسبة الى عدد أفراده . اما الوحدات العسكرية العاملة الى جانبه في منطقة الاورال فقد صارت تقدم ٤٩٪ . وهذه النتيجة لايمكن ان نزدري بها اذا ماقارناها بنسبة الغياب، المبرر او غير المبرر ، التي تتجاوز ٥٠٪ في المصانع والمعامل [2]

---

(١) : آذار ١٩٢٠ .

(٢) : انخفضت هذه النسبة بصورة محسوسة الآن (حزيران ١٩٢٠) .

ولنضف الى هذا انه كثيراً ، مايحدث ان يقوم أقارب الشغيلة بتموين المصانع والمعامل ، في حين انه يتوجب على جنود الجيش الاحمر ان يمونوا أنفسهم بأنفسهم .

واذا مانظرنا الى اولئك الشبان الذين يبلغون من العمر تسعة عشر عاماً والذين يجندهم الجهاز العسكري لقطع الحطب ، والذين يبلغ تعدادهم ٣٠٠٠٠ ، لرأينا ان اكثر من ٧٥٪ منهم يثابرون على العمل . وهذا بالفعل تقدم كبير . وانه لبرهان بين ايدينا على اننا باستخدامنا الجهاز العسكري لتعبئتهم وتدريبهم ، نستطيع ان ندخل على وحدات العمل تعديــــلات ستضمن ارتفاعاً كبيراً في نسبة المساهمين في عملية الانتاج المادية .

اننا نستطيع من الآن فصاعداً ان نعلن رأينا في انتاجية جيوش العمل اعتماداً على التجربة المكتسبة . لقد كانت الانتاجية في البدايـة في مختلف ميادين العمل ، وبالرغم من الحماسة الكبيرة ، كبيرة الانخفاض حقاً . وان قراءة البلاغات الاولى عن جيش العمل يمكن ان تبدو مثبطة للعزيمة فعلاً . ان تحضير ساجين [1] مكعب من الحطب كان يتطلب ، في الايام الاولى ، من ثلاثة عشر الى خمسة عشر يوماً من العمل ، في حين انــــه لايتعدى اليوم ، الا نادراً للغاية ، الثلاثـة ايام . وينبغي ان نضيف ان الاختصاصيين في الموضوع قادرون ، في الشروط المناسـبة ، على تحضير ساجين مكعب يومياً ولكل رجل . فماذا حدث في الواقع ؟ لقـد كانت الوحدات العسكرية معسكرة بعيداً عن غابات الاحتطاب . وغالباً ما كان يحدث ان تضطر الى قطع من ستة الى ثمانية فراسخ للوصول الى مكان

(١) : قياس روسي يعادل ٢٫١٣٣٦ متراً .   « المترجم » .

العمل ، مما كان يستغرق جزءاً كبيراً من يوم العمل وكانت الفؤوس والمناشير غير متوفرة في مـــكان العمل وكان كثير من الجنود الحمر ، قادمين من السهوب ، لايعرفون الغابة ولم يحتطبوا في حياتهم قط ، ومـا كانوا معتادين على الفأس والمنشار . وكانت لجـــان الحراج في الاقاليم والمحافظات غير متدربة ، في البداية ، على استخدام الوحدات العسكرية ، وعلى توجيهها الى المكان اللازم ، وعلى توفير الشروط الضرورية لها وعلى هذا فليس من المدهش ان تكون انتاجية العمل ضعيفة . لكن بعد ان قضينا على هذه العراقيل ، حصلنا على نتائج مرضية اكثر بكثير . انـ الساجين المكعب يتطلب ، حسب المعطيات الاخيرة ، وفي الجيش الثالث نفسه ، أربعـة أيام ونصف من العمل ، وهذا ليس ببعيد عن المعيار الحالي . والشيء المشجع بصورة خاصةهو ان الانتاجيةتزداد بشكل منتظم كلما ازداد العمل .

والنتائج التي يمكن الوصول اليها في هذا المجال قد بينتها التجربة القصيرة ، لكن الغنية للغاية ، التي حققتها كتيبة هندسة موسكو . لقـد بدأت القيادة العامة للهندسة ، التي تتولى العمليات ، بتحديد معيار ثلاثة أيام عمل لمكعب الحطب . وقد تم تجاوز هذا المعيار بسرعة . ففي شهر كانون الثاني لم يعد « مكعب » الحطب يتطلب اكثر من يومين ونصف يوم من العمل ، وفي شباط ١٫٥ يوماً ، وهذه نسبة للانتاجيــة كبيرة الارتفاع ، ولقد تم الوصول الى هذه النتيجة بفضل عمل اخلاقي ، وقيام كل شغيل بعمله على أدق وجه ،ويقظة روح العزةلدى الشغيل ،وتخصيص الجوائز للشغيلة الذين ينتجون اكثر من المعيار المحدد ، او على حد تعبير لغة النقابات تحديد تعرفة مرنة مناسبة لكل تفاوتات الانتـاج الفردية .

وان هذه التجربة شبه العلمية ترسم أمامنا الطريق الذي يتوجب علينا ان نسير فيه من الان فصاعداً .

اننا نملك ، في الساعة الراهنة ، عدة جيوش عمل . الجيش الاول، وجيوش بتروغراد واوكرانيا والقفقاس والفولغا ، والاحتياطي . ولقد ساهم الاحتياطي ، كما نعرف ، في زيادة طاقة نقل الخط الحديدي الممتد بين قازان وايكاتيرينبرغ وأينما تمت تجربة استخدام الوحدات العسكرية ولو بقليل من الذكاء ، تكفلت النتائج باثبات ان هذه الطريقة هي بدون ادنى ريب صحيحة وقابلة للحياة

اما الرأي المسبق القائل ان المنظمات العسكرية هي حتماً منظمات طفيلية مهما تكن الشروط ، فقد انهار نهائياً . ان الجيش السوفياتي يجسد اتجاهات النظام السوفياتي الحكومي . ان من الواجب ألا نفكر بعد اليوم بمساعدة تلك الافكار الميتة التي خلفها لنا العهد المنصرم : « النزعة العسكرية » ، « التنظيم العسكري » ، « عدم انتاجية العمل الالزامي» ، وان ننظر دونما احتراس الى ظواهر العهد الجديد ، وألا ننسى ان السبت وجد من أجل الانسان ولم يوجد الانسان من أجل السبت ، وان كل اشكال التنظيم ، بما فيها التنظيم العسكري ، ليست الا أسلحة في أيدي الطبقة العاملة الحاكمة التي لها الحق والقدرة في ان تلائم اسلحتها وتعدلها وتعيد صنعها مادامت لم تحصل بعد على النتائج المطلوبة .

حول الخطة الاقتصادية الموحدة

ان التطبيق الواسع لالزامية العمل وتدابير تنظيم العمل عسكرياً، لايمكن ان تلعب دوراً حاسماً إلا بشرط ان تطبق على أسس خطة اقتصادية

موحدة تشمل كل البلاد وكل فروع الصناعة . وان هذه الخطة يجب ان تحسب على أساس عدد معين من السنين . وطبيعي ان تنقسم الى مراحل تتناسب مع المراحل الحتمية في النهوض بالبلاد . وان علينا ان نبدأ بأبسط المهام وأهمها في آن واحد .

من الضروري ، قبل كل شيء ، ان نضمن للطبقة العاملة امكانية الحياة ، ولو في أصعب الشروط ، وان نحافظ بالتالي على المراكز الصناعية وان ننقذ المدن . هذه هي نقطة الانطلاق . واذا كنا لانريد ان يغرق الريف المدن ، وان تغرق الزراعة الصناعة ، واذا كنا لانريد انتتحول البلاد الى ريف ، فان علينا ان نحافظ ، ولو في نطاق الحد الادنى ، على مواصلاتنا ، وان نؤمن الخبز للمدن ، والوقود والمواد الاولية للصناعة ، والعلف للماشية . ولا امكان للتقدم بدون ذلك . وعلى هذا فان أعجل مهام الخطة تحسين حالة المواصلات ، أو على الاقل اتقاء تخريبها ، وتخزين الاحتياطي الضروري من الحبوب والمواد الاولية والوقود . وان كل المرحلة القادمة ستخصص لتمركز اليد العاملة وتوجيهها نحو حل هذه المشكلات الجوهرية ، وهذا شرط مسبق للتطور الاقتصادي اللاحق فهل نحسب مدة المرحلة الاولى والمراحل التالية ، بالشهور او السنين ؟ هذا مايصعب التنبؤبه منذ الان، باعتبار انهذاكله يتعلق بأسباب متعددة بدءاً من الوضع الدولي الى درجة اجماع ومقاومة الطبقة العاملة .

وعلينا في المرحلة الثانية أن نقوم بانشاء الآلات الضرورية للنقل، وان نتمون بالمواد الأولية والحبوب وتحتل القطارات هنا لب المسألة . ان تصليح القطارات يتم حالياً بطرائق بدائية تتطلب تبذيراً للقوى

ولأموال كثيرة . فمن الضروري بالتالي ان نقوم من الآن فصاعداً بتصليح قطع الغيار بصورة كثيفة لا إفرادية واليوم بعد ان أصبحت سكك الحديد ومصانع روسيا بكاملها بين يدي مالك وحيد الحكومة العمالية . فاننا نستطيع ويتوجب علينا ان نضع نمطاً موحداً للقاطرات والشاحنات في البلاد قاطبة ، وان نوحد قطع الغيار ، وان ندعو جميع المصانع الضرورية الى صنع هذه القطع بصورة موحدة ، وان نتوصل الى ان تكون التصليحات مجرد استبدال بسيط للقطع المهترئة بقطع جديدة ، حتى نكون بالتالي قادرين على تركيب القاطرات بصورة جماعية . واليوم بعد ان أصبحت مصادر الوقود والمواد الأولية مفتوحة أمامنا من جديد ، فان علينا ان نوجه عناية خاصة الى صنع القاطرات .

وسيكون من الضروري ، في المرحلة الثالثة ، ان نبني آلات تصلح لصنع بعض السلع التي لها ضرورة أولية .

وأخيراً فان المرحلة الرابعة ، التي ستعتمد على النتائج التي حققتها المراحل الثلاث الاولى ، ستسمح لنا بالانتقال الى انتاج السلع ذات الاستهلاك الشخصي على أوسع نطاق .

ان لهذه الخطة أهميتها البالغة ، لا باعتبارها توجيهاً عاماً لأجهزتنا الاقتصادية فحسب ، بل أيضاً باعتبارها خطاً للدعاية المتعلقة بالمهام الاقتصادية في صفوف الجماهير العمالية . ان تعبئتنا من أجل العمل ستظل حبراً على ورق ولن تعطي ثمارها اذا لم نضع يدنا على النقطة الحساسة لدى كل من هو مستقيم وواع ومتحمس من أبناء الطبقة العاملة . ان علينا ان نقول للجماهير كل الحقيقة عن وضعنا وعن نياتنا في المستقبل ، وان نعلن لها

بصراحة ان خطتنا الاقتصادية لن تمنحنا لا غداً ولا بعد غد، ولو بـذل الشغيلة أقصى جهودهم ،جبالاً وعجائب ، ذلك اننا سنوجه عملنا الرئيسي، خلال المرحلة القريبة ، الى تحسين وسائل الانتاج بهدف انتاجية اكبر . ولن ننتقل الى صنع السلع الاستهلاكية الا حين نصبح قادرين ، ولو في نسب ضعيفة ، على تجديد وسائل النقل والانتاج . وعلى هذا فان النتاج المحسوس ، النتاج المخصص للشغيلة تحت شكل سلع ذات استعمال شخصي ، لن يأخذ طريقه الى الوجود الا في آخر المراحل ، حين نكون قد وصلنا الى المرحلة الرابعة من الخطة الاقتصادية . وانما بهذا الشرط وحده يمكن ان نتوصل الى تحقيق تحسن ملموس في شروط الحياة . وان على الجماهير أن تفهم ، كي تكون قادرة على تحمل الاعباء وتحمل التعب والحرمان لمدة طويلة ، المنطق المحتم لهذه الخطة الاقتصادية بكل اتساعه .

ان ترتيب هذه المراحل الاقتصادية الأربع يجب ألا يؤخذ بصورة مطلقة . فليس في نيتنا ايقاف صناعة النسيج نهائياً ، ونحن لا نستطيع ذلك أصلاً لأسباب عسكرية محضة . لكن حتى لا تتشتت القوى والاهتمامات تحت ضغط الضرورات التي تفرض نفسها بقسوة ، ينبغي الخضوع للخطة الاقتصادية التي هي المعيار الرئيسي ، وتمييز الجوهري من الثانوي . ولا حاجة بنا الى القول اننا لا نتطلع البتة الى شيوعية اجتماعية ووطنية ضيقة : فرفع الحصار واندلاع الثورة الاوروبية سيدخلان تعديلات عميقة على خطتنا الاقتصادية تؤدي الى اختصار مدة مراحل تطورها وتقرب المسافات مابين هذه المراحل . لكننا لا نستطيع ان نتوقع موعد حدوث هذين الحدثين . وهذاهو السبب الذي يحتم علينا ان نعمل بصورة نحافظ معها على أنفسنا ونقوي مواقعنا بالرغم من النمو

الضعيف ، اي البطيء للغاية ، للثورة الاوروبية والعالمية . واذا ماحدث واستأنفنا فعلاً العلاقات التجارية مع البلدان الرأسمالية ، فسوف نستوحي أيضاً الخطة الاقتصادية المذكورة آنفاً . اننا سنصدر قسماً من موادنا الأولية مقابل القاطرات وغيرها من الآلات الضرورية ، لكن ليس ، في أي حال من الأحوال ، مقابل الألبسة أو الاحذية أو منتجات المستعمرات الغذائية ، ذلك ان ما نهدف اليه مباشرة هو استيراد وسائل النقل والانتاج لا سلع الاستهلاك .

اننا سنكون ريبيين عمياناً وبورجوازيين صغاراً بخلاء لو تصورنا ان النهضة الاقتصادية يمكن ان تكون انتقالاً تدريجياً من حالة الفوضى الشاملة الراهنة الى الحالة التي سبقتها ، أو بتعبير آخر اذا ما تصورنا اننا نستطيع ان نعاود صعود درجات السلم كما نزلناها . والحق أننا لن نستطيع ان نعيد اقتصادنا الاشتراكي الى المستوى الذي كان عليه عشية الحرب الامبريالية الا بعد فترة من الزمن طويلة بما فيه الكفاية . وان الطريقة الاولى في تصور الامور لن تكون معزية لنا البتة ، بل ستكون على العكس خاطئة تماماً . ان الفوضى التي قضت ودمرت ثروات لاتحصى ، قد حررت الاقتصاد في الوقت نفسه من كثير من الروتين والعطالة والطرق البالية ، شاقة بذلك الطريق امام البناء الاقتصادي الجديد على اساس المعطيات التكنيكية التي هي ، في الساعة الراهنة ، معطيات الاقتصاد العالمي .

واذا كانت الرأسمالية الروسية قد تطورت بدون انتقال من درجة الى درجة ، بل وثباً ، مقيمة في اعماق السهوب المصانع على الطريقة الاميركية ، فهذا سبب اضافي آخر كيما يكون الاقتصاد الاشتراكي قادراً

على مثل هذا السير القسري . وعندما نتغلب على بؤسنا الشديد ، ونجمّع بعض الاحتياطي من المواد الاولية والحبوب ، ونحسن المواصلات ، بعد ان نكون قد تحررنا من قيود الملكية الخاصة ، فستتاح لنا الامكانية لتخطي عدة درجات بقفزة واحدة ولربط كل المشاريع وكل الموارد الاقتصادية بالخطة الاقتصادية الموحدة .

وهكذا سنستطيع حتماً ان ندخل الكهربة الى كل فروع الصناعة الأساسية والى قطاع الاستهلاك الشخصي دون أن نكون مضطرين الى المرور من جديد بـ « عصر البخار » . وإن برنامج الكهربة في روسيا مقسوم الى عدد معين من المراحل المتتابعة المتناسبة مع المراحل الاساسية من الخطة الاقتصادية العامة .

ان حرباً جديدة قد تؤخر تحقيق اهدافنا الاقتصادية . وان على طاقتنا وقدرتنا على المثابرة ان تعجلا بعملية النهضة الاقتصادية . لكن مهما كانت السرعة التي ستظل الاحداث تتطور بها ، فمن الواضح ان اساس عملنا كله (تعبئة العمل ، تنظيم اليد العاملة عسكرياً ، ايام السبت الشيوعية وغيرها من مظاهر التطوع الشيوعي للعمل) يجب ان يستند الى خطة اقتصادية موحدة. وان المرحلة التي ندخل فيها ستتطلب منا تركيزاً كاملاً لكل طاقتنا على المهام الاساسية الأولى : التموين ، الوقود ، المواد الاولية والنقل . وعلينا ، بانتظار ذلك ، ألا نشتت اهتمامنا ، وألا نبدد قوانا وألا نبذرها . هذا هو طريق الخلاص الوحيد .

القيادة الجماعية والقيادة الشخصية

إن المنشفيك يقامرون أيضاً على مسألة اخرى . مسألة تبدو

وكأنها تتيح لهم الفرصة للتقرب من جديد من الطبقة العاملة . اننا نريد ان نتكلم عن شكل قيادة المشاريع الصناعية : أقيادة جماعية امشخصية؟ يقال لنا ان تسليم المصانع الى مدير واحد بدلاً من مكتب جريمة ضد الطبقة العاملة والثورة الاشتراكية وانه لمن المدهش على كل الأحوال أن أشد المتحمسين دفاعاً عن الثورة الاشتراكية ضد النظام المعتمد على الشخص الواحد هم اولئك المنشفيك انفسهم الذين كانوا ، الى عهد قريب ، يعتبرون الكلام عن الثورة الاشتراكية سخرية من التاريخ وجريمة بحق الطبقة العاملة

وبموجب هذا المنطق فان مؤتمر حزبنا الشيوعي مذنب كبير تجاه الثورة الاشتراكية ، لأنه اعلن تأييده لعودة نظام الشخص الواحد في قيادة الصناعة ، وقبل كل شيء في المصانع والمعامل . الا انه من الخطأ الكبير أن نعتبر أن هذا القرار يمكن ان يلحق ضرراً بنشاط الطبقة العاملة . ان نشاط الشغيلة لايتحدد ولايقاس بكون المصنع مداراً من من قبل ثلاثة اشخاص أو شخص واحد ، بل بعوامل ووقائع اهم شأناً واعمق بكثير : بانشاء الأجهزة الاقتصادية مع مساهمة النقابات الايجابية، وبانشاء جميع الاجهزة السوفياتية التي تتكون منها مؤتمرات السوفييتات والتي تمثل عشرات الملايين من الشغيلة ، وبدعوة العمال الى المساهمة في القيادة(او الاشراف على القيادة). وانما في هذا يكمن نشاط الطبقة العاملة . واذا ما توصلت الطبقة العاملة ، خلال تجربتها الخاصة ، بواسطة اجهزة مؤتمرات الحزب والسوفييتات والنقابات ، الى الاستنتاج بأنه من الافضل ان يتولى ادارة المصنع مدير واحد بدلاً من مكتب جماعي ، فهذا قرار املاه عليها نشاطها. وقد يكون صحيحاً او خاطئاً من وجهة نظر التكنيك

الاداري . لكن مامن احد يفرضه ، في اي حال من الأحوال ، على البروليتاريا . انما تمليه عليها ارادتها الخاصة . وانه لمن الخطأ الفادح ان تخلط مسألة سلطة البروليتاريا مع سلطة المكاتب العمالية التي تسير المصانع . ان دكتاتورية البروليتاريا تعبر عن نفسها بالغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وسيطرة ارادة الجماهير الجماعية على كل الآلة السوفياتية ، لا بأشكال ادارة المشاريع المختلفة .

وقبل أن نمضي الى أبعد من ذلك ، لنفند هنا تهمة أخرى موجهة الى انصار ادارة الشخص الواحد . ان الخصوم يعلنون : انهم العسكريون السوفياتيون الذين يحاولون ان ينقلوا تجربتهم من الميدان العسكري الى الميدان الاقتصادي . ومن الممكن أن يكون مبدأ ادارة الشخص الواحد ممتازاً في الجيش ، لكنه لايساوي شيئاً في الاقتصاد . ان هذا التوكيد خاطىء من كل الجوانب . فليس صحيحاً البتة ولأ اننا بدأنا في الجيش تطبيق نظام الشخص الواحد . ونحن لم نطبقه فيه بشكل تام حتى هذه الساعة . ومن الخطأ أيضاً التأكيد بأننا لم نبدأ بالدفاع عن أشكال ادارة الشخص الواحد مع مساهمة الاختصاصيين في المشاريع الاقتصادية إلا اعتماداً على تجربتنا العسكرية . والواقع اننا انطلقنا وننطلق في هذه المسألة من مفهوم ماركسي خالص للمشكلات الثورية ولمهام البروليتاريا حين تستولي على السلطة .

لقد فهمنا ، لا منذ بداية الثورة بل قبل تشرين الاول بمدة طويلة ، ضرورة الاستفادة من معارف وتجارب الماضي التكنيكية ، وضرورة استدعاء الاختصاصيين واستخدامهم على أوسع نطاق ممكن ، حتى لايتراجع التكنيك الى الوراء بل يتابع تقدمه . وانني لأفترض اننا كنا سنسير بصورة اعجل وبدون ألم في طريق نظام الشخص الواحد في الادارة

الاقتصادية ، لو لم تخرب الحرب الاهلية أجهزتنا الاقتصادية فتحرمها من كل هو حيوي فيها ، وبالتالي من المبادهة والنشاط .

ان بعض الرفاق يعتبرون ان جهاز الادارة الاقتصادية هو قبل كل شيء مدرسة . وهذا خاطىء كل الخطأ . ان مهمة اجهزة الادارة هي القيادة . ومن يشعر في نفسه الرغبة والقدرة على القيادة فليذهب الى المدارس ، ليحضر دروس المعلمين الخاصة ويعمل كمساعد لهم ، كيما يراقب ويكتسب خبرة . لكن من يستدعى الى ادارة مصنع من المصانع ، فانه لايأتي ليتعلم بل ليشغل منصباً ادارياً واقتصادياً له مسؤولياته . لكن اذا مانظرنا الى هذه المسألة من الزاوية الضيقة الخاطئة ، من زاوية «المدرسة» فانني سأقول ان نظام الشخص الواحد يمثل مدرسة أفضل بعشر مرات . وبالفعل اذا كان يستحيل عليكم ان تستبدلوا شغيلاً صالحاً بثلاثة آخرين ليسوا اكفاء بما فيه الكفاية ، واذا شكلتم مع ذلك مكتبا منهم تعهدون اليه بوظائف هامة في الادارة ، فانكم تضعونهم بذلك في موضع يستحيل معهم عليه أن يدركوا ماينقصهم . ان كلا منهم يعتمد على الآخرين عند اتخاذ قرار من القرارات ، وفي حال الفشل يلقون المسؤولية على بعضهم البعض .

أما ان هذه المسألة ليست مسألة مبدئية ، فهذا مايثبته خصوم نظام الشخص الواحد علناً ، باعتبار أنهم لايطالبون بنظام المكاتب الجماعية للورشات والتعاونيات والمناجم . بل انهم يذهبون الى حد القول انه من الجنون المطالبة بأن يدير ورشة من الورشات ثلاثة أو خمسة أشخاص : فهم يرون ان الادارة ينبغي ان تكون في يد مدير مهني . لماذا ؟ اذا كانت

الادارة الجماعية مدرسة ، فلماذا لا نقبل ايضاً بمدرسة ابتدائية مماثلة ؟ لماذا لا ندخل الادارة الجماعية الى الورشات ايضاً ؟ لكن اذا لم يكن نظـام المكاتب شرطاً ضرورياً للورشات ، فلم يكون ضرورياً للمصانع ؟

لقد قال آبراموفيتش هنـــا انه ما دامت روسيا تفتقر الى الاختصاصيين — ويزعم بدوره بعد كاوتسكي ان هـذه غلطة البلاشفة — فمن الضروري استبدالهم بمكاتب عمالية . ان هذه لسذاجات خالصـة . ان ما من مكتب مؤلف من أشخاص يجهلون المهنة ، يستطيـع ان يحل محل رجل كفؤ . ان جماعة — او مكتباً — من الحقوقيين لا تستطيـع ان تحل محل مستخدم التحويل في السكك الحديدية . وان جماعة — او مكتباً — من المرضى لا تستطيـع ان تحل محل طبيب . ان الفكرة نفسها خاطئة . ان المكتب لا يستطيـع ان يعلم الجاهل شيئاً من تلقاء نفسه . انه لا يستطيع الا أن يخفي جهله . واذا عهد الى شخص بمنصب اداري هام ، فستتاح له الامكانية ليرى بوضوح ، لا لدى الآخرين فحسب بل لدى نفسه أيضاً ، ما يعرفه وما يجهله . لكن لا شيء أسوأ من مكتب جاهل ، مؤلف من شغيلة لم يهيئوا للوظيفة المعهود بها اليهم والتي تتطلب معارف خاصـة . ان أعضاءه سيكونون بالتالي محتارين دوماً ومستائـين من بعضهم البعض ، وهذا ما سيزرع الفوضى في عملهم . ان الطبقة العاملة تهتم اهتماماً عميقاً بتوسيـع قدراتها على القيادة ، أي بالتثقف . لكنها لا تستطيـع أن تنجح في الميدان الصناعي الا اذا كانت الادارة تتناول بنشاطها كل جهاز المصنع ، وتستفيد من هذه الفرص لتخضع المناقشة خطة العمل الاقتصادية السنوية او الشهرية . ان جميـع العمال الذين يهتمون اهتماماً جدياً بمسألة التنظيـم الصناعي يلاحظون من قبل مدراء المشروع أو من قبل اللجان ، ويرسلون

لتلقي دروس خاصة وثيقة الارتباط بالعمل التطبيقي في المصنع نفسه . ويعينون فيما بعد في مناصب ثانوية الأهمية ، لرفعهم من ثم الى وظائف أهم. هكذا دربنا الآلاف وسندرب أيضاً عشرات الآلاف .

ان مسألة الادارة من قبل ثلاثة أو خمسة أشخاص لا تهم الجماهير العاملة ، بل البيروقراطية العمالية السوفياتية الأكثر تخلفاً والأضعف والأقل قدرة على العمل المستقل ان المدير المتقدم ، الحازم والواعي ، يميل بالطبع الى أن يأخذ بين يديه المصنع كله ، ويثبت بالتالي لنفسه وللآخرين انه قادر على الادارة . لكن اذا كان المدير ضعيفاً ، فانه سيسعى الى الاتحاد مع آخرين حتى يخفي ضعفه . ان نظام المكاتب الجماعية كثير الأخطار بسبب اختفاء المسؤولية الشخصية فيه . واذا كان العامل قادراً لكن قليل التجربة ، فانه بحاجة الى مدير . وهو سيكتسب، تحت ادارته ، المعارف التي تنقصه ، وسنستطيع في الغد أن نجعل منه بدوره مدير مصنع صغير . هكذا سيشق طريقه . لكن اذا ما حدث له أن وقع في مكتب جماعي لا تتجلى فيه قوة كل فرد أو ضعفه بصورة واضحة ، فان شعوره بالمسؤولية سيتلاشى حتماً .

بديهي ان قرارنا لا ينص على الاعتماد الدائم الاجباري على ادارة الشخص الواحد المعين بضربة قلم . فثمة مجال للكثير من التركيبات والفروق . فحين يستطيع العامل ان يصل الى مستوى جدير بمهمته ، فاننا سنجعل منه مدير المصنع مضيفين اليه مساعداً اختصاصياً واذا كان الاختصاصي رجلاً ذا قيمة ، فانه هو الذي سنعينه مديراً مضيفين اليه اثنين او ثلاثة من العمال المساعدين واذا ما اثبت المكتب الجماعي اخيراً قدرته على العمل ، فاننا سنحتفظ به . وتلك هي الصورة الجديدة الوحيدة في

فهم المسألة ، ولن نستطيع بأي طريقة غيرها ان نتوصل الى التنظيم النظامي للانتاج .

هناك ايضاً اعتبار آخر ذو طابع اجتماعي وتربوي يبدو لي هاماً للغاية ان النخبة القيادية من الطبقة العاملة في روسيا قليلة العدد . ولقد عرفت هذه النخبة العمل السياسي اللامشروع . وخاضت النضال الثوري مدة طويلة من الزمن . ولقد اقامت في بلدان اجنبية . ولقدقرأت كثيراً في السجون والمنفى ، واكتسبت خبرة سياسية جيدة وسعة افق في وجهات النظر . انها تمثل زهرة الطبقة العاملة . ويقف خلفها الجيل الفتي الذي ساهم عن وعي في الثورة منـــذ ١٩١٧ . واينما وجهنا أبصارنا - الى البناء السوفياتي ، الى النقابات ، الى عمل الحزب ، الى جبهة الحرب الأهليـة - وجدنا دوماً أن الدور القيادي انما تلعبه نخبة من البروليتاريا هذه . لقد كان العمل الحكومي الرئيسي للسلطة السوفياتية ، خلال العامين ونصف العام المنصرمين ، يقوم على المناورة بتوجيه هـذه النخبة من الشغيلة من جهة الى اخرى . وان الفضائل الأعمق من الطبقـة العاملة ، ذات الأصل الفلاحي ، ماتزال فقيرة بالمبادهة ، رغم روحها الثورية . فممَ يشكو فلاحنا الرومي الموجيك ؟ من داء القطيـع ، من غياب الفردية ، اي على وجه التحديد مما تغنى به اصحابنا النارودينك الروجعيون ، ومما مجده تولستوي في شخص افلاطون كاراتاييف : فالفلاح ينحل في جماعته ويخضع للارض. وواضح ان الاقتصاد الاشتراكي لايقوم على امثال افلاطون كاراتاييف ، بل على الشغيلة الذين يفكرون ، المتمتعين بروح المبادهـــة والواعين لمسؤولياتهم . ان علينا أن نطور روح المبادهة بأي ثمن لدى العامل . ان صفة البورجوازية الاساسية هي المذهب الفردي الشره وروح المنافسة . أما الصفة الأســاسية للطبقة العاملة فليست متناقضة مـــع التضامن

والتعاون الأخوي . ان التضامن الاشتراكي لايمكن ان يقوم على غياب كل فردية وعلى اللاوعي الحيواني . وانما غياب الفردية هذا هو الذي يختفي على وجه التحديد وراء نظام المكاتب والادارة الجماعية .

ان الطبقة العاملة تملك الكثير من القوى والمواهب والقدرات . وينبغي أن نستفيد من كل ذلك ، وان نفجر بالتنافس الطاقات كافة . وادارة الشخص الواحد في المجال الاداري والتكنيكي تساهم في ذلك . وهذا هو السبب الذي من أجله تتفوق على الادارة الجماعية وتفوقها عمقاً .

خاتمة

أيها الرفاق ، ان حجج الخطباء المنشفيك ، وبصورة خاصة ابراموفيتش ، تعكس بعد كل شيء بعداً تاماً عن الحياة واعبائها . انهم أشبه بمراقب يتوجب عليه أن يعبر مجرى مائياً سباحة ، فيفكر قبل ذلك تفكيراً عميقاً بنوعية المياه وقوة التيار مع أن المشكلة هي قبل كل شيء عبور الماء ! ويقفز صاحبنا الكاوتسكي على قدمه اليمنى تارة ، واليسرى تارة أخرى ، قائلاً : « نحن لاننكر هذه الضرورة . الا أننا نرى الاخطار ، فهي عديدة التيار سريع ، وثمة صخور ، ونحن متعبون الخ ، الخ . لكن من غير الصحيح ، من غير الصحيح على الاطلاق ، ان نلام على أننا لانقبل بضرورة عبور الماء . اننا لم نرفض القبول بها ، حتى منذ ثلاثة وعشرين عاماً » .

ان كل حججهم ، من أولها الى آخرها ، مبنية على هذه الشاكلة . يقول المنشفيك : أولاً نحن لاننكر قط ضرورة الدفاع وبالتالي ضرورة

الجيش . ثانيا ، نحن لاننكر مبدئيا الزامية العمل . عفواً ، اسمحوا لنا ! هل وجد قط في هذه الدنيا ، باستثناء اتباع بعض الشيع الدينية ، رجال قادرون على رفض فكرة الدفاع المشروع « بصورة عامة » ؟ ان جميع موافقاتكم المجردة لاتقدمنا بوصة واحدة . فعندما انطرحت علينا مسألة انشاء جيش والنضال ضد الاعداء الواقعيين للطبقة العاملة ، كيف كان موقفكم ؟ لقد عارضتم ذلك ، وصحيح أنكم لم تنكروا ضرورة الدفاع عن النفس ، لكنكم خربتموها كنتم تقولون وتكتبون في صحفكم : « لتسقط الحرب الاهلية ! » في الوقت الذي كان فيه الحرس الابيض يضع السكين على أعناقنا . وها أنتم ، بعد موافقتكم المتأخرة على دفاعنا المنتصر ، تشهرون نظرتكم المنتقدة على مهامنا الجديدة وتعلنون لنا « نحن لانرفض ، بصورة عامة ، إلزاميةالعمل لكن ... بدون إكراه حقوقي » . ياله من تناقض داخلي رائع في هذه الكلمات وحدها ! ان لفظة « الإلزامية » تحتوي في حد ذاتها على عنصر إكراه . ان الإنسان مكره على فعل شيء ما . واذا لم يفعل شيئاً ، فبديهي أنه سيعاني من الاكراه ، او من القصاص بتعبير آخر . يبقي علينا ان نعرف ماهو الاكراه . ان ابراموفيتش يعلن : « الضغط الاقتصادي ، اجل ، لكن لا الإكراه الحقوقي » . لقد بين ممثل نقابة عمال التعدين ، الرفيق هولزمان ، بصورة رائعة ، كل ماهناك من سكولائية في مثل هذا التفكير ، فالضغط الاقتصادي لاينفصل عن الاكراه الحقوقي ، حتى في ظل النظام الرأسمالي . فكم بالأحرى اليوم !

لقد حاولت ان أبين ، في تقريري ، انه ليس ثمة الا امكانية واحدة لتثقيف الشغيلة على أسس اجتماعية جديدة وتدريبهم على اشكال جديدة

للعمل ، والوصول الى انتاجية أعلى في العمل : تطبيق عدة طرائق في آن واحد : طرائق المصلحة الاقتصادية ، والاكراه الحقوقي ، والتأثير الذي يمكن ان يمارسه التنظيم الاقتصادي المنسق داخلياً ، والقصاص ، وبصورة خاصة واولاً واخيراً الاقناع والتحريض والدعاية ، واخيراً رفع المستوى العام للثقافة . ولن نستطيع الوصول الى مستوى عـــال في الاقتصاد الاشتراكي الا بلجوئنا الى كل هذه الوسائل مجتمعة .

واذا كانت المصلحة الاقتصادية ، في النظام الرأسمـالي ، تترافق بصورة حتمية والاكراه الحقوقي الذي تكمن خلفه القوة المادية للدولة ، فلا مجال في الدولة السوفياتية ، أي في دولة الانتقـــال الى الاشتراكية ، لفصل الاكراه الاقتصادي عن الاكراه الحقوقي بصورة عامـة . ان أهم المشاريع في روسيا هي في أيـدي الدولة . وحين نقول للعامل الخراط ايفانوف : « عليك ان تشتغل حالياً في مصنـع سورموفو . واذا رفضت فلن تتلقى وجبتك » ـ فما هذا ؟ أضغط اقتصادي ام اكراه حقوقي ؟انه لايستطيع الذهاب الى مصنع آخر ، فجميـع المصانع هي في يـد الدولة التي لن تسمح بهذا الانتقال . ان الضغط الاقتصادي يختلط هنا بالقمـع الحكومي . ويريد ابراموفيتش ظاهرياً ان ينظم توزيـع اليد العاملة على أساس زيادة الاجور ومنح الجوائز ، الخ ، بصورة تكفي لاجتذاب الشغيلة اللازمين لأهم المشاريـع . هذه هي ، على مايبدو ، كل فكرته . لكن اذا ماطرحت المسألة على هذا النحو ، فان كل مناضـل شريف في الحركة النقابية سيفهم ان هذه طوبائية من اسوأ الطوبائيات . اننا لانستطيـع ان نأمل في تدفق اليد العاملة الى سوق العمل ، دون ان يكون لدى الدولة مافيه الكفاية من موارد الغذاء والسكن والمواصلات ـ أي على وجـه

التحديد الموارد التي مايزال علينا ان نخلقها . ولن نتوصل الى أي نتيجة ، بدون نقل جماعي لليد العامـلة ، منظم من قبل الدولة ، حسب حاجات الاجهزة الاقتصادية . وهنا تأتي ساعة الاكراه ، وتتجلى كل ضـرورتها الاقتصادية . لقد قرأت لكم برقية من ايكاتيرانبورغ عن سير أعمال جيش العمل الاول . ولقد جاء فيها ان اكثر من أربعة آلاف عامل مختص قد مروا على لجنة الأورال المكلفة بتطبيق إلزامية العمل . فمن اين جاؤوا ؟ من الجيش الثالث السابق في معظمهم . فهم لم يرجعوا الى بيوتهم ، بل عهد اليهم بمهمة جديدة . وهكذا استلمتهم لجنة إلزاميـــة العمل من الجيش ، وقسمتهم الى فئات ، ووزعتهم على المصانع . وهذا – من وجهـة النظر الليبيرالية – « عنف » ضـد الحرية الفردية . الا ان الغالبية الساحقة من العمال ذهبت عن طواعية الى جبهة العمل ، كما ذهبت عن طواعية في السابق الى جبهة الحرب، مدركة ان هذا تقتضيه مصالح عليـا . غير ان بعضهم لم يرض من تلقاء نفسه . وهؤلاء هم وحدهم الذين أكرهوا .

ولا حاجة بنا البتة الى القول إن على الدولة ان تضع ، بواسـطة نظام الجوائز ، خير العمال في أحسن الشروط . لكن هذا لا يستبعد ، بل على العكس يفترض ان الدولة والنقابات (التي لن تستطيـع الحكومـة السوفياتية ان تبني صناعتها بدون مساعدتها) ستتمتع ببعض الحقوق الجديدة على العامل . ان العامل لا يساوم الحكومة السوفياتية انه تابـع للدولة وخاضع لها من كل الزوايا ، نظراً الى انها دولته هو .

يعلن ابراموفيتش : « لو قيل لنا ببساطـة ان المسألة هي مسألة انضباط نقابي ، لما كانت هناك من حاجة للأخذ والرد . لكن ماذخـل

النزعة العسكرية هنا ؟ » . يقينـــاً إن المسألة هي الى حد كبير مسألة انضباط نقابي ، لكن الانضباط الجديد للنقابات الصناعية الجديدة . اننا نعيش في بلد سوفياتي ، تحكم فيه الطبقة العاملة ، وهذا مالايفهمه أصحابنا الكاوتسكيون . فحين يقول المنشفيكي روبتسوف انه لم يبق شيءتقريباً من النقابات في تقريري ، فان في هذا القول حبة من الحقيقة . وبالفعل لم يبق فيه شيء يذكر من النقابات كما يفهمها ، أي من النقابات ذات الصفة التريديونيونية . لكن اكبر المهام تقع على عاتق التنظيم المهني والصناعي للطبقة العاملة في روسيا السوفياتية . فما هـذه المهام ؟ انها ليست بالطبع النضال ضد الحكومة باسم مصالح العمل . بل المسألة مسألة بناء ، بنـاء اقتصاد اشتراكي بالتفاهم التام مع الحكومة . ان هذا النوع من النقابةهو مبدئياً تنظيم جديد لايتميز عن النقابات التريديونيونية فحسب ، بل ايضاً عن النقابات الثورية في ظل الانظمة البورجوازيـــة ، كما تتميز سيطرة البروليتاريا عن سيطرة البورجوازية . ان النقابة الصناعية للطبقة العاملة الحاكمة ليست لها المهام نفسها والطرائق نفسها والانضباط نفسه ، الـتي للنقابات المناضلة التابعة للطبقة العاملة المضطهدة . ان على جميع العمال في روسيا ان يدخلوا الى النقابات . وانما ضدهذا المبدأ يقف المنشفيك .وهذا شيء مفهوم تماماً ، لأنهم في الواقع ضد **دكتاتورية البروليتاريا** . وهذه هي بالفعل خلاصة المسألة كلها . ان الكاوتسكيين هم ضـــد دكتاتورية البروليتاريا ، وضد كل نتائجها بالتالي. ان الاكراه الاقتصادي والاكراه السياسي ليسا الا تجلياً لدكتاتوريةالطبقة العاملة في مجالين وثيقي الارتباط. ألم يبين لنا ابراموفيتش بعمق انه لايمكن أن يوجد اكراه في النظـــام الاشتراكي ، وان العقاب مضاد للاشتراكية ، وان شعور الواجب وعادة

العمل وجاذبيته ، الخ ، تكفي . هذا أمر لايقبل جدالاً . وليس ثمة من حاجة الا الى توسيع هذه الحقيقة التي لاتمارى . والحقيقة انه في النظام الاشتراكي لن يوجد جهاز اكراه ، لن توجد دولة . ان الدولة ستنحل في كومونة الانتاج والاستهلاك . لكن هذا لايعني أن طريق الاشتراكية لايمر بأعلى درجات توتر التدويل . وانما هذه المرحلة هي التي نجتازها الآن على وجه التحديد معكم . فكما أن القنديل يتألق نوره ساطعاً قبل أن ينطفىء ، كذلك فإن الدولة ، قبل أن تختفي ، تأخذ شكل دكتاتورية البروليتاريا ، أي شكل أقسى حكومة وجدت في التاريخ،حكومة تحتضن بصورة آمرة حياة المواطنين كافة . ان هذه الترهة ، هذه الدرجة الصغيرة في التاريخ - الدكتاتورية الحكومية - لم يلاحظها ابراموفيتش والمنشفيكية التي يمثلها . وهذا مايجعلها يتعثران .

ان ما من تنظيم آخر في الماضي ، ماعدا الجيش ، قد مارس تجاه الانسان اكراهاً كالذي يمارسه التنظيم الحكومي للطبقة العاملة في أقسى مراحل الانتقال . وانما بسبب هذا على وجه التحديد نتكلم عن التنظيم العسكري للعمل . ان قدر المنشفيك هو أن يلهثوا وراء الاحداث وان يعترفوا بتلك الاجزاء من البرنامج الثوري التي استهلك الزمن كل أهمية عملية لها . ان المنشفيكية ماعادت تماري اليوم - رغم تحفظاتها - في شرعية عمليات القمع ضد الحرس الابيض والفارين من الجيش الاحمر . ولقد اضطرت الى القبول بها بعد تجاربها الخاصة التعيسة في « الديموقراطية » . لقد فهمت ، على مايبدو ، بعد فوات الأوان ، انه لاتمكن مواجهة العصابات المناهضة للثورة بمجرد التأييد اللفظي للنظام الاشتراكي بدون اللجوء الى الارهاب الاحمر .. لكن المنشفيك مايزالون يحاولون ، على

الصعيد الاقتصادي ، أن يؤجلوا عملنا اليؤديه أبناؤنا وبخاصة أحفادنا . الا انهم ينسون ان علينا أن نبني الآن وبدون تأخير ، ونحن نواجه التركة المؤسفة التي خلفها لنا المجتمع البورجوازي والحرب الاهلية التي لم تنته بعد .

ان المنشفيكية ، شأنها شأن الكاوتسكية كلها بصورة عامة ، تغرق نفسها في الابتذالات الديموقراطية والعرقلات الاشتراكية . وانه ليتضح مرة اخرى انها لاتؤمن بوجود فترة انتقالية ، أي فترة ثورة بروليتارية تفرض مهامها الخاصة بها . ومن هنا كان الطابع الباهت الآسن لانتقاداتها وتعاليمها ومخططاتها وتوجيهاتها ان المسألة ليست مسألة معرفة ماسيجري بعد عشرين أو ثلاثين عاماً . وبديهي أن الامور ستكون آنذاك أحسن مما هي عليه بما لا يقاس . بل معرفة مايجب فعله للقضاء على الفوضى ، ولتوزيع اليد العاملة في هذه المرحلة ، ولرفع انتاجية العمل اليوم ، وللاستفادة بوجه خاص من الأربعة آلاف عامل المختص الذين وجدناهم في الجيش ، في الاورال . فهل نتركهم قائلين لهم : « اذهبوا حيثما يحلو لكم ! » . كلا ، اننا لانستطيع أن نتصرف على هذا النحو . ولقد جندناهم في فرق عسكرية خاصة ووجهناهم الى المعامل والمصانع .

يهتف ابراموفيتش قائلاً : « بمَ تتميز اشتراكيتكم اذن عن العبودية المصرية ؟ وبالفعل لقد كان الفراعنة يشيدون الاهرامات بالطريقة نفسها ، بارغامهم الجماهير على العمل . » . انها حقاً مقارنة لامثيل لها تصدر عن « اشتراكي » ! فههنا أيضاً غابت عن نظر صاحبنا المنشفيكي نقطة صغيرة : طبيعة الطبقة القابضة على زمام السلطة ! ان ابراموفيتش لايجد فرقاً بين نظامنا والنظام المصري . ولقد نسي انه كان في مصر فراعنة وملاك عبيد وعبيد وما كان الفلاحون المصريون هم الذين يقررون بواسطة سوفيتاتهم

بناء الاهرامات بل كان هناك نظام اجتماعي قائم على نظـام الطوائف المتسلسلة المراتب ، وكان عدوهم الطبقي هو الذي يرغمهم على العمل . أما في روسيا فان الاكراه تمارسه السلطة العمالية والفلاحية باسم مصالح الجماهير الـكادحة . هذا مالم يلاحظه ابراموفيتش . لقد تعلمنـــا في مدرسة الاشتراكية أن كل التطور الاجتماعي يقوم على الطبقات وعلى صراعها ، وان كل مجرى الحياة يتحدد بالطبقة القابضة على زمام السلطة وبالمهام التي تحقق سياستها باسمها . هذا مالم يفهمه ابراموفيتش . ومن الجائز أنه يعرف عن ظهر قلب كتاب العهد القديم . لكن الاشتراكية بالنسبة اليه كتاب عويص مغلق .

لقد كان بمقدور ابراموفيتش ، وهو يتابع مقارناته الليبيراليـة والسطحية التي لا تأخذ حساباً لطبيعة الدولة الطبقية ، أقول كان بمقدوره (وهذا ما فعله المنشفيك مراراً كثيرة في الماضي) ان يوحد بـين الجيش الأحمر والأبيض . ففي الجيش الأول كما في الثاني ، كانت التعبئة تـــتم بالدرجة الاولى بين صفوف الجماهير الفلاحية وفي هذا كما في ذاك ، يعتمد على الاكراه وفي هذا كما في ذاك ، يكثر عـــدد الضباط الذين مروا بمدرسة القيصرية نفسها . وفي كلا المعسكرين ، توجد البنادق نفسهـا ، والرصاص نفسه . فما الفرق اذن ؟ ثمة فرق ، أيها السادة ، وهو يتحـدد بمعيار أساسي : **من يقبض على زمام السلطة** ؟ الطبقة العاملة أو النبـلاء ، الفراعنة أو الموجيك ، الطغمة الرجعية أو بروليتاريا بتروسبورغ ؟ ثمة فرق والشاهد على ذلك مصير يودينيتش وكولتشاك ودينيكين . انهم العـــمال الذين جندوا الفلاحين عندنا : أما لدى كولتشاك فهم طائفة من الضباط الرجعيين . لقد رسخ جيشنا اقدامه ووطدها ، أما الجيش الأبيض فقـد

تساقط رماداً. ثمة فرق بين النظام السوفياتي ونظام الفراعنة، وليس من قبيل العبث أن يكون البروليتاريون قد بدؤوا ثورتهم باعدامهم على قباب الاجراس «فراعنة» بترسبورغ [١].

لقد حاول أحد الخطباء المنشفيك عرضاً أن يصورني على أنني محامي النزعة العسكرية بصورة عامة. اذ يتبين، من المعلومات التي يقدمها، انني ادافع عن النزعة العسكرية الالمانية، لا أكثر ولا أقل. وهو يزعم، أصغوا جيداً، انني اعتبر ضابط الصف الالماني معجزة من معجزات الطبيعة وان أعماله فوق التقليد.. فماذا قلت في الواقع؟ قلت فقط ان النزعة العسكرية، التي تجد فيها جميع ملامح التطور الاجتماعي تعبيرها الاكمل والاوضح والمطلق، يمكن ان ينظر اليها من زاويتين: أولاً من وجهة النظر السياسية أو الاشتراكية، وهنا يتعلق كل شيء بمسألة: **ما الطبقة التي تقبض على زمام السلطة**. وثانياً، من وجهة نظر التنظيم كنظام للتوزيع الدقيق للالتزامات، وكنظام للعلاقات المتبادلة النظامية، والمسؤولية المطلقة، والتنفيذ الحازم. ان الجيش البورجوازي جهاز لقمع الشغيلة واضطهادهم بصورة عديمة الشفقة، في حين ان الجيش الاشتراكي جيش لتحرير هؤلاء الشغيلة والدفاع عنهم. لكن تبعية الجزء المطلقة للكل صفة مشتركة لكل جيش. وان النظام الداخلي الحازم المتماسك لهو ميزة التنظيم العسكري. ان كل تهاون، وكل خفة، وكل اهمال، يمكن أن تكون، في الحرب، سبباً في خسائر فادحة. ومن هنا كان ميل التنظيم العسكري الى رفع الوضوح والدقة في العلاقات والمسؤولية الى أعلى درجة.

---

(١) «الفراعنة» لقب شعبي يشار به الى عملاء البوليس القيصريين الذين وضعهم وزير الداخلية بروتو بوبوف في نهاية شباط ١٩١٧ على أسطحة المنازل وقباب الأجراس.

ان مثل هذه الصفات « العسكرية » مقدرة في جميع الميادين . وانما بهذا المعنى قلت ان كل طبقة تعرف كيف تستفيد لخدمتها من أعضائها الذين مروا على الانضباط العسكري في ظروف اخرى مشابهة . واذا كان الفلاح الالماني الميسور قد تخرج من الثكنة كضابط صف ، فهو بالنسبة الى الملكية الالمانية – وكذلك بالنسبة الى جمهورية ايبرت أثمن من أي فلاح آخر لم يمر بالمدرسة نفسها . ان جهاز السكك الحديدية الالمانية قد تحسن بصورة محسوسة بفضل وجود ضباط الصف والضباط في المراكز الادارية التابعة لمديرية خطوط المواصلات . وبهذا المعنى علينا ان نتعلم الشيء الكثير من النزعة العسكرية . لقد أكد لنا منا الرفيق تزيبيروفيتش، أحد المناضلين المعروفين في نقاباتنا ، ان العامل النقابي الذي مر على الانضباط العسكري طوال سنوات ، وشغل على سبيل المثال منصب مفوض ، لا يخسر شيئاً من قدرته على العمل النقابي . فهو بعد أن حارب من أجل القضية البروليتارية ، رجع الى النقابة ، بروليتارياً كما في السابق، لكنه رجع متمرساً ، أكثر رجولة ، أكثر استقلالاً وتصميماً ، ذلك أنه قد تحمل مسؤوليات كبيرة . لقد حدث له أن قاد آلاف الجنود الحمر من مستوى اجتماعي مختلف ، معظمهم من الفلاحين . ولقد عاش معهم الانتصارات والهزائم ، وعرف التقدم والتراجع . لقد عرف بعض حالات الخيانة في القيادة ، وتمرد الفلاحين الميسورين ، وأزمات الخوف ، لكنه عرف دوماً ، وهو في منصبه ، كيف يضبط الجماهير الأقل وعياً ، ويقودها ، ويحمسها بمثاله ، معاقباً بلا شفقة الخونة والمستغلين . انها لتجربة عظيمة ثمينة . وهكذا ، عندما يعود الشيوعي السابق من الكتيبة الى النقابة ، فانه لا يكون منظماً سيئاً .

أما حول مسألة نظام المكاتب الجماعية في ادارة الانتاج ، فان حجج ابراموفيتش مبتذلة شأن حججه حول كل المسائل الأخرى . انها حجج مراقب أجنبي ينظر الى الأمور من بعيد .

ان ابراموفيتش يشرح لنا ان الادارة الجماعية الحسنة خير من ادارة الشخص الواحد السيئة ، وأنه يجب ان يدخل الى كل مكتب مؤلف بصورة حسنة اختصاصي ممتاز . ان هذه كلها افكار ممتازة . فليقدم لنا المنشفيك اذن عدة مئات من المكاتب من هذا النوع ؟ انني اجزم مسبقاً ان المجلس الاعلى للاقتصاد الاشتراكي لن يتخلف عن ان يجد لها مهمة حسنة انتا لسنا مراقبين ، بل شغيلة يتوجب عليهم ان يبنوا حسب المواد المتوفرة لهم ان لدينا اختصاصيين نستطيع ان نقول ان ثلثهم متعلم وذو وجدان ، في حين أن الثلث الثاني نصف متعلم ، والثلث الاخير لايساوي شيئاً . ان الطبقة العاملة غنية بالرجال الموهوبين، المخلصين ، الاشداء العزيمة . وان فئة منهم – قليلة العدد للغاية مع الاسف– تملك المعارف والتجربة الضرورية . وبعضهم الآخر قوي الشكيمة وموهوب ، لكنه لايملك لامعارف ولاتجربة ، والباقون لايملكون لاهذا ولاذاك . وانما من هذه المادة يجب ان نخلق ادارات المصانع وغيرها، وانه لمن المستحيل ان نؤدي هذه المهمة بمجرد عبارات لفظية . ان علينا ، قبل كل شيء ، ان ننتخب العمال الذين اثبتوا عملياً انهم قادرون على ادرة المشاريع ، وان نتيح لهم امكانية اداء مهمتهم . ان هؤلاء العمال يريدون نظام ادارة الشخص الواحد ، ذلك ان ادارات المصانع ليست مدارس للمتخلفين . ان العامل القوي الشكيمة ، المطلع على قضايا عمله ، يريد بصورة طبيعية ان يدير . واذا قرر واصدر امره ، فان قراره يجب ان ينفذ . وقد يستبدل بغيره ، لكن هذه مسألة اخرى .

لكن مادام هو السيد – سيداً سوفياتياً وبروليتارياً – فانه يدير المصنع في مجموعه . واذا ما عين في مكتب مؤلف من اناس اضعف منه يساهمون في الادارة ، فلن يمكن الوصول الى أي نتيجة . ان كل عامل مدير يجب أن يضاف اليه اختصاصي او اثنان ، حسب أهمية المشروع . واذا لم يكن تحت متناولنا مدير من هذه الجبلة ، واذا كان لدينا بالمقابل اختصاصي ذو وجدان عارف بعمله ، فاننا سنضعه على رأس المشروع ، ونلحق به، بصفة مساعدين ، عاملين أو ثلاثة ، بحيث ان كل قرار يتخذه الاختصاصي يكون معروفاً من مساعديه ، دون ان يكون لهؤلاء الحق في إلغائه . انهم سيتابعون بدقة عمله وسيكتسبون بالتالي المعارف . وبعد مرور بضعة شهور ، سيكونون قادرين على ان يحتلوا بأنفسهم مناصب هامة .

لقد استشهد ابراموفيتش ، نقلاً عني ، بمثال حلاق قاد فرقة وجيشاً . هذا صحيح ! لكن مالايقوله ابراموفيتش هو انه اذا كان الرفاق الشيوعيون عندنا قد بدؤوا يقودون فرقاً وجيوشاً ، فهذا لأنهم عملوا في الماضي مفوضين لدى القادة – الاختصاصيين . ان كل المسؤولية تقع على عاتق الاختصاصي الذي يعلم انه مسؤول كلياً عن كل خطأ مهما كان تافهاً ، دون أن يستطيع التحجج بصفته « عضواً مستشاراً » في مكتب ...

ان معظم مناصب قيادة الجيش الأحمر ، وبخاصة المناصب الدنيا ، أي أهم الدرجات من وجهة النظر السياسية ، مشغولة في الساعة الراهنة بعمال وفلاحين متقدمين ، وبم بدأنا ؟ لقد وضعنا ضباطاً في مناصب القيادة وجعلنا من العمال مفوضين . ولقد تعلموا كيف ينتصرون .

أيها الرفاق ، اننا ندخل في مرحلة صعبة ، ولعلها أصعب المراحل. ولابد من تدابير جبارة في الآونة الصعبة من حياة الشعوب والطبقات . وكلما أوغلنا ، اصبحت المهمة اكثر سهولة ، وشعر المواطن بحرية اكبر ، وتلاشى الاحساس باكراه الدولة البروليتارية . ومن الممكن ان نسمح آنذاك للمنشفيك بأن تكون لهم صحفهم ، هذا اذا قبلنا بأن المنشفيك سيكون لهم وجود يومذاك . لكننا نعيش اليوم في عهد دكتاتورية سياسية واقتصادية . وانما هذه الدكتاتورية هي التي يستمر المنشفيك في تخريبها . فبينما كنا نقاتل على جبهة الحرب الاهلية لنحمي الثورة من اعدائها ، كتبت صحيفتهم : « لتسقط الحرب الاهلية ! » . انما هذا ما لا نستطيع ان نتسامح به . إن الدكتاتورية هي الدكتاتورية ، والحرب هي الحرب . والآن بعد أن وصلنا الى أعلى تركيز لقوانا في حقل النهضة الاقتصادية ، ظل الكاوتسكيون الروس ، المنشفيك ، اوفياء لرسالتهم المناهضة للثورة : ان صوتهم يرن كما في الماضي ، كصوت الشك والبلبلة . صوت ينسف ويلغم ، ويزرع الريبة ويوهن العزائم .

أليس من الشناعة والسخافة في آن واحد معاً أن نسمع في هذا المؤتمر الذي يجتمع فيه ١٥٠٠ ممثل للطبقة العاملة الروسية ، والذي لا يمثل فيه المنشفيك إلا نسبة ٥٪ في حين أن الشيوعيين يشكلون تسعة اعشاره ، أليس من الشناعة والسخافة ان نسمع ابراموفيتش ينصحنا « بألا نتحمس لمثل هذه الطرائق ، في حين أن غالبية صغيرة معزولة تنوب عن الشعب » . يقول ممثل المنشفيك : « كل شيء عن طريق الشعب ، ولا أوصياء على الكادحين . كل شيء عن طريق الجماهير الكادحة . كل شيء عن طريق

عملها ! » ثم يقول : « ان الجماهير لاتقنع بالحجج » . لكن انظروا اذن الى هذه الصالة : هي ذي الطبقة ! ان الطبقة العاملة ههنا امامنا ومعنا ، وانتم ، ياحفنة المنشفيك الصغيرة ، تحاولون أن تقنعوها بحجج البورجوازيين الصغار ! انكم تريدون ان تكونوا اوصياء على هذه الطبقة . لكن لهذه الطبقة نشاطها ولقد برهنت عليه حين لفظتكم ، وحين سارت الى الامام في طريقها .



كارل كاوتسكي : مدرسة وكتابه

كانت المدرسة النمساوية الماركسية (بوير ، رينر ، هيلفردينغ ، ماكس آدلر ، فريدريك آدلر) تقف في غالب الأحيان موقف المعارضة من مدرسة كاوتسكي باعتبارها تمثل انتهازية مقنعة تجاه الماركسية الأصيلة. ولقد بدت هذه المعارضة كسوء تفاهم تاريخي سبب الكثير من الضياع الفكري ، لكنه انكشف في النهاية على حقيقة واضحة : ان كاوتسكي هو مؤسس التحريف النمساوي الماركسية وحامل لوائه الأول .

ففي حين ان تعاليم ماركس الحقيقية تقوم على صيغة نظرية للعمل والهجوم وتطوير الطاقة الثورية ودفع الصراع الطبقي الى الامام ، نجد ان المدرسة النمساوية قد تحولت الى اكاديمية للسلبية واللف والدوران ، واصبحت تاريخية بصورة مبتذلة ، وقصرت اهدافها على تعليل الاحداث وتبريرها ، وانحط دورها الى مصدر ممول للانتهازية البرلمانية والنقابية ، واستبدلت الديالكتيك بالسفسطة المخاتلة ، وتحولت أخيراً ، بالرغم من لفظيتها الثورية ، الى قوة امينة داعمة للدولة الرأسمالية ، وللعرش والمذبح اللذين يهيمنان عليها . واذا كان العرش قد سقط ، فالخطأ في ذلك لا يقع

حتماً على المدرسة الماركسية النمساوية .

ان مايميز الماركسية النمساوية عداؤها لكل نشاط ثوري وتخوفها منه . ان الماركسي النمساوي لقادر على ان يحفر هوة من الافكار والتأويلات العميقة الماضي ، وعلى ان يظهر جرأة وجولية في مجال التنبؤات المتعلقة بالمستقبل ، لكنه لايملك ابداً فكرة كبيرة او مبدأ موجهاً عن الأعمال الكبيرة المتعلقة بالحاضر . ان الحاضر ينساب دوماً انسياباً عقيماً بالنسبة اليه تحت عبء هموم الانتهازية الصغيرة التي تؤول فيما بعد وتصور على أنها السلسلة الضرورية التي تربط بين الحاضر والمستقبل . ان الماركسي النمساوي معين لا ينضب ماؤه فيما يتعلق بالبحث عن الاسباب التي تعرقل الممارسة والعمل الثوريين . ان الماركسية النمساوية هي نظرية السلبية والاستسلام المدعية الجليلة . وبديهي أنه ليس من قبيل الصدفة والعرض ان تكون النمسا ، بابل التي تمزقها معارضات قومية عقيمة ، والدولة التي هي تجسيد لاستحالة الوجود والتطور بالذات ، قد وقع عليها دور توليد وتوطيد الفلسفة الماركسية المزعومة عن استحالة العمل الثوري .

ان أشهر الماركسيين النمساويين يمثلون ، كلا على طريقته ، « فردية » معينة . ان وجهات نظرهم تختلف في غالب الاحيان حول مختلف المسائل . بل لقد وصل بهم الامر الى حد الخلافات السياسية . لكننا نستطيع القول ، بصورة عامة ، انهم أصابع يد واحدة .

ان كارل رينر هو أشهر هؤلاء الممثلين ، وأفخمهم ، وأكثرهم اعجاباً بنفسه . ان موهبة الانتحال ، وبتعبير أدق التقليد السخيف ، متطورة عنده الى درجة استثنائية . ولقد كانت مقالاته الملتهبة عن أول أيار ، من وجهة نظر الاسلوب ، آية في تجميع الكلمات الاكثر ثورية .

ولما كانت الكلمات وتجميعاتها تعيش الى حد ما حياتها الخاصة ، فان مقالات رينر قد اشعلت في قلوب الكثير من العمال نار الثورة التي لم يعرفها المؤلف قط على ما يبدو .

ان البهرج الكاذب للثقافة النمساوية ـ الفيناوية الساعية وراء اللقب والمركز ، يتجلى عند رينر أكثر مما يتجلى لدى سائر زملائه . والواقع انه لم يكف قط عن أن يكون موظفاً امبراطورياً وملكياً يتقن اللفظية الماركسية .

ان تحول مؤلف مقال يوبيل كارل ماركس ، المعروف ببلاغته الثورية ، الى مستشار ـ دمية يذخر بعواطف الاحترام والاعتراف بالجميل تجاه السكندنافيين ، يقدم واحداً من أبهر الأمثلة على مفارقات التاريخ.

أما اوتو بوير فهو أكثر اطلاعاً ، وأكثر ابتذالاً ، وأكثر جدية وأكثر إملالاً ، من رينر . اننا لا نستطيع ان ننكر عليه معرفته بفن كتابة الكتب وتجميع الوقائع واستخلاص النتائج ، حسب الاهداف التي ترسمها له السياسة العملية التي يصنعها غيره . ان بوير لا يملك ارادة سياسية. ان فنه الرئيسي يقوم على استخلاص نتائج معروفة مبتذلة من المسائل العملية الأشد حدة . ان فكره فكره السياسي - يعيش دوماً حياة موازية لارادته المفتقدة الى الشجاعة . ان أعماله لا تعدو أن تكون منتخبات ينتقيها تلميذ واسع الاطلاع متخرج من جامعة للاهوت . ان التصرفات المخزية للانتهازية النمساوية ، وموقف الخضوع الذليل لسلطة الطبقة المالكة الذي تقفه الاشتراكية ـ الديموقراطيــة النمساوية ـ الالمانية ، قد وجدت في بوير أعمق ممثل لها ، بوير الذي ذهب أحياناً الى

حد رفض الشكل وقبول المضمون . واذا كانت الفرصة قد اتيحت لبوير ليبرهن على عزيمته وقوته السياسية ، فقد كان ذلك فقط في النضال ضد الجناح الثوري ، وفي خليط عجيب من الاستنتاجات والوقائع والاستشهادات ضد العمل الثوري . ولقد بلغ ذروة مجده في الفترة التالية لعام ١٩٠٧ ، عندما كان مايزال اصغر من ان ينتخب نائباً ، فلعب دور سكرتير الشرذمة الاشتراكية - الديموقراطية التي كان يزودها بالمواد والارقام والافكار المزيفة ، والتي كان يثقفها ويكتب لها ، والتي كان يعتقد انه ملهم أعمالها الكبيرة ، في حين انه لم يكن في الواقع الا ممولها بالافكار الممسوخة المسروقة الصالحة لاستعمال الانتهازيين البرلمانيين .

أما ماكس آدلر فهو ممثل آخر للماركسية النمساوية لايختلف عن غيره الا اختلافاً صغيراً لايكاد يظهر للعيان . انه غنائي ، فيلسوف غنائي للسلبية ، تماماً كما ان رينر هو صحافيها وحقوقيها ، وكما ان هيلفردينغ هو اقتصاديها ، وكما ان بوير هو عالم اجتماعها . ان ماكس آدلر يحتل مكاناً ضيقاً في العالم المبتذل ، رغم انه قد اخذ مكاناً مريحاً للغاية في اطار الاشتراكية البورجوازية المجربة ومذهب تسلط الدولة الهابسبورغي . ان الجمع بين مهنة المحاماة الفاشلة وبين الدناءة السياسية ، بالاضافة الى المقالات الصحفية الرخيصة الممجدة للمثالية ، قد أعطت ماكس آدلر تلك الصفة الخاصة الناعمة والمقرفة معاً .

أما رودولف هيلفردينغ ، المشهور هو الآخر ، فقد دخل الى الاشتراكية - الديموقراطية الالمانية كمتمرد ، لكن كمتمرد من « النمط النمساوي » ، أي المستعد دوماً للاستسلام بدون قتال . لقد خيل لهيلفردينغ

ان سهولة الحركة الخارجية للسياسة النمساوية وتحريضها ، تلك السياسة التي ربته ، انما هي المبادهة الثورية ، ولقـــد طالب طوال اثني عشر شهراً ، وبألفاظ هي اكثر الالفاظ تواضعاً بلا ريب ، بسياسة مبادهة اكثر فعالية من قبل قـــادة الاشتراكية ــ الديموقراطية الالمانية . لكن التحريض النمساوي ــ الفييناوي سرعان ماسقط ، حتى عنده . ولم يتأخر في الخضوع لايقاع برلين وللطابـع الاوتوماتيكي لحياة الاشتراكية ــ الديموقراطيـة الالمانية الروحية . لقد حرر طاقته الفكرية ليركزها على حقل النظرية الخالصة ، ذلك الحقل الذي لم يأت اليه بشيء جديد اصلاً ، ــ باعتبار ان ما من ماركسي نمساوي أتى بشيء جديد في أي حقل . رغم انه كتب كتاباً جدياً . ولقد دخل العصر الثوري ، رازحاً تحت عبء ذلك الكتاب ، كحمال محني الظهر تحت حمل ثقيل . لكن ذلك الكتاب الجـــدي نفسه لاينوب مقام غياب الارادة والمبادهـة وبرودة الدم الثورية والتصميم السياسي ، التي يستحيل العمل بدونها ... ان هيلفردينغ ، المحترف الطب ، ميال الى الاعتدال ، وهو يبـــدو ، بالرغم من إعداده النظري ، اكثر التجريبيين بدائية في حقل المسائل السياسية . ان المهمة الرئيسية في الوقت الحاضر هي في نظره عدم الخروج من اطار الأمس وايجاد تبرير اقتصادي جدي عميق لهذا الموقف المحافظ وهذا الضعف البورجوازي الصغير .

أما فريدريك آدلر فهو أقل الممثلين اتزانـــاً للنمط الماركسي النمساوي . لقد ورث عن أبيه المزاج السياسي . ولقد سمع فريدريك آدلر من خلال النضال البائس المنهك ضد فوضى البيئة النمساوية ، سمع لربيبته الساخرة بـــأن تهدم أسس قناعاته الثورية بالذات . ولقد دفعه المزاج الموروث عن أبيه اكثر من مرة الى معارضة المدرسة التي خلقها هذا الاب

ولقد أمكن لفريدريك آدلر، في بعض الآونة، ان يبدو مباشرة وكأنه التناقض الثوري في المدرسة النمساوية. والواقع انه كان ويبقى تتويجها الضروري. ان عنفه الثوري لم يكن إلا تعبيراً عن نوبات اليأس الحادة التي تعاني منها الانتهازية النمساوية التي يخيفها من آن الى آخر عدم جدواها الذاتية ان فريدريك آدلر ريبي حتى نخاع عظامه: انه لا يؤمن بالجماهير ولا بقدرتها على العمل. وبينما كان كارل ليبكنيشت ينزل الى ساحـــة بوتسـدام، أيام أعظم انتصارات العسكرية الالمانية، ليدعو الجماهير المسحوقة الى نضال مكشوف، كان فريدريك آدلر يدخـل الى مطعم بورجوازي ليغتال الوزير - الرئيس. لقد حاول فريدريك آدلر بلاريب عن طريق اقدامه على عملية اغتيال معزولة، ان يقطع الصلة بريبيته الذاتية. وبعد هذا المجهود الهستيري، سقط في حالة خمول أشد.

لقد أغرقت عصابة الاشتراكيين - الوطنيين (اوسترليتز ولوتنر، الخ) السوداء والصفراء، اغرقت آدلر الارهابي بكل دناءات جبنها الذي تحيطه بفخم الالفاظ. لكن عندما انقضت الفترة الحادة، وعـاد الابن الضال من الاشغال الشاقة الى المنزل الأبوي تحيط به هالة الشهادة، تبين ان قيمته بالنسبة الى الاشتراكية - الديموقراطية النمساوية قد تضاعفت مرتين بل ثلاثاً. ولقد حول مزيفو الحزب الماهرون هالة الارهابي الذهبية الى نقود ترن بالديماغوجية. وأصبح فريدريك آدلر الكفيل المعتمد لأمثال اوسترليتز وبوير أمام الجماهير ولحسن الحظ ان العـمال النمساويين باتوا لا يفرقون إلا أقل فأقل بين الغنائية العاطفية لفريدريك آدلر، والانحطاط رينر المخفي وراء الألفاظ البراقة، وخمول ماكس آدلر التلمودي، ورضى اوتو بوير التحليلي بنفسه.

ان جبن افكار نظريي المدرسة الماركسية النمساوية قد افتضح تماماً ، في مجموعه ، تجاه المشكلات الكبرى التي يطرحها العصر الثوري .

لقد أعطى هيلفردينغ ، في محاولته التي لاتنسى لإدخال نظام السوفيتات على دستور ايبرت - نوسك ، أعطى دفقة دافعة لا لفكره الذاتي فحسب ، بل ايضاً لكل فكر المدرسة الماركسية النمساوية التي حاولت ، بدءاً من ولادة العصر الثوري ، ان تأخذ مكانها على يسار كاوتسكي بالقدر نفسه الذي أخذت به مكانها الى يمينه قبل الثورة .

وبهذا الصدد ، فان وجهة نظر ماكس آدلر عن نظام السوفيتات بليغة الدلالة .

ان الفيلسوف التخيري الفييناوي يعترف بأهمية السوفيتات ، بل انه يظهر من الجرأة حداً يدفعه الى تبنيها . انه يعتبرها صراحة جهاز الثورة الاجتماعية . وماكس آدلر بالطبع ، من انصار الثورة الاجتماعية . لكن مايريــده ، ليس ثورة المتاريس والارهاب العنيفة ، الثورة الدامية ، بل الثورة العاقلة ، المقتصدة ، المتزنة ، المطوبة حقوقياً والمصدق عليها فلسفياً .

ان ماكس آدلر لايذعر حتى من فكرة ان السوفيتات تنتهك « مبدأ » التقسيم الدستوري للسلطات (هناك بالفعل في حضن الاشتراكية - الديموقراطية النمساوية اكثر من أحمق واحد يرى في هذا الانتهاك ثغرة خطيرة في النظام السوفياتي) . بل على العكس ، ان محامي النقابات والمستشار الحقوقي للثورة الاجتماعية الذي هو ماكس آدلر ، يرى في دمج السلطات تفوقاً يضمن التعبير المباشر عن ارادة البروليتاريا . ان ماكس

آدلر يؤيد التعبير المباشر عن ارادة البروليتاريا ، لكن ليس عن طريق استيلاء السوفييتات مباشرة على السلطة. انه يدعو الى طريقة مأمونة اكثر. إن على المجالس العمالية ، في كل مدينة ودائرة وحي ، ان « تراقب » موظفي البوليس وغيرهم بأن تفرض عليهم « ارادة » البروليتاريا . الا انه يحق لنا ان نسأل : كيف سيكون الوضع « الدولي ـ الحقوقي » للسوفييتات في جمهورية سيتزت وريتر ومن هم على شاكلتهم ؟ ان فيلسوفنا يرد على هذا التساؤل : « ان السوفييتات ستتلقى في النهاية من القوة الدولية ـ الحقوقية بقدر ماتبذل من نشاط » (« جريدة العمال » ـ العدد ١٩٧ - ١ - حزيران ١٩١٩) .

إن على السوفييتات البروليتارية ان تتحول تدريجياً الى سلطة سياسية للبروليتاريا ، تماماً كما كان على المنظمات البروليتارية في الماضي ، حسبما كانت تقول نظرية الانتهازية ، ان تتطور الى ان تتحول اشتراكية، وهذا هدف لاقى في طريقه بعض العراقيل نتيجة لسوء التفاهم غير المتوقع الذي طرأ طوال أربعة أعوام بين الدول المركزية و « التفاهم » وكل ماتلاه فيما بعد . وكان لابد بالتالي من التخلي عن البرنامج الاقتصادي للتنمية المنهجية لحساب اشتراكية بدون ثورة اجتماعية . لكن تكشفت بالمقابل آفاق نمو منهجي للسوفييتات الى حد ثورة اجتماعية بدون عصيان مسلح ولا استيلاء عنيف على السلطة .

وحتى لاتقع السوفييتات في شراك مهام المحافظات والاحياء ، فان المستشار الحقوقي الجريء يقترح دعاية الافكار الاشتراكية ـ الديموقراطية . فالسلطة السياسية تظل ، كما في الماضي ، في أيدي البورجوازية وعملائها ، لكن السوفييتات بالمقابل تراقب ، في المحافظات والاحياء ،

ضباط وضباط صف البوليس . إلا ان ماكس آدلر ، كي يطمئن الطبقة العاملة وليركز في الوقت نفسه افكارها وارادتها ، سيلقي كل يوم أحد محاضرات عن الوضع الدولي - الحقوقي للنقابات ويعدنا ماكس آدلر : « وهكذا فان النظام في الوضع الدولي - الحقوقي للسوفييتات العمالية ، وثقلها وأهميتها ، ستكون متوفرة على طول الخط ، في مجال حياة الدولة والحياة العامة ، وان النظام السوفياتي ، بدون دكتاتورية السوفييتات سيحقق نفوذاً أوسع بكثير من النفوذ الذي يستطيع ان يحصل عليه في جمهورية السوفييتات بالذات . ثم انه لن يتعين ، من جهة أخرى ، شراء هذا النفوذ بثمن العواصف السياسية والاعاصير الاقتصادية المدمرة » . ان ماكس آدلر يظل ، كما نرى ، منسجماً مع التقاليد النمساوية : تحقيق الثورة بدون الدخول في نزاع مع السيد المدعي العام .

ان مؤسس هذه المدرسة والمسؤول الاعلى فيها هو كاوتسكي . ان كاوتسكي ، في الوقت الذي يحافظ فيه بغيرة ، وبخاصة بعد مؤتمر درسد للحزب والثورة الروسية الاولى (١٩٠٥)، على سمعته كحارس للاورثوذكسية الماركسية ، يعلن استنكاره من حين الى آخر للتصرفات الحزبية التي تصدر عن مدرسته النمساوية ان بوير وربنر وهيلفردينغ يعتبرون جميعهم معاً، وكل منهم بصورة خاصة - كما كان شأن المرحوم فيكتور آدلر - يعتبرون كاوتسكي مدعياً اكثر من اللازم ، وقليل المرونة اكثر من اللازم ، الا انهم يرون فيه اباً واستاذاً جديراً بالاحترام لكنيسة عقيدة الدعة والخمول.

لقد بدأ كاوتسكي يوحي ببعض المخاوف الجدية لمدرسته الخاصة في فترة صعوده الثوري، اثناء الثورة الروسية الاولى ، عندما اعترف بضرورة استيلاء الاشتراكية - الديموقراطية الروسية على السلطة ، وحاول ان

يلقن الطبقة العاملة الالمانية الاستنتاجات النظرية التي فرضت نفسها بعد تجربة الاضراب العام في روسيا . ولقد أوقف فشل الثورة الروسية الاولى تطور كاوتسكي نحو الراديكالية . وكلما كان تطور الاحداث يفرض بصورة محتمة حل المشكلات المتعلقة بعمل الجماهير في داخل المانيا بالذات ، كان موقف كاوتسكي ازاءها يزداد التباساً . لقد راوح في مكانه ، ثم تراجع الى الوراء ، وفقد ثقته الاولية ، واتضحت لديه اكثر فأكثر ملامح الادعاء السكولائي التي كانت ملموسة في طريقته في التفكير . ولقد كشفت الحرب الامبريالية ، التي قتلت كل تردد وطرحت بفظاظة جميع المسائل الاساسية ، كشفت افلاس كاوتسكي السياسي التام . ومن اللحظة الاولى ، انزلقت به قدمه دونما امل بالعودة الى أبسط المسائل ، أي الى مسألة التصويت على اعتمادات الحرب . وان جميع اعماله اللاحقة تدور حول موضوعة واحدة مكررة معادة : « انا وبلبلتي » . ولقد أجهزت الثورة الروسية على كاوتسكي نهائياً . كان مجرى الاحداث السابق كله قد جعله يتبنى موقفاً معادياً ازاء انتصار البروليتاريا في تشرين الثاني . ولقد جاء هذا الحدث ليلقي به في المعسكر المناهض للثورة. وهكذا فقد آخر بقايا حسه التاريخي . وتحولت كتاباته اللاحقة اكثر فأكثر الى أدب أصفر يصلح للسوق البورجوازية نظراً الى رداءته وبخس ثمنه .

ان كتاب كاوتسكي ، الذي درسناه، يملك جميع الصفات الخارجية لما اتفق الناس على تسميته بالعمل الموضوعي والعلمي . فكي يعمق كاوتسكي مسألة الارهاب الاحمر ، يرسم مخططه بكل الدقة الدقيقة المعروفة عنه . فهو يبدأ بدراسة الشروط الاجتماعية التي هيأت الجو للثورة الفرنسية الكبرى ، وكذلك الاسباب الفيزيولوجية والاجتماعية التي ساهمت في تطوير

القسوة والانسانية طيلة تاريخ الجنس البشري . وفي الكتاب المخصص للبولشفية ، والذي لم تدرس فيه المسألة الا في الصفحة ١٥٤، يروي كاوتسكي بالتفصيل كيف كان يأكل جدنا البعيد ، القريب بتكوينه من القرود ، ويطرح فرضية انه كان يلتهم الحشرات وربما بعض الطيور بالاضافة الى طعامه النباتي الرئيسي (ص ٨٥) وبتعبير آخر ، ان ما من شيء يمكن ان يدفع بالانسان الى التفكير بأن مثل هذا الجد المحترم الذي كان يعيش على النبات ، يمكن ان يخلف فيما بعد احفاداً دمويين كالبلاشفة . هذا هو الاساس العلمي المتين للغاية الذي يطرح عليه كاوتسكي المسألة ...

لكن كما هي الحال في معظم المؤلفات التي من هذا النوع ، يختفي الهجاء السياسي وراء واجهة أكاديمية - سكولائية. انه واحد من أكذب الكتب وأكثرها بعداً عن العلم . وأليس من المستغرب بالفعل ، للوهلة الاولى ، ان يلتقط كاوتسكي من المنجم الذي لا ينضب لوكالات هافاس ورويتر ووولف كل الافتراءات والشائعات البائسة المعادية للبلاشفة ، تاركاً أذن الواشي المفتري تتغلب على قبعة العالم ؟ لكن هذه التفاصيل القذرة ليست الا زخرفات فسيفسائية تحيط بمجموع الكذبة الكبرى الموجهة ضد جمهورية السوفييتات والحزب الذي يقودها .

ان كاوتسكي يرسم ،بأقتم الالوان، لوحة وحشيتنا تجاه البورجوازية التي « لم تبد أي رغبة مهما تكن واهنة في المقاومة » .

ان كاوتسكي يدين موقفنا الصلب تجاه الاشتراكيين ــ الثوريين والمنشفيك الذين يؤلفون إحدى مدارس الاشتراكية وان كاوتسكي يصور الاقتصاد السوفياتي على انه سديم مأساوي .

ان كاوتسكي يصور المناضلين السوفياتيين بصورة عامة، وكل الطبقة العاملة الروسية ، كشرذمة من الانانيين والجبناء والكسالى .

انه لايقول كلمة واحدة عن الجبن المظيم ، الذي لاسابق له في التاريخ ، الذي أظهرته البورجوازية الروسية . انه لايقول كلمة واحدة عن خياناتها الوطنية ، وعن تسليم ريجا للألمان لأهداف « استراتيجية » . وهو لاينبس ببنت شفة عن موضوع تهيئة تسليم مماثل لمدينة بترسبورغ . انه يمر مرور الكرام بنداءات هذه البورجوازية الموجهة الى الجيوش الاجنبية ، التشيكوسلوفاكية والالمانية والرومانية والانكليزية واليابانية والفرنسية والعربية والزنجية ، ضد العمال والفلاحين الروس. انه يسكت عن مؤامراتها واغتيالاتها ، المقترفة والمنفذة لحساب « التفاهم » وعلى نفقته ، وحصارها الهادف الى تجويع أطفالنا حتى الموت ، والى اشاعة الاكاذيب والافتراءات في العالم قاطبة بصورة منهجية عنيدة لاتكل ولا تمل .

انه لايقول كلمة واحدة عن أعمال التعذيب والعنف الدنيئة التي عاملت بها حكومة الاشتراكيين ـ الثوريين والمنشفيك حزبنا قبل ثورة تشرين الثاني . انه يخرس عن المطاردات المجرمة الموجهة ضد ألوف المناضلين في حزبنا بحجة التجسس لحساب المانيا هوهنزولرن . انه يمر مرور الكرام بمساهمة المنشفيك والاشتراكيين ـ الثوريين في جميع مؤامرات البورجوازية ، وكذلك تعاونهم مع جنرالات وامراء القيصر ، كولتشاك ودينيكين ويودينيتش . انه يسكت عن اعمال الارهاب التي قام بها الاشتراكيون ـ الثوريون بناء على اوامر « التفاهم » ، واعمال العصيان التي نظمها هؤلاء الاشتراكيون ـ الثوريون أنفسهم ، بأموال السفارات الاجنبية ، في صفوف جيشنا الذي كان يسفح دمه غزيراً على مذبح النضال ضد عصابات

الامبريالية الملكية . ان كاوتسكي لايتنازل ليذكر مرة واحدة بأننا لم نؤكد في اكثر من مناسبة فحسب، بل بأننابرهنا ايضاً على اننا مستعدون حتى لو قبلنا بتنازلات وتضحيات ،لتوطيد السلم في بلدنا ، واننامضطرون بالرغم من ذلك، الىمتابعة النضال الشرس على كل الجبهات للدفاع عن وجود بلدنا بالذات ولتجنب تحوله الى مستعمرة للامبريالية الانكلو - الفرنسية. ان كاوتسكي يلزم الصمت ايضاً عن ان البروليتاريا الروسية كانت مرغمة، أثناء هذا النضال البطولي الذي نخوضه من أجل مستقبل الاشتراكية العالمية ، على انفاق خير طاقاتها ، وزهرة قواهـا وأنمها ، تلك الطاقات والقوى التي حرم منها فيا بعد البناء الاقتصادي وتطوير الثقافة .

ان كاوتسكي ، في منشوره عينه ، لايذكر ولو تذكيراً بأن العسكرية الالمانيـــة ، بمعونة الشايدمانيين وتواطؤ الكاوتسكيين ، ثم عسكرية دول « التفاهم »، وبمعونة أمثال رينوديل وتواطؤ أمثال لونغيه، قد طوقتانا بحصار حديدي ، وبأنها بعد ان استولتا على مرافئنا قاطبة ، عزلتانا عن سائر العالم، واحتلتا ،بواسطة عصابات الحرس الابيض المرتزقة، مساحات شاسعة من الاراضي الغنية بالمواد الاولية ، وقطعتا عنا لمـــدة طويـلة من الزمن نفط باكو ، وفحم الدونتز ، وقمح الدون وسيبيريا ، وقطن تركستان . إن كاوتسكي لايذكر بأن الطبقة العاملة الروسية قـد خاضت وتخوض، منذ حوالي ثلاثة أعوام ،وفي مثل هذه الشروط الفائقة الصعوبة ، نضالاً بطولياً ضد أعدائها على جبهة طولها ۸۰۰۰ فرسخ ، وبأن الطبقة العاملة الروسية قد عرفت كيف تستبدل المطرقـة بالسيف وتخلق جيشاً قوياً ، وبأنها جندت لهذا الجيش صناعتها المنهوكة ، وبأنهـا ، رغم الانهاك الشديد الذي أصاب البلاد التي حكم عليها جلادو العالم أجمع بالحصار

والحرب الاهلية ، تكسي وتطعم وتسلح وتنقل ، منذ ثلاثة أعوام حتى اليوم ، وبوسائلها الخاصة، جيشاً تعداده مليون رجل تعلموا كيف ينتصرون .

ان كاوتسكي يجد الوسيلة ليظل اخرس عن هذا كله في كتاب يكرسه للشيوعية الروسية . وهذا الصمت من جانبه هو كذبته الكبرى، الاولى ، المكشوفة، كذبة سلبية بدون شك، لكنها يقيناً اكثر اجراماً ودناءة من الكذب الايجابي الذي يلجأ اليه جميع أوغاد صحافة البورجوازية العالمية .

ان كاوتسكي ، المفتري على سياسة الحزب الشيوعي ، لايقول في أي مكان ماذا يريد وماذا يقترح . ان البلاشفة لم يكونوا وحدهم في حلبة الثورة الروسية. بل لقد رأيناهم فيها ، مرة في السلطة ومرة في المعارضة، الاشتراكيين — الثوريين (خمسة اتجاهات وتكتلات على الاقل) والمنشفيك (ثلاثة اتجاهات على الاقل) ، وتلامذة بليخانوف ، والماكسيماليين ، والفوضويين .

ان جميع « اتجاهات الاشتراكية » بلا استثناء (اذا قبلنا بلغة كاوتسكي) قد جربت قواها واظهرت ماتريده وما تستطيعه . ان هذه « الاتجاهات » كثيرة العدد للغاية حتى انه ليصعب ادخال نصل سكين بين المتجاورة منها . ان أصل هذه « الاتجاهات » بالذات ليس عارضاً . انها تمثل بصورة مجملة مختلف محاولات الاحزاب الاشتراكية التي وجدت قبل الثورة للتلاؤم مع شروط العصر الثوري الاكبر .

قد يبدو اذن ان كاوتسكي يملك بين يديه مجموعة مفاتيح سياسية كثيرة العدد بما فيه الكفاية ليجد بينها المفتاح الماركسي الصحيح

للثورة الروسية .

لكن كاوتسكي يلزم الصمت . انه يرفض اللحن البولشفي الذي يمزق أذنيه ، لكنه لا يبحث عن لحن آخر . **ان عازف البيانو المسن قد استنكف بصورة عامة عن العزف على اداة الثورة .**



ملحق

١ -

يظهر هذا الكتاب أيام انعقاد المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية . ان حركة البروليتاريا الثورية قد خطت ، خلال الشهور التي تلت انعقاد المؤتمر الاول ، خطوة كبيرة الى الامام . وان مواقع الاشتراكيين ــ الوطنيين الرسميين ، العلنيين ، قد تهدمت في كل مكان . وان افكار الشيوعية تنتشر أكثر فأكثر . وان الكاوتسكية الرسمية ، الدوغمائية ، قد تشوهت سمعتها بصورة قاسية . وكاوتسكي نفسه صار يظهر بوجه حقير مضحك في صفوف الحزب « المستقل » الذي هو خالقه .

إلا ان الصراع العقائدي في صفوف الطبقة العاملة لم يبدأ حقاً إلا الآن . واذا كانت الكاوتسكية الدوغمائية هي في سبيلها الى الموت ، كما قلنا ، واذا كان قادة الاحزاب الاشتراكية الوسطية يعجلون بالتخلي عنها ، فان الكاوتسكية ، كلفتة فكرية بورجوازية ، وكتقليد من تقاليد السلبية ، وكجبن سياسي ، ماتزال تلعب دوراً ملموساً في اوساط المنظمات العمالية القيادية في العالم أجمع ، بما فيها الاحزاب التي تميل الى الاممية الثالثة ، وحتى الاحزاب التي انتمت اليها شكلياً .

ان حزب المانيا المستقل ، الذي كتب على يافطته شعار دكتاتورية

البروليتاريا ، تشكو صفوفه من زمرة كاوتسكي[1] الذي يبذل كل جهوده للاساءة نظرياً الى دكتاتورية البروليتاريا في تعبيرها الحي : السلطـــة السوفياتية . ان شروط الحرب الاهلية لاتجعل هـذا النوع من التعايش ممكناً إلا حتى اليوم الذي تبدو فيـه دكتاتورية البروليتاريا للاوساط القياديـــة من الاشتراكيين - الديموقراطيين « المستقلين » كرغبة ورعة واحتجاج غير متبلور ضد الخيانة الصريحة المخزية التي صدرت عن نوسـك وايبرت وشايدمان وغيرهم ، وفي النهاية كأداة ديماغوجية انتخابية وبرلمانية .

ان حيوية الكاوتسكية الكامنة ملموسة بشكل خاص لدى اللونغيويين الفرنسيين . ولقد اقتنع جان لونغيه هو نفسه بذلك وحاول طويلاً ان يقنع الآخرين باخلاص بأنه يسير بدون تحفظ معنا ، وبأن رقابة كليمانصو وافتراءات اصدقائنـا الفرنسيين لوريو وموناث وروسمر وغيرهم ، هي وحدها التي تمنع قيام أخوة سلاح كاملة بيننا . الا انه يكفي بالمقابل ان نطلع على أي خطاب برلماني للونغيه حتى نقتنع بأن الهوة التي تفصله عنا في الساعة الراهنة هي بدون أدنى ريب أعمق مما كانت عليـه في المرحلة الاولى من الحرب الامبريالية . ان المشكلات الثورية التي تنتصب الآن أمام البروليتاريا العالمية قد أصبحت جدية أكثر ، ومباشرة وجليلة وفورية اكثر ، وأوضح أيضاً مما كانت عليه قبل خمسة أو ستة أعوام ، وان الرجعية السياسية التي يحمل لواءها اللونغيويون ، الممثلون البرلمانيون للسلبية الخالدة ، قد أصبحت أشد بروزاً من أي وقت سبق ، رغم ان اللونغيويين قد دخلوا شكلياً الى صف المعارضة البرلمانية .

---

(١) : في الساعة التي يظهر فيها هذا الكتاب في فرنسا ، كان الانشقاق قد تم في حزب المانيا المستقل ، وانفصلت غالبيته عن زمرة كاوتسكي .

ان الحزب الايطالي ، المنتمي الى الاممية الثالثـة ، لم يتحرر البتة من الكاوتسكية . ان عدداً كبيراً من قادة هذا الحزب لايرفعون أعلام الاممية إلا بسبب وظائفهم وتحت ضغط القاعدة . وبين ١٩١٤ - ١٩١٩ كان أسهل على الحزب الاشتراكي الايطالي من سائر احزاب أوروبا الى حد بعيد ان يتمسك بموقف المعارضة في مسألة الحرب ، باعتبار ان ايطاليا لم تدخل الحرب إلا بعد تسعة شهور من سائر البلدان الاخرى ، وكذلك وبصورة خاصة لأن وضع ايطاليا الدولي قد خلق في هـذا البلد تجمعاً بورجوازياً قوياً (الجيوليتيون بالمعنى الموسع للكلمة) مانع حتى الدقيقة الاخيرة دخول ايطاليـا الحرب . ان هذه الظروف قد سمحت للحزب الاشتراكي الايطالي بألا يوافق على منح الحكومة اعتمادات الحرب ،بدون أزمة داخلية عميقة في صفوفه ، وبأن يبقى ، بصورة عامة ، خارج معسكر دعاة الحرب . لكن التطهير الداخلي في الحزب كان لابد حتماً ان يتأخر نتيجة ذلك . والحزب الاشتراكي الايطالي مايزال يشكو الى اليوم ،وبعد انتمائه الى الاممية الثالثة ، من توراتي واتباعه .

ان هذا التجمع الواسع للغاية ـ نحن لانستطيع مع الاسف ان نقدم أرقاماً دقيقة عن الأهمية العددية للزمرة البرلمانية الايطالية ، وعن الصحافة ، وعن منظمات الحزب والمنظمات المهنية - أقول إن هذا التجمع يمثل بلاريب انتهازية أقل ادعاء ، وأقل دوغمائية ، واكثر جعجعة وغنائية ، الا انها تظل انتهازية ضارة مشؤومة ، كاوتسكية مغلفة بطابع رومانتيكي ! ان البعض ، رغبة منه في تفسير الموقف المصالح التوفيقي الذي يقفه تجاه الزمر الكاوتسكية واللونغيوية والتوراتية ، يزعم ان ساعة العمل الثوري لم تدق بعد في البلدان المعنية . لكن مثل هـذه الطريقة في طرح المسألة

ليست الطريقة الصحيحة . ان ما من انسان يطلب ، في الواقـــع ، من الاشتراكيين الذين يصبون الى الشيوعية ، ان يحددوا في فترة قريبة موعد انقلاب ثوري . لكن ماتطلبه الأممية الثالثة من انصارها هو أن يعترفوا ، فعلياً لا لفظياً ، بأن البشرية المتمدينة قد دخلت في عصر ثوري ، وبأن جميع البلدان الرأسمالية تسير نحو انقلابات كبيرة ونحو الحرب الطبقيـة المكشوفة ، وبأن مهمة ممثلي البروليتاريا الثوريين هي تهيئة السلاح الفكري الضروري واعداد المنظمات التي ستكون نقاط الارتكاز في هذه الحرب المحتمة ، القريبة للغاية . ان الاممين الذين يرون انه من الممكن التعاون اليوم ايضاً مع كاوتسكي ولونغيه وتوراتي ، وتوجيه الجماهير العمالية بالتفاهم معهم ، انما هم في الواقع يستنكفون عن تهيئة عصيان البروليتاريا المسلح ، سواء أعلى صعيد الافكار أم على صعيد التنظيم ، وسواء أكان هذا العصيان قريباً أم بعيداً ، وسواء أكانت المسألة مسألة شهور أم سنين . وكيلا يتفتت تمرد الجماهير البروليتارية المكشوف الى محـاولات متأخرة زمنياً للبحث عن طريق أو قيادة ، ينبغي على جماهير البروليتاريين ان تتعلم من الآن كيف تعانق وتفهم مجموع المهام التي تقع على عاتقهـا ، والتعارض المطلق القائم بين هذه المهام وبين مختلف اشكال الكاوتسكية والتواطؤ الانتهازي . ان على اليسار الثوري حقاً ، أي الشيوعي ، أن يقف أمام الجماهير موقف المعارضة ازاء مختلف التجمعات الغائمة المترددة ذات المواقف الازدواجية ، المدافعة المحامية الممجدة للسلبية ، وذلـك عن طريق تعزيز مواقعه بلا كلل ، في ميدان الافكار اولاً ، ثم في ميدان التنظيم المشروع أو نصف المشروع ، أو السري كلياً . وان ساعة القطيعة الحاسمة مـــع الكاوتسكيين العلنيين أو المتسترين ، أو ساعة طردهم من صفوف الحزب

العمالي ، يجب ان تعينها ، بالطبع ، اعتبارات الموقف التكتيكية ، لكن كل سياسة الشيوعيين الحقيقيين يجب ان تتوجه نحو الهدف التالي :القطيعة النهائية . لهذا يبدو لي ان هذا الكتاب لايرى النور متأخراً بالرغم من كل شيء . وبغض النظر عن أسفي العميق إن لم يكن من وجهة نظري كمؤلف ، فعلى الاقل من وجهة نظري كشيوعي .

ل . تروتسكي

حزيران ١٩٢٠

٢

فرنسا عند المنعطف

ان هذا الكتاب مخصص لتوضيح مناهج سياسة البروليتاريا الثورية في عصرنا . وهو معروض بصورة سجالية ، شأن السياسة الثورية نفسها . ان السجال ضد الطبقة السائدة ، بوصوله الى الجماهير المضطهدة ، يتحول ، في لحظة معينة ، الى ثورة .

ان الفهم الواضح للطبيعة الاجتماعية للمجتمع الحديث ، ولدولته ، ولحقه ، ولعقيدته ، يعتبر الاساس النظري للسياسة الثورية . ان البورجوازية تلجأ الى التجريد («الامة» ، « الوطن » ، «الديموقراطية») لتموه الاستغلال الذي هو أساس سيطرتها . ان « الزمن » ، وهي واحدة من أكثر صحف العالم دناءة ، تعلم يومياً الجماهير الشعبية الفرنسية الوطنية والتجرد . الا انه لا يخفى على أحد أن تجرد « الزمن » بقدر حسب تعرفة عالمية محددة .

ان الفعل الاول للسياسة الثورية هو تعرية الاوهام البورجوازية التي تسمم عاطفة الجماهير الشعبية . وهذه الاوهام تصبح شديدة الضرر

حين تختلط بأفكار « الاشتراكية » و « الثورة » . وان لهجة المنظمات العمالية الفرنسية يحددها اليوم اكثر من أي وقت سبق كيميائيو هـذا النوع من المزج .

لقد كان للطبعة الاولى من هذا الكتاب بعض الاثر على تكوين الحزب الشيوعي الفرنسي : وقد تلقى المؤلف عدة شهادات لا يصعب بعد كل شيء الوقوع على أثرها في « الانسانية [1] » حتى عام ١٩٢٤ . وخلال الاثني عشر عاماً التي تلت هذا التاريخ ، قامت الاممية الشيوعية ـ بعـد عدة تقلبات عصبية ـ باعادة نظر جذرية في القيم : ويكفي ان نقول اليوم ان هذا الكتاب يمثل في لائحة الكتب الممنوعة . ان القادة الحاليـين للحزب الشيوعي الفرنسي (اننا مرغمون على الحفاظ على هذه التسمية رغم تناقضها التام مـع الواقع) لا يتميزون ، بأفكارهم وطرائقهم ، عن كاوتسكي بأي مبدأ من المبادىء ، كاوتسكي الذي كتبنا هـذا الكتاب ضده : كل ما هنالك انهم اكثر جهلاً ورياء الى حد لا يقاس . ان نوبـة الاصلاحية والوطنية الجديدة التي يعاني منهـا كاشـان وشركاؤه تكفي وحدها لتبرير طبع هذا الكتاب مجدداً . لكن هناك أسباباً اخرى جدية اكثر : اسباباً تمتد جذورها الى الازمـة العميقة السابقة للثورة الـتي تهز الجمهورية الثالثة .

لقد أمكن لمؤلف هذا الكتاب ، بعد ثمانية عشر عاماً من الغياب ، ان يقضي سنتين في فرنسا (١٩٣٣ — ١٩٣٥) وان بصفة مراقب قـادم من الريف وخاضع ، علاوة على ذلك ، لرقابة مشددة . وخلال هـذه

---

(١) الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعي الفرنسي . « المترجم »

الفترة وقع في محافظة ايزير ، التي اتيح للمؤلف ان يقيم فيها ، حادث صغير مشابه لكثير من الحوادث الاخرى ، لكنه يمثل في الوقت نفسه مفتاح السياسة الفرنسية كلها . ففي مصح عائد الى « لجنة معامل صهر الحديد »، سمح عامل لنفسه ، مقيم في المصح بانتظار عملية خطيرة ، ان يقرأ صحيفة ثورية (وبتعبير أدق : صحيفة « الانسانية » التي كان يعتبرها بسذاجة ثورية) . ووجهت الادارة الى هذا العامل المتهور ، ثم الى أربعة مرضى آخرين يشاركونه ميوله ،هذا الانذار : اما الامتناع عن تلقي منشورات غير مرغوب فيها ، واما أن يقذف بهم الى الشارع ولقد احتج المرضى بأن هناك حملة دعاية كهنوتية ورجعية مكشوفة في المصح ، لكن احتجاجهم لم يلق بالطبع اذناً صاغية . لكن لما كانت المسألة مسألة عمال لا يجازفون بمقاعد برلمانية أو كراسي وزارية ، بل يجازفون بكل بساطة بصحتهم وحياتهم ، فان الانذار لم يلق نجاحاً : وهكذا طرد خارج المصح خمسة مرضى كان أحدهم ستجرى له عملية في اليوم التالي . وكانت بلدية مدينة غرونوبل آنذاك اشتراكية يرأسها الدكتور مارتان ، وهو واحد من أولئك البورجوازيين المحافظين الذين يفرضون على الحزب الاشتراكي لهجته والذين يعتبر ليون بلوم ممثلهم الصادق . وحاول العمال المطرودون ان يحتموا بالعمدة . لكن بلا جدوى : فهو لم يستقبلهم رغم الحاحهم ورسائلهم ووساطاتهم . فتوجهوا الى الصحيفة اليسارية المحلية « لا ديبيش » التي يشكل فيها الراديكاليون والاشتراكيون كارتلاً متماسكاً . وعندما علم مدير الصحيفة بأن المسألة تتعلق بمصح « لجنة معامل صهر الحديد » ، رفض رفضاً باتاً ان يتدخل : كل ما تشاؤون ، ما عدا ذلك . فقد سبق لصحيفة « لا ديبيش » ، بسبب هفوة صغيرة اقترفتها تجاه تلك المنظمة

القوية ، ان حرمت من الاعلان وتعرضت بالتالي الى خسارة ٢٠,٠٠٠ فرنك . لقد كان مدير الصحيفة وكذلك العمدة بخشيان ، بخلاف البروليتاريين، ان يخسرا شيئاً ما : وهكذا تخليا عن معركة غير متكافئة، تاركين العمال بأمعائهم وكلاهم المريضة الى مصيرهم الخاص .

ان العمدة الاشتراكي يلقي ، مرة أو مرتين في الاسبوع ، تدفعه ذكريات شباب غائمة ، يلقي خطاباً يمتدح فيه مزايا الاشتراكية على الرأسمالية ، واثناء الانتخابات ، تدعم « لاديبيش » العمدة وحزبه . ان كل شيء على أحسن مايرام . وتنظر « لجنة معامل صهر الحديد » بتسامح ليبيرالي الى هذا النوع من الاشتراكية الذي لايلحق ادنى ضرر بالمصالح المادية للرأسمال . وبعشرين الف فرنك ثمن اعلانات سنوياً (ثمن بخس فعلاً !) ، يفرض اقطاعيو الصناعة الثقيلة والمصارف سيطرتهم عملياً على جريدة الكارتل الكبيرة ! وليس هذه الجريدة وحدهـا : « فلجنة معامل صهر الحديد » لديها حتماً مافيه الكفاية من الوسائل ، المباشرة او غير المباشرة ، لتؤثر على السادة العُمُد والشيوخ والنواب بما فيهم العُمُد والشيوخ والنواب الاشتراكيون . ان كل فرنسا الرسمية واقعة تحت دكتاتورية الرأسمال المالي . ويشار في قاموس لاروس الى هـذا النظام باسم « الجمهورية الديموقراطية » .

كان السادة نواب اليسار والصحفيين ، لا في ايزير وحدها بل في جميع محافظات فرنسا ، يعتقدون ان تعايشهم السلمي مع الرجعية لن تكون له من نهاية . وكانوا مخطئين . فالديموقراطية التي يتآكلها السوس منذ زمن طويل ، شعرت فجأة بفوهة المسدس على صدغها . فكما ان

تسلح هتلر – وهو فعل مادي فظ – قد سبب ثورة حقيقية في العلاقات بين الدول ، كاشفـاً النقاب عن غرور ووهم ما اصطلح على تسميته بـ « الحق الدولي » ، كذلك فإن عصابات الكولونيل لاروك المسلحة قد زرعت البلبلة في العلاقات الداخلية في فرنسا ، مرغمة جميع الاحزاب بلا استثناء على ان تعيد تنظيم نفسها ، وتضيق صفوفها ، وتجمعها من جديد .

لقد كتب فريدريك انجلز ذات يوم ان الدولة ، بما فيها الجمهورية الديموقراطية ، ليست إلا عصابة مسلحة للدفاع عن الملكية . وكل ماتبقى ليس له من مهمة الا تجميل هذه الواقعة او تقنيعها . ان المدافعين الفصحاء عن « الحق » من نوع هريو أو بلوم ، قد تقززوا دومـاً من هذه الوقاحة . لكن هتلر ، شأنه شأن لاروك ، قد اثبت من جديد ان انجلز كان على حق .

في مطلع ١٩٣٤ كان دالادييه رئيساًلمجلس الوزراء بإرادة الانتخاب العام المباشر والسري : كان يحمل السيادة القومية في جيبه مع منديله . لكن ما ان اظهرت عصابات لاروك وموراً وشركائها جرأتها على اطلاق النار وعلى قطع سروج خيول البوليس ، حتى تخلى دالادييه وسيادته عن مكانها للسياسة غير المشروعة التي فرضها زعماء هذه العصابات . ان هـذه الواقعة أهم بما لايقاس من جميع الاحصائيات الانتخابية ، ولايمكن محوها من تاريخ فرنسا الحديث ، لانها دليل للمستقبل .

من المؤكد انه ليس بمقدور **اي جماعة** مسلحة بالمسدسات أن تغير في كل لحظة الاتجاه السياسي لبلد من البلدان . ان العصابات المسلحة العاملة لحساب طبقات محدودة هي وحدها التي تستطيع ، في ظروف

معينة ، ان تلعب دوراً حاسماً . ان الكولونيل لاروك وانصاره يريدون ان يستتب « النظام » ضد الهزات . ولما كان « النظام » في فرنسا يعني سيطرة الرأسمال المالي على البورجوازية الصغيرة والوسطى ، وسيطرة مجموع البورجوازية على البروليتاريا والفئات الاجتماعية القريبة منها ، فان قوات لاروك لاتعدو ان تكون بكل بساطة عصابات مسلحة تابعة للرأسمال المالي.

ان هذه الفكرة ليست بالجديدة . اننا نستطيع أن نجدها بكثرة حتى في جريدتي « الشعبي » و « الانسانية » ، رغم أنهما ليستا أول من صاغها . غير أن هاتين الجريدتين لا تقولان إلا نصف الحقيقة . والنصف الآخر ، الذي لايقل أهمية هو أن هريو ودالادييه وأنصارهما يشكلون وكالة عاملة لحساب الرأسمال المالي : والا ما كان أمكن للراديكاليين أن يكونوا الحزب الحاكم في فرنسا طوال عشرات السنين . واذا كنا لانريد أن نلعب لعبة الاستغماية ، فمن الضروري أن نقول ان لاروك ودالادييه يعملان عند رب العمل نفسه . وهذا لايعني ، بالطبع ، أن هناك تماثلاً كاملاً بينهما أو بين طرائقهما . بل على العكس من ذلك انهما يتحاربان حرباً طاحنة ، كما لو أنهما وكالتان مختصتان تملك كل منهما سر الانقاذ . ان دالادييه يعد بالحفاظ على النظام بواسطة الديموقراطية المثلثة الألوان عينها. أما لاروك فيقدر أن البرلمانية البالية يجب أن تكنس لحساب دكتاتورية عسكرية وبوليسية صريحة . ان الطرائق السياسية متناحرة ، لكن المصالح الاجتماعية واحدة .

ان انحطاط النظام الرأسمالي ، وأزمته التي لا علاج لها ، وتفسخه ، تشكل الاساس التاريخي للتناحر القائم بين لاروك ودالادييه (اننـــا

نستشهد بهذين الاسمين وحدهما حتي نسهل عرض المسألة) . ان الرأسمالية بالرغم من تقدم التكنيك المتواصل ومن النتائج الملموسة التي حققتها بعض الفروع الصناعية ، تعرقل في مجموعها تطور القوى المنتجة ، وهذا مايؤدي الى عدم استقرار بالغ في العلاقات الاجتماعية والدولية . ان الديموقراطية البرلمانية وثيقة الارتباط بعصر المزاحمة الحرة وحرية التجارة الدولية . ان البورجوازية تستطيع أن تسمح بحق الاضراب والاجتماع و-رية الصحافة مادامت القوى المنتجة في حالة صعود مستمر ، وما دامت الأسواق تتسع ورفاهية الجماهير الشعبية تزدادبالرغم من نطاقها المحدود ، والأمم الرأسمالية تستطيع أن تعيش وتترك الآخرين يعيشون . لكن الحال لم تعد كذلك اليوم . ان العصر الامبريالي يتميز ، باستثناء الاتحاد السوفياتي ، بجمود وتراجع في الدخل القومي ، وبأزمة زراعية مزمنة ، وبطالة عضوية . ان هذه الظاهرات الداخلية ملازمة لمرحلة الرأسمالية الراهنة ، كما أن النقرس وتصلب الشرايين ملازمان للفرد عندما يبلغ عمراً معيناً . اما أن يريد البعض تفسير الفوضى الاقتصادية العالمية بنتائج الحرب الأخيرة ، فهذا دليل على عقل سطحي الى حد موئس ، كما هي حال كايو والكونت سفورزا وغيرهما . ان الحرب لم تكن الا محاولة قامت بها البلدان الرأسمالية لتلقي على ظهر الخصم بعبء الازمة الاقتصادية التي كانت تلوح في الأفق منذ ذلك الحين . ولقد فشلت المحاولة . فالحرب قد زادت من تفاقم مظاهر التفسخ الذي سيؤدي تسارعه اللاحق الى حرب جديدة .

ومهما تكن احصائيات فرنسا الاقتصادية سيئة ومهملة عن قصد للتناحرات الطبقية ، الا انها لاتستطيع أن تخفي مظاهر التفسخ لاجتماعي الواضحة للعيان . فبالتوازي مع تراجع الدخل القومي ، وتدهور دخل

الريف تدهوراً مأساوياً مريعاً ، ودمار صغار كسبة المدن ، وزيادة البطالة ، تحقق المشاريع الضخمة التي يتراوح رقم اعمالها السنوي بين ١٠٠ و ٢٠٠ مليون واكثر ، ارباحاً طائلة . ان الرأسمال المالي ، بكل ما في الكلمة من معنى ، يمتص دم الشعب الفرنسي . هذا هو الاساس الاجتماعي لعقيدة وسياسة « الاتحاد القومي » .

يقيناً ، من الممكن بل من المحتم ان تخف حدة التفسخ بين فترة وأخرى ، لكن هذه مسألة تظل مشروطة بشكل دقيق بالظروف . أما الاتجاه العام لعصرنا ، فهو يضع فرنسا ، بعد عدد آخر من البلدان ، امام الاختيار التالي : إما ان تطيح البروليتاريا بالنظام البورجوازي المتقرح في اساسه ، واما ان يستبدل الرأسمال الديموقراطية بالفاشية للمحافظة على بقائه . لكم من الزمن ! ان مصير موسوليني وهتلر سيجيب على هذا السؤال .

لقد سحب الفاشيون اموالا من المصارف والتروستات ، بأمر مباشر من البورصة . ومن مواقع القيادةهذه نفسها ، طلب الى دالاديه ان يسلم السلطة الى دوميرغ . واذا كانالوزيرالراديكالي ، رئيسالوزارة قد سلم -- بالجبن الذي يتميز به الراديكاليون -- فهذا لانه تعرف في عصابات لاروك على قوات رب عمله . وبتعبير آخر : ان دالاديه،الوزير ذا السيادة ، قد سلم السلطة الى دوميرغ للسبب نفسه الذي رفض من اجله مدير « لاديبيش » وعمدة غرونوبل ان يفضحا القسوة البغيضة التي بدرت عن عملاء « لجنة معامل صهر الحديد » .

غير أن الانتقال من الديموقراطية الى الفاشية يجازف باحداث هزات اجتماعية . ومن هنا كانت الترددات والاختلافات التكتيكية التي

نلاحظها في الدوائر العليـــا من البورجوازية . ان جميع ارباب المال يؤيدون الاستمرار في تقوية العصابات المسلحة التي يمكن أن تشكل احتياطياً مطمئناً في ساعة الخطر . لكن ما المكان الذي ينبغي أن يترك لهذه العصابات منذ اليوم ؟ هل ينبغي السماح لهـــا بالانتقال الى الهجوم فوراً ، أم الاحتفاظ بها مؤقتاً كوسيلة تخويف ؟ ان هذه وغيرها أسئلة لم يوجد لها بعد جواب قاطع . إن الرأسمال المالي لم يعد يؤمن أن بمقدور الراديكاليين أن يجروا خلفهم جماهير البورجوازية الصغيرة ، وأن يبقوا البروليتاريا ، عن طريق ضغط هـذه الجماهير ، في حدود الانضباط « الديموقراطي » ، لكنه لايؤمن من ناحية أخرى بأن المنظمات الفاشية ، التي ماتزال تفتقر الى قاعدة جماهيرية متينـة ، قادرة على الاستيلاء على السلطة وعلى اقامة نظام حديدي .

إن ما جعل زعماءالكواليس يفهمون ضرورة اتخاذ موقفالحذر ، ليس هو البلاغة البرلمانية ، بل تمرد العمال ومحاولة الاضراب التي خنقتها من البداية بيروقراطية جوهو ، ثم الاضطرابات المحلية (طولون وبريست). ولقد تنفس الراديكاليون بشيء من الحرية ، بعد ان أوقف الفاشيون عند حـدهم بعض الشيء . واكتشفت « الزمن » من جديد ، بعـد ان كانت قد وجدت الوسيلة في سلسلة من المقالات لتمد يدها وقلبهـا الى « الجيل الجديد » ، اكتشفت مزايا النظام الليبرالي ، المتناسب في نظرها مع العبقرية الفرنسية . وهكذا قام نظام غير مستقر ، مؤقت ، غـير شرعي ، يتناسب مع افول الجمهورية الثالثة لا مـع عبقرية فرنسا . ان أوضح مافي هـذا النظام ملامحه **البونابرتية** استقلال الحكومـة عن الاحزاب والبرنامج ، وتصفية السلطـة التشريعية بواسطة الصلاحيـات

المطلقة ، باعتبار ان الحكومة تقف فوق الاحزاب المتناحرة ، أي في الواقع فوق الامة ، لتلعب دور « الحكم » . وقد عزفت الوزارات الثلاث ، دوميرغ ، وفلاندان ولافال ، بمساهمة الراديكاليين المهانين المورطين ، عزفت لحناً واحداً على ثلاثة ايقاعات .

وحين تشكلت وزارة سارو ، صرح ليون بلوم الذي تمتد بصيرته الى بعدين بدلاً من ثلاثة : « ان الاثار المتبقية من ٦ شباط قد تبددت على الصعيد البرلماني » (« الشعبي » - ٢ شباط ١٩٣٦) . هذا مايسمي رسم شبح عربة بشبح فرشاة ! كما لو أنه بالامكان حذف ضغط العصابات المسلحة التابعة للرأسمال المالي ، على « الصعيد البرلماني » ! وكما لو أن باستطاعة سارو ألا يحس بهذا الضغط وألا يرتعد أمامه ! والواقع أن حكومة سارو - فلا ندان هي مجرد فرع من تلك « البونابرتية » نصف البرلمانية ، وان كانت تميل بعض الشيء الى « اليسار » . ولقد أجاب سارو بنفسه ، داحضاً الاتهام بأنه اتخذ تدابير تعسفية ، أجاب على ذلك بصورة برلمانية خالصة : « اذا كانت تدابيري تعسفية ، فهذا لانني أريد أن أكون حكماً » . ان هذه الحكمة ما كانت لتكون مستغربة في فم نابليون الثالث . ان سارو لايشعر بأنه مفوض حزب معين أو كتلة من الأحزاب للسلطة ، كما تنص على ذلك قواعد البرلمانية ، بل بأنه حكم فوق الطبقات والأحزاب كما تنص على ذلك قوانين البونابرتية .

ان تفاقم الصراع الطبقي ، ودخول عصابات الرجعية المسلحة الى المسرح بصورة خاصة لم ينالا من ثورية المنظمات العمالية . ولقد رأى الحزب الاشتراكي ، الذي كان يلعب باطمئنان دور الدولاب الخامس في

عجلة الجمهورية الثالثة ، رأى نفسه مرغماً على التخلي نصف تخل عن تقاليده الكارتلية ، بل حتى على قطع الصلة بجناحه اليميني . وفي الوقت نفسه حقق الشيوعيون التطور المعاكس ، لكن على نطاق أوسع بكثير . لقد حلم هؤلاء السادة طوال سنوات بالمتاريس ،وغزو الشوارع ،الخ ... (لكن هذا الحلم كان له طابع أدبي) وبعد السادس من شباط ، عندما أدرك انصار المتاريس ان المسألة جدية ، ألقوا بأنفسهم الى اليمين. وكان هذا رد فعل تلقائياً بدر عن هؤلاء اللفظيين المتخوفين ،وجاء مطابقاً بصورة مذهلة للاتجاه الجديد في الدبلوماسية السوفياتية

لقد تحولت سياسة الكرملين نحو فرنسا ، أمام الخطر الذي تمثله المانيا الهتلرية . الحفاظ على الوضع القائم في العلاقات الدولية !الحفاظ على الوضع القائم في نظام فرنسا الداخلي ! ان الاوساط الحاكمة في الكرملين لاتتكلم إلا بازدراء عن الشيوعية الفرنسية . ينبغي اذن الاحتفاظ بما هو موجود منعاً لوجود ماهو اسوأ منه . ومادامت الديموقراطية البرلمانية في فرنسا غير ممكنة بدون الراديكاليين ،فلنعمل على ان يدعمهم الاشتراكيون، ولنأمر الشيوعيين بألا يحرجوا كتلة بلوم - هريو . بل لندخلهم هم ايضاً في التكتل اذا كان ذلك ممكناً ! لاهزات ، ولاتهديدات ! هذه هي سياسة الكرملين .

حين يتخلى ستالين عن الثورة العالمية ،فان الاحزاب البورجوازية الفرنسية لاتريد ان تصدقه . وانها لمخطئة !فالثقة العمياء في السياسة ليست بالطبع فضيلة سامية . لكن الريبة العمياء بالمقابل ليست خيراً من الثقة العمياء . ان علينا ان نعرف كيف نواجه الكلام بالأفعال ونميز الاتجاه

العام للتطور خلال عدة سنوات . وان سياسة ستالين، التي تحددها مصالح البيروقراطية السوفياتية المتمتعة بالامتيازات ، قد أصبحت في جوهرها سياسة محافظة . ان البورجوازية الفرنسية لها كل الاسباب للثقة بستالين ، والبروليتاريا الفرنسية لها كل الاسباب لتكون مرتابة .

في مؤتمر الوحدة في تولوز ، عرف « الشيوعي » راكامون سياسة الجبهة الشعبية تعريفاً جديراً بالانتقال الى الاجيال القادمة : « كيف نتغلب على خجل الحزب الراديكالي ؟ » . كيف نتغلب على خوف البورجوازية من البروليتاريا ؟ الامر بسيط للغاية : ان على الثوريين المخيفين ان يرموا السكين التي يشدون عليها بين أسنانهم ،وان يطلوا شعورهم ، وان يبتسموا ابتسامة ساحرة كابتسامة نساء الحريم : وسيكون مثالهم فايان - كوتيرييه الذي يتبنى دوماً آخر موضة . وان على بلوم ان يغير مرة أخرى اتجاهه تحت ضغط « الشيوعيين » المطليي الشعور والوجوه ، والذين يدفعون بكل قواهم الى اليمين بالاشتراكيين الذين يتطورون الى اليسار . ولقد فعل ذلك ، لحسن الحظ ، في الاتجاه المعتاد . وهكذا تشكلت الجبهة الشعبية : شركة تأمين الراديكاليين المفلسين على حساب رأسمال المنظمات العمالية .

إن الراديكالية لاتنفصل عن الماسونية . وهذا جوهر كل مايمكن ان يقال . وفي أثناء المناقشات التي دارت في مجلس النواب حول الجمعيات الماسونية ، قام السيد كسافيه فالا يذكر بأن تروتسكي كان قد منع ، في زمن معين ، الشيوعيين من الانتماء الى المجامع الماسونية . واسرع السيد جامي شميدت ، الذي يبدو انه خبير في هذا الموضوع ، ليفسر هذا المنع بتناقض البولشفية الاستبدادية مع « روح الحرية » . اننا لانرى ضرورة

للدخول في جدال حول هذا الموضوع مع النائب الراديكالي . لكننا ما نزال نرى الى اليوم ان الممثل العمالي الذي يذهب للبحث عن إلهامه أو عزائه في الدين الماسوني الرث القائم على التعاون الطبقي ، لهو غير جدير بالثقة البتة. وليس من قبيل الصدفة ان يكون « الكارتل » قد اكتمل بمساهمة الاشتراكيين الواسعة في المحافل الماسونية . لكن قد آن الاوان ليقوم الشيوعيون التائبون بربط المئزر بأنفسهم . وسيكون من الاسهل على الرفاق الذين صاروا من المريدين حديثاً ان يخدموا أرباب الكارتل المسنين وهم يرتدون مآزرهم .

يقولون لنا باستنكار ان الجبهة الشعبية ليست كارتلا ، بل حركة جماهيرية . يقيناً أن التعاريف الفخمة موفورة ، لكنها لا تبدل من واقع الامور شيئاً . لقد كان هدف الكارتل دوماً عرقلة حركة الجماهير بتوجيهها نحو التعاون الطبقي . وهذا هو على وجه التحديد هدف الجبهة الشعبية . والفرق بينهما ــ وهو فرق كبير ــ أن الكارتل التقليدي قد طبق في عصور استقرار وهدوء النظام البرلماني لكن اليوم ، بعد ان نفد صبر الجماهير وأصبحت مستعدة للانفجار ، أصبح لابد من لجام أمتن عن طريق مساهمة « الشيوعيين » . ان الاجتماعات المشتركة ، والمواكب البهية ، والوعود والأيمان الغليظة ، واتحاد علم الكومونة بعلم فرساي ، والديماغوجية ، ان هذا كله ليس له إلا هدف واحد : لجم الحركة الجماهيرية وضرب معنوياتها .

وقد صرح سارو في البرلمان ، كي يبرر نفسه أمام اليمينيين ، بأن تنازلاته غير الضارة ازاء الجبهة الشعبية لا تعدو ان تكون **صمام امان** النظام . ان مثل هذه الصراحة قد تبدو متهورة لكن اليسار المتطرف

غطاها بالتصفيق . اذن لم يكن لدى سارو أي داع للحرج . وعلى كل حال فقد نجح ، عن دون قصد من الجائز ، في تعريف الجبهة الشعبية : صمام أمان ضد الحركة الجماهيرية . والسيد سارو موفق ، بصورة عامـة ، في صياغة الحكم !

ان السياسة الخارجية هي استمرار السياسة الداخلية . ولقدتبنى بلوم وكاشان وشركاؤهما ، بعد ان تخلوا تماماً عن وجهة نظر البروليتاريا، تبنوا تحت قناع « الأمن الجماعي » و « الحق الدولي » ــ وجهـة نظر الامبريالية الوطنية . انهم يعدون العدة لنفس سياسة التنازل والتهاون التي اتبعوها بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ، مضيفين اليها هذه العبارة فقط : « من أجل الدفاع عن الاتحاد السوفياتي » . غير ان الدبلوماسية السوفياتية عندما رأت نفسها بين ١٩١٨ و ١٩٢٣ مرغمة في غالب الاحيان على المناورة وعلى عقد الاتفاقات ، لم يخطر ببال شعبة واحدة من شعب الاممية الشيوعية انها تستطيـع ان تتكتل مع بورجوازيتها ! أليس هذا وحده دليلاً كافياً على صدق ستالين عندما ينكر الثورة العالمية ؟

وللدوافع نفسها التي دفعت بالقادة الحاليين للأممية الشيوعيـة الى التعلق بثدي « الديموقراطية » في مرحلة احتضارها ، اكتشف هؤلاء الوجه المشع ل « عصبة الامم » ، مع انها تشكو من البداية من غصـــة الموت . وهكذا وجدت خلفية مشتركة للسياسة الخارجية بين الراديكاليين والاتحاد السوفياتي . ان المنهاج الداخلي للجبهة الشعبية تجميع لأفكار معروفة مبتذلة تطلق حرية التفسير تماماً كما يطلقها ميثاق جنيف . ان المعنى العام للمنهاج هو مايلي : لاتغيير . والحال ان الجماهير تريد التغيير وانما ههنا يكمن لب

ان بلوم وبول فور وكاشان وتوريز ، بتجريدهم البروليتـاريا من اسلحتها سياسياً ، انما يهتمون قبل كل شيء بمنعها من التسلح مادياً . ان دعاية هؤلاء السادة لاتتميزعن المواعظ الدينيةحول سمو المبادىءالاخلاقية. ان انجلز الذي كان يعلم ان الاسـتيلاء على سلطة الدولة هو مسألة من اختصاص العصابات المسلحة ، وماركس الذي كان يعتبر التمرد فنـاً ، يبدوان للنواب والشيوخ والعمد الحاليين في الجبهة الشعبية ، كمتوحشين من العصور الوسطى . لقد نشرت « الزمن » مئة مرة رسماً يصور عاملاً منزوع السلاح مع هذه الخرافة : « انكم ستفهمون ان قبضاتنا العارية أقوى من عصيكم كافة » . ياله من ازدراء عظيم بالتكنيك العسكري ! ان امبراطور الحبشة نفسه له وجهات نظر اكثر تقدماً في هذا الموضوع. ان اولئك الناس لايعترفون بوجود انقلابات في ايطاليا والمانيا والنمسا . فهل سيكفون عن التغني بـ « القبضات العارية » ، عندما سيقيد لاروك أياديهم بالاغلال البوليسية ؟ اننا لنأسف تقريباً على انه لايمكن تطبيقهذه التجربة على السادة الزعماء وحدهم ، دون ان تتألم الجماهير نتيجة ذلك !

ان الجبهة الشعبية تبدو ، اذا مانظرنا اليها من زاوية النظـــام البورجوازي ، مرحـلة في التنافس بين الراديكالية والفاشية لجذب انتباه وصدقات الرأسمال الكبير . ان الراديكاليين ، بتآخيهم بصورة مسرحية مع الاشتراكيين والشيوعيين ، يريدون ان يظهروا لرب العمل ان النظام ليس مريضاً الى الحد الذي يزعمه اليمينيون ، وان خطر الثورة مبالغ فيه ، وان فايان ـ كوتيرييه نفسه قد استبدل سكينه بعقدالزينة ، وانه يمكن عن طريق « الثوريين » المروضين ضبط الجماهير العمالية ، وبالتالي انقـاذ

النظام البرلماني من الانهيار .

غير ان الراديكاليين كافة لايؤمنون بهذه المناورة . فأكثرهم جدية ونفوذاً ، وعلى رأسهم هريو ، يفضلون تبني موقف الانتظار . لكنهم أنفسهم لايستطيعون بعد كل شيء ان يقترحوا شيئاً آخر . ان ازمة البرلمانية هي قبل كل شيء أزمة ثقة الناخب تجاه الراديكالية .

وما لم تكتشف الوسيلة لتجديد شباب الرأسمالية ، فلن تكون هناك من صفة لإنقاذ الحزب الراديكالي . ان هذا الحزب لايملك الخيار إلا بين مختلف انواع الموت السياسي ان نجاحاً نسبياً في الانتخابات القادمة لن يمنع بل لن يؤخر طويلاً انهياره .

ان زعماء الحزب الاشتراكي ، واكثر سياسيي فرنسا لامبالاة ، لايجدون احراجاً في سوسيولوجية الجبهة الشعبية : فما من انسان يستطيع ان يستخلص شيئاً مفيداً من مونولوجات ليون بلوم اللامتناهية الطول . أما الشيوعيون الذين يشعرون بفخر بالغ لأنهم بادهوا الى التعاون مع البورجوازية ، فانهم يصورون الجبهة الشعبية على انها **تحالف البروليتاريا مع الطبقات المتوسطة** . ياله من تقليد للماركسية ! كلا ، ان الحزب الراديكالي ليس حزب البورجوازية الصغيرة . كما انه ليس « تكتل البورجوازية الصغيرة والمتوسطة » ، حسب تعريف « البرافدا » المفضوح. فالبورجوازية المتوسطة لاتستغل البورجوازية الصغيرة على الصعيد الاقتصادي كما على الصعيد السياسي فحسب ، بل انها نفسها وكالة للرأسمال المالي . وان تسمية العلاقات السياسية المتسلسلة القائمة على الاستغلال بلفظة « تكتل » الحيادية ، لهي سخرية من الواقع . ان الفارس ليس تكتلا بين الرجل

والحصان . واذا كان لحزب هريو ودالادييه جذوره في الجماهير البورجوازية الصغيرة ، بل حتى في الاوساط العمالية الى حد ما ، فهذا فقط بهدف خداعها لحساب النظام الرأسمالي . ان الراديكاليين هم **حزب الامبريالية الفرنسية الديموقراطي** . وكل تعريف آخر مخاتلة .

ان أزمة النظام الرأسمالي تنزع من الراديكاليين سلاحهم ، بتجريدها أياهم من الوسائل التقليدية التي تسمح لهم بتخدير البورجوازية الصغيرة . لقد بدأت « الطبقات المتوسطة » تشعر ، ان لم نقل تفهم ، ان الموقف لن ينقذ باصلاحات بائسة وانه أصبح من الضروري القيام باصلاح جريء على النظام الحالي . ان الفاشية تتغذى قبل كل شيء من الريبة المتزايدة للبورجوازية الصغيرة ازاء الراديكالية . ويمكننا ان نقول بدون مبالغة ان مصير فرنسا السياسي لن يتأخر في ان يتقرر الى حد كبير حسب الطريقة التي ستصفى بها الراديكالية ، وحسب الحزب الذي سيخلفها : الفاشية أو حزب البروليتاريا ، أي حسب تأثيرها على الجماهير البورجوازية الصغيرة .

ان أحد المبادىء الاولية في الاستراتيجية الماركسية هو ان تحالف البروليتاريا مع صغار الناس في المدن والارياف ينبغي ان يتحقق فقط في النضال العنيد ضد التمثيل البرلماني التقليدي للبورجوازية الصغيرة . فلكي نكسب الفلاح الى جانب العامل ، ينبغي ان نفصله عن السياسي الراديكالي الذي يستعبده لصالح الرأسمال المالي . وبعكس ذلك ، تعمل الجبهة الشعبية ، التي هي وليدة تآمر البيروقراطية العمالية مع أبشع المستغلين السياسيين للطبقات الوسطى ، على قتل ايمان الجماهير في الطرائق الثورية وعلى قذفها في أحضان الثورة المضادة الفاشية .

ومهما كان من الصعب ان نصدق ، إلا ان بعض الوقحين يحاولون فعلا ان يبرروا سياسة الجبهة الشعبية بالاستشهاد بلينين الذي بين علــى مايبدو انه لايمكن الاستغناء عن « الحلول الوسط » وبخاصة عن الاتفاقات مع الاحزاب الاخرى . ان إهانة لينين قد أصبحت قاعـدة بالنسبة الى زعماء الاممية الشيوعية اليوم . انهم يدوسون على مذهب مؤسس الحزب البولشفي ثم يذهبون الى موسكو لينحنوا أمام ضريحه .

لقد بدأ لينين مهمته في روسيا القيصرية التي لم يكن العــمال والفلاحون والمثقفون هم وحدهم الذين يحاربون فيها النظام القديم ، بـل أيضاً أوساط بورجوازية واسعة . واذا كان يمكن لسياسة الجبهة الشعبية ان تكون مبررة بصورة عامة ، فهذا أمر معقول قبل كل شيء في بلد لم ينجز بعد ثورته البورجوازية . فليتفضل السادة المزورون بأن يدلونا في أي مرحلة وفي أي زمن وفي أي ظروف حقق الحزب البولشفي في روسيا تكتلاً يشبه تكتل الجبهة الشعبية ؟ فليأمروا سحايا أدمغتهم بالعمل ولينقبوا في الوثائق التاريخية !

لقد عقد البلاشفة اتفاقات ذات طابع عملي مع المنظمات الثورية البورجوازية الصغيرة من أجل التداول السري المشترك للكتابات الثورية ، واحياناً من أجل تنظيم مشترك لمظاهرة في الشارع أو للرد على العصابات السافكة الدم . واثناء انتخابات الدومـا ، لجؤوا في بعض الدوائر وفي الدرجة الثانية الى تكتلات انتخابية مع المنشفيك أو الاشتراكيين الثوريين . هذا كل شيء . لا « برامج » مشتركة ، ولا أجهزة دائمة ، ولا استنكاف عن انتقاد حلفاء المرحلة . ان هذا النوع من الاتفاقات والحلول الوسـط

العارضة ، المحددة بأهداف معينة ــ لم يكن لينين ليهتم إلا بهذه الاهداف ــ لاعلاقة له بالجبهة الشعبية التي تمثل كتلة مؤلفة من منظــمات متنافرة ، وتحالفاً دائماً بين طبقات شتى تربطها طوال مرحلة كاملة - وأي مرحلة ! ــ سياسة وبرنامج مشتركان ، سياسة استعراض وتطبيل وذر رماد في العيون. ان الجبهة الشعبية ستتحطم عند أول امتحان جدي ، وستظهر شقوق عميقة بين أجزائها المكونة لها . ان سياسة الجبهة الشعبية سياسة خيانة .

إن قاعدة البولشفية فيما يتعلق بالتكلات هي التالية : **السير على حدة ، والضرب معاً** اوان قاعدة زعماء الاممية الشيوعية اليوم هي التالية : **السير معاً لنتلقى الضربة على حدة** . فليتشبث هؤلاء السـادة بستالين وديمتروف ، لكن فليتركوا لينين في سلام .

انه ليستحيل ألا يعصف بنا الاستنكار حين نقرأ تصريحات الزعماء المتبجحين الذين يزعمون ان الجبهة الشعبية « أنقذت » فرنسا من الفاشية. وفي الواقع هذا يعني بكل بساطة ان ابطالنا المذعورين قد انقذوا أنفسهم من ذعر اكبر عن طريق تبادلهم التشجيع . لكم من الزمن ؟ لقـــد انقضت عشر سنين ، بين تمرد هتلر الاول ووصوله الى السلطـة ، تميزت بتناوب المد والجزر . لقد أعلن الالمان ممن هم على شاكلة بلوم وكاشان عدة مرات « انتصارهم » على الوطنية ــ الاشتراكـية . اننا لم نصدقهم ولقد كنا على صواب إلا ان هذه التجربة لم تعلم شيئاً أبناء عم ويـلز وتايلمان الفرنسيين . يقيناً ان الشيوعيين في المانيا لم يساهموا في الجبهة الشعبية التي كانت تضم الاشتراكية ــ الديموقراطية وبورجوازية اليسار والوسط الكاثوليكي¹ « تحالف البروليتاريا مع الطبقات المتوسطة ! ») . وفي ذلك

الحين ، كانت الاممية الشيوعية ترفض حتى اتفاقات القتال بين المنظمات العمالية ضد الفاشية . والنتائج معروفة . ان مودتنا الحارة تجاه تايلمان ، باعتباره أسير الجلادين ، لايمكن ان تمنعنا من القول ان سياســـته ، أي سياسة ستالين ، قد ساهمت في انتصار هتلر اكثر مما ساهمت سياسة هتلر نفسه. ان الاممية الشيوعية تطبق اليوم في فرنسا، بعد ان بدلت قميصها ،السياسة المعروفة بما فيه الكفاية عن الاشتراكية - الديموقراطية الالمانية. فهل من الصعب حقاً التنبؤ بنتائج ذلك ؟

ان الانتخابات البرلمانية القادمة لن تأتي ، مهما كانت نتيجتها ، من تلقاء نفسها ، بتغيرات جدية في الموقف : فالمطلوب في نهاية الأمر من الناخبين ان يختاروا بين حـكم من نوع لافال وحـــكم من نوع هريو - دالاديه . لكن لما كان هريو قد تعاون باطمئنان مع لافال ، ودالاديه قد أيد الاثنين ، فان الاختلاف الذي يفرق بينهم يبدو تافهاً اذا ما قيس على صعيد المشكلات التاريخية المطروحة

ان الاعتقاد بأن هريو دالاديه قادران على اعلان الحرب على « المئتي اسرة » التي تحكم فرنسا ، خداع وقح للشعب . ان المئتي اسـرة ليست معلقة بين السماء والارض ، بـل هي تشكل التتويج العضوي لنظام الرأسمال المالي. فللتغلب على المئتي اسرة ،لابد من التطويح بالنظام الاقتصادي والسياسي الذي لايقل هريو ودالاديه حرصاً على بقائـه من تارديو ولاروك . ان المسألة ليست مسألة نضال « الأمة » ضـــد بعض الاقطاعيين ، كما تزعم « الانسانية » ، بل مسألة نضال البروليتاريا ضد البورجوازية ، مسألة النضال الطبقي التي لايمكن ان تحسم إلا بالثورة .

ان مؤامرة قادة الجبهة الشعبية ضد العمال قـــد أصبحت العقبة الرئيسية في هذا الطريق .

اننا لا نستطيع ان نقول مقدماً كم من الزمن ستستمر الحكومات نصف البرلمانية ونصف البونابرتية في التتابع على فرنسا ، ولا ان نحدد المراحل التي ستمر فيها البلاد خلال الحقبة الزمنية القادمة . ان هـذا أمر يتعلق بمجموع الظروف الاقتصادية القومية والعالميـة ، وبالجو الدولي ، وبالوضع في الاتحاد السوفياتي ، وبدرجة استقرار الفاشية الايطاليـــة والالمانية ، وبسير الاحداث في اسبانيا ، واخيراً - وليس هـذا العامل الاقل أهمية - بتبصر ونشاط العناصر المتقدمة من البروليتاريا الفرنسية . ان تشنجات الفرنك يمكن ان تعجل بالنهاية . لكن تعاونـاً اوثق بين فرنسا وانكلترا قادر على تأخيرها . عـــلى كل الاحوال ، ان احتضار « الديموقراطية » يمكن ان يدوم في فرنسا اكثر بكثير مما دامت المرحلة الممهدة للفاشية في المانيا ايام برونينغ - بابن - شلايدر . لكنه لن يكف عن ان يكون احتضاراً . ان الديموقراطية ستكنس . والمسألة الوحيدة هي معرفة من سيكنسها .

ان النضال ضد « المئتي اسرة » ، ضد الفاشية والحرب ــ ومن أجل السلم والخبز والحرية وغيرها من الاشياء الجميلة - اما ان يكون خدعة ، وإما ان يكون نضالاً للاطاحة بالرأسمالية . ان مشكلة الاستيلاء الثوري على السلطة تطرح نفسها على الشغيلة الفرنسيين لا كهدف بعيد ، بل كمهمة من مهام المرحلة التي بدأت والحال ان القادة الاشتراكيين والشيوعيين لا يرفضون الاقدام على تعبئة البروليتاريا ثورياً فحسب ، بل

يعارضون هذه التعبئة ايضـاً بكل قواهم . انهم يطاردون ويطردون البلاشفة ، في الوقت نفسه الذي يتآخون فيه مع البورجوازية . الى هـذا الحد بلغ عنف كراهيتهم للثورة والخوف الذي توحي به اليهم ! وان اسوأ الادوار ، في هذا الموقف ، يلعبه الثوريون المزعومون من طراز مارسو بيفير الذين يعدون بالاطاحة بالبورجوازية ، لكن بشرط أخذ الاذن مسبقاً من ليون بلوم !

ان كل سير الحركة العاملة الفرنسية خلال الاثني عشر عاماً المنصرمة قد أبرز ضرورة خلق **حزب ثوري جديد** .

وان الرغبة في التنبؤ فيما اذا كانت الاحداث ستترك « مافيـه الكفاية » من الوقت لتكوين الحزب الجديد ، انما تعني الاستسلام لأكثر المشاغل عقماً وجدباً . ان مصادر التاريخ فيما يتعلق بالامكانيات المتنوعة والأشكال الانتقالية ، والمراحل ، والاسراع والابطاء ، ذات معين لا ينضب . ان الفاشية تستطيـع ، تحت ضغط المصاعب الاقتصادية ، ان تشن هجوماً سابقاً لأوانه فتلحقها الهزيمة . وستتلو ذلك حتماً فترة راحة وركون وعلى العكس من ذلك ، تستطيع بدافع الحذر ان تتبنى لمدة طويلة موقف الانتظار ، فتقدم بالتالي فرصاً جديدة للمنظمات الثورية . ان الجبهة الشعبية قد تتحطم على صخرة هـذه التناقضات قبل ان تصبح الفاشية قادرة على شن هجوم عام : وستكون نتيجة ذلك مرحلة تجمعات وانشقاقات في الاحزاب العمالية ، وتبلور سريع لطليعة ثورية . ان حركات الجماهير التلقائية تستطيـع ، كما بينت أحداث طولون وبريست ، ان تأخذ اتساعاً كبيراً وتخلق نقطة ارتكاز موثوقة للرافعـة الثورية .

واخيراً ، وحتى لو انتصرت الفاشية في فرنسا، وهذا ليس مستحيلاً نظرياً، فان هذا لايعني ان الفاشية ستظل في السلطة ألف سنة كما يعلن ذلك هتلر، او ان هذا الانتصار سيضمن لها فترة كتلك التي نالها موسوليني واذا كان فجر الفاشية قد بدأ في ايطاليا أو المانيا ، فانه لن يتأخر عن الامتداد الى فرنسا . وعلى هذا الاساس ، وعلى اسوأ الفرضيات ، فان بناء حزب ثوري يعني التعجيل بساعة الثأر ان الحكماء الذين يتخلصون من هذه المهمة العاجلة بزعمهم ان« الشروط ليست ناضجة »لايفعلون شيئاً عدا انهم يثبتون انهم هم أنفسهم غير ناضجين .

ان على الماركسيين الفرنسيين ، شأنهم شأن ماركسيي جميع البلدان ، ان يعاودوا العمل بمعنى ما من جديد، لكن على مستوى تاريخي أرفع بكثير من سابقيهم . ان سقوط الاممية الشيوعية ، الاشد خزياً من سقوط الاشتراكية ــ الديموقراطية عام ١٩١٤ ، يحرج كثيراً التقدم الى الامام في البداية . ان تجميع الاطر الجديدة يتم ببطء خلال نضال الطبقة العاملة القاسي ضد جبهة البيروقراطية الرجعية والوطنية الموحدة . كما ان هذه المصاعب التي لم تسقط على البروليتاريا بعامل الصدفة تشكل، من ناحية اخرى ، عاملاً هاماً في الاختيار الصائب والاختيار الموثوق للكتائب الاولى من الحزب الجديد والاممية الجديدة .

ان قسماً صغيراً للغاية من أطر الاممية الشيوعية كان قد بدأ تثقيفه الثوري في بداية الحرب ، قبل ثورة تشرين الاول . وهؤلاء جميعاً ، بدون استثناء تقريباً ، موجودون حالياً خارج الأممية الثالثة وان الصف الثاني قد انتمى الى ثورة تشرين الاول بعد ان كانت هذه قد انتصرت :

هذا كان أسهل . لكن لم يبق أحد تقريباً من هذا الصف الثاني نفسه . وان القسم الاعظم من الاطر الراهنة للاممية الشيوعية لم ينتم الى البرنامج البولشفي ، ولا الى الراية الثورية ، بل الى البيروقراطية السوفياتية . انهم ليسوا بمناضلين ، بل مجرد موظفين وديعين ومساعدين وخدم . ومن هنا كان تفسخ الأممية الثالثة بصورة غير مجيدة البتة في موقف تاريخي غني بامكانيات ثورية عظيمة .

ان الأممية الرابعة تتسلق على اكتاف الأمميات الثلاث المتقدمة عليها . انها تتلقى الضربات من الامام ومن الجنب ومن الخلف . وليس من عمل في صفوفها للوصوليين والجبناء والمحدودي الأفق . وان قسماً ، محتماً في البداية ، من المتعصبين والمغامرين سيختفي كلما نمت الحركة . ولنترك الادعياء والمتشككين يهزوا اكتافهم ازاء المنظمات « الصغيرة » التي تصدر صحفاً « صغيرة » وتوجه التحديات الى العالم أجمع . ان الثوريين الجادين سيمرون بهم بازدراء ان ثورة تشرين الاول قد بدأت هي ايضاً بالسير في حذاء طفل .

ان الاحزاب الروسية الاشتراكية ــ الثورية والمنشفيكية القوية قد شكلت ، طوال شهور ، « جبهة شعبية » مع الكاديت ، ثم تلاشت هباء تحت ضربات « حفنة من متعصبي » البولشفية ولقد لاقت الاشتراكية ــ الديموقراطية الالمانية ، والحزب الشيوعي الالماني ، والاشتراكية ــ الديموقراطية النمساوية ، لاقت الموت بدون مجد تحت ضربات الفاشية . ان العصر الذي سيبدأ بالنسبة الى الانسانية الاوروبية لن يترك اثراً في الحركة العمالية من كل ماهو ملتبس ومتقرح . ان جميع من هم على شاكلة

جوهو وسيترين وبلوم وكاشان وفاندرفيلد وكاباليرو، ليسوا الا أشباحاً. ان شعب الاممتين الثانية والثالثة ستغادر المسرح الواحدة تلو الاخرى بدون ضجة . ان تجميعاً جديداً وعظيماً للصفوف العمالية قد أصبح محتماً. ان الاطر الثورية الجديدة ستكتسب لحماً ودماً . ان النصر ليس ممكناً الا على أساس الطرائق البولشفية التي كتب هذا الكتاب دفاعاً عنها .

ل . تروتسكي

٢٨ آذار ١٩٣٦



-٣-

مقدمة الطبعة الانكليزية الثانية

١٠ كانون الثاني ١٩٣٥

مقتطفات

كتب هذا الكتاب عام ١٩٢٠ ،في عربة قطار عسكري ، أثناء أوج الحرب الاهلية . وان على القارىء ألا يغفل عن ذلك اذا كان يريد ان يكون فكرة دقيقة لا عن المحتوى الاساسي للكتاب ، بل ايضاً عن الاشارة الى احداث العصر وبخاصة اللهجة .

انه موجه ، تحت شكل الجدال ، ضد كارل كاوتسكي . ان هذا الاسم لايقول شيئاً كثيراً للجيل الجديد ،رغم ان كاوتسكي مايزال معاصرنا : فهو قد احتفل مؤخراً بعيد ميلاده الثمانين .لقد تمتع كاوتسكي بنفوذ كبير في حضن الأممية الثانية ، باعتباره الشارح النظري للماركسية .ولقد بينت الحرب بسرعة ان ماركسيته هي مجرد طريقة للتفسير السلبي للصيرورة

التاريخية ، وليست البتة طريقة للعمل الثوري . لقد وقف كاوتسكي ، شأنه شأن الكثيرين ، موقف النقد الثوري والآفاق الجريئة ، طالما ان الصراع الطبقي كان يدور بين ضفاف البرلمانية المأمونة . ولم يكن هذا الموقف يلزمه بشيء عملياً . لكن حين طرحت الحرب وفترة مابعدالحرب مشكلات الثورة بعبارات واضحة، أخذ كاوتسكي موقفه نهائياً فيالطرف الآخر من المتاريس . لقد جعل من نفسه ، دون ان يقطع صلته بالتعابير الماركسية ، متهم الثورة البروليتارية ، ومحامي السلبية والاستسلام أمام الامبريالية .

كان كارل كاوتسكي وقادة حزب العمال يقفون ظاهرياً ، قبل الحرب ، في القطب الاقصى من الأممية الثانية . وإن جيلنا ، الذي كان يمثل آنذاك الشباب ، قد استخدم مراراً أسلحة مأخوذة من ترسانة تروتسكي لمحاربة انتهازية ماكدونالد وهندرسون وغيرهما . وصحيح اننا كنا ، حتى في ذلك العهد ، نتطرف الى أبعد مما كان يريد المعلم المتردد . ولقد كانت روزا لوكسمبرغ ، التي تعرف كاوتسكي خيراً منا ، تفضح منذ فترة ماقبل الحرب جذريته المائعة . ولقد سلط العصر الجديد ، على كل الاحوال ، ضوءاً ساطعاً على الموقف : ان كاوتسكي ينتمي الى نفس معسكر هندرسون واذا كان الاول مايزال يستشهد بماركس ، في حين ان الثاني يفضل مزامير داوود ، إلا ان هذا الاختلاف في العادات لايخرج في شيء تضامنهما .

... انني اترك لهذا الكتاب ، بهدف الاستمرار ، العنوان الذي ظهر به في الطبعة الانكليزية الاولى : « دفاع عن الارهاب » . الا انه

من الضروري ان نشير فوراً الى ان هـذا العنوان الذي يعود الى الناشر لا الى المؤلف واسع اكثر مما ينبغي ، ويمكن ان يكون مصدراً لسوء التفاهم . ان المسألة ليست هي البتة الدفاع عن « الارهاب » كإرهاب . ان تدابير الاكراه والتخويف ، بما فيها أبادة الخصوم المادية ، قد خدمت وما تزال تخدم قضية الرجعية ، المتجسدة في الطبقات المستغلة المدانـة ، اكثر بكثير مما خدمت قضية التقدم التاريخي التي تجسدها البروليتاريا . ان الاخلاقيين حاملي الشهادات الذين يدينون « الارهاب » بصورةعامة، انما يقصدون بوجه خاص الأفعال الثورية للمضطهـدين الذين يطمحون الى التحرر . واسطع الامثلة عليهم السيد رامساي ماكدونالد . لقـد أدان هذا الاخير العنف بلا كلل باسم مبادىء الاخلاق والدين الخالدة . لكن حين طرح تفسخ النظام الرأسمالي وتفاقم صـــراع الطبقات مسألة نضال البروليتاريا الثوري من أجل السلطة ،حتى في انكلترا ،انتقل ماكدونالد من معسكر الشغيلة الى معسكر البورجوازية المحافظة بنفس السهولة التي ينتقل بها المسافر من عربة مسموح فيها بالتدخين الى عربـة غير مسموح فيها بالتدخين . ان خصم الارهاب الورع يدعم اليوم، بواسطةجهازعنف، النظام « السلمي »القائم على البطالة والاضطهاد الاستعماري والتسلح المتسارع والاعداد لحروب جديدة .

ان هذا الكتاب بعيد بالتالي عن الدفاع عن الارهـاب بصورة عامة . انه يدافع عن القوانين التاريخية للثورة البروليتارية . ان الفكرة الاساسية في هذا الكتاب هي التالية : إن التاريخ لم يجـد حتى الآن من وسائل أخرى لتقدم الانسانية إلا بمعارضتـه في كل مرة عنف الطبقات المدانة بالعنف الثوري للطبقة التقدمية .

ان الفابيين غير القابلين للشفاء سيقولون بالطبع انـه اذا كان من الممكن ان تكون استنتاجات هذا الكتاب صحيحة بالنسبة الى روسيا المتخلفة ، الا انها لايمكن ان تطبق على البلدان المتقدمة ، وبخاصة على الديموقراطيات القديمة كبريطانيا العظمى . ان هذا الوهم المعزي كان يمكن ان يبدو مقنعاً الى حد ما قبل عشرة أو خمسة عشر عاماً . لكن موجة من الدكتاتوريات الفاشية أو العسكرية البوليسية قد اجتاحت قسماً لا بأس به من البلدان الاوروبية . فغداة طردي من الاتحاد السوفياتي في ٢٥ شباط ١٩٢٩ ، كتبت ـ لا للمرة الاولى ـ بصدد الوضع في أوروبا :

« لقد أثبتت المؤسسات الديموقراطية انها لاتستطيع ان تقاوم ضغط التناحرات الراهنة ، ذات الطابع الدولي حيناً ، والداخلي حيناً آخر ، والاثنين معاً في غالب الاحيان . . ان الديموقراطية يمكن ان تعرف ، بالتشابه مع الالكترونيك ، بأنها نظام من قواطع التيار والموانع ضد تيارات النضال الوطني او الاجتماعي الأقوى من اللازم . ان ما من عصر آخر في التاريخ قد حمل بالتناحرات ، ولو من بعيد ، بمثل ما حمل عصرنا . ان التيار المحمل اكثر من طاقته يتجلى اكثر فأكثر في عدة نقاط من الشبكة الاوروبية . وان قواطع التيار الرصاصية تذوب أو تنفجر تحت الضغط المرتفع للتناحرات الدولية والاجتماعية . هذه هي طبيعة قواطع تيار الدكتاتورية . ان القواطع الرصاصية الأضعف والأوهن هي اول ماتصاب . والحال ان عنف التناحرات الداخلية والعالمية لاينقص ، بل على العكس يتزايد . وعبثاً نحاول ان نتعزى بفكرة ان هذا التحول لم يغز الا محيط العالم الرأسمالي . ان النقرس يبدأ بابهام القدم ، لكنه يصيب القلب في النهاية » ...

فهرس

تروتسكي

من المؤسف حقاً ألا تكون المكتبة العربية قد عرفت حتى اليوم كتاباً واحـداً لذلك الثوري الكبير . . تروتسكي ، اللهم الا الكتب التي تهاجمه وتجرحه . ان ستاراً من الصمت قد اسدل حول مؤلفاته ، لا في الوطن العربي وحده بل أيضاً في العالم اجمع .

ان تاريخ ثورة ١٩١٧ ، اول ثورة اشتراكية في العالم ، لا ينفصل البتة عـن تروتسكي الذي كان ترتيبه يأتي مباشرة بعد لينين . ويهمنا هنا ونحن نقدم هذا الكتاب للقارىء العربي ان نؤكد ان الانسان الاشتراكي المعاصر ليس ملزماً البتة بذلك الاحراج الذي حاول الستالينيون في الماضي أن يقيموه تجاه تروتسكي : امـا أن تكون من « التروتسكيين المارقين » واما أن ترضى وتسام في احاطة اسمه بنوع من التابو والتحريم ذلك أن الحركة الاشتراكية الصاعدة في الوطن العربي لهي بحاجة الى تراث الاشتراكية العلمية لا الى تيار واحد من تياراتها

لقد كان تروتسكي ثورياً ومفكراً اشتراكياً . وقـد تكون له أخطـاؤه لكن الاخطاء لا تجعل من جدارة الانسان صفراً : كل ما هنالك انها تكشف عن حدوده. والواقع انه كان لتروتسكي دور كبير في ثورة اكتوبر ، ثم في فضح البيروقراطيـة الستالينية . وفهم التجربة السوفياتية يظل ناقصاً اذا ما حذفنا اسم تروتسكي .

ولقد اخترنا أن نقدم نظري « الثورة الدائمة » الى القارىء العربي من خلال هذا الكتاب الذي ألفه عام ١٩٢٠ حين كان رفيق لينين الاول ومفوض الشعب لوزارة الحربية ، وقائد الجيش السوفياتي على جبهات القتال المتعددة وفي الحرب الاهلية . ونحن نأمل أن نتمكن في وقت قريب من اتباع هذا الكتاب الذي هو دفاع عن العنف الثوري، بمؤلفيه الاخرين البالغي الاهمية : « الثورة الدائمة » و « الثورة المغدورة » .

جورج طرابيشي

النشر والتوزيع في الاقطار العربية

دار دمشق : دمشق شارع بور سعيد هاتف ١١٦٦٥